سلطنة عمان

جامعة نزوى

كلية العلوم والآداب

قسم اللغة العربية وآدابها

التناسب في سورة يونس
دراسة دلالية

رسالة تقدم بها الطالب

سعيد بن خميس بن سالم الهاشمي

استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها

تخصص : الدراسات اللغوية العربية

إشراف

أ.د أحمد هاشم السامرائي

ربيع الآخر1438هـ / يناير2016 م

المحتويات

الموضوع	الصفحة
ملخص الرسالة باللغة العربية	أ
ملخص الرسالة باللغة الإنجليزية	ج
المقدمة	١
الفصل الأول : تناسب النص	٥
المبحث الأول : المناسبات في سورة يونس	٦
القسم الأول : المناسبات الخارجية : وتمثل بـ :	٦
١.تناسب الترتيب المصحفي للسور الثلاث (التوبة يونس هود)	٦
٢. التناسب بين فواتح السور الثلاث (التوبة يونس هود)	١٨
٣. التناسب بين موضوعات سور (التوبة، ويونس، وهود) وقصصها	٣٦
٤. التناسب بين فاتحة يونس وخاتمة التوبة	٤٥
٥. التناسب بين خاتمة يونس وفاتحة هود	٤٨
القسم الثاني : المناسبات الداخلية، وتمثل بـ :	٥١
تناسب اسم السورة مع مقصودها	٥١
التناسب بين فاتحة السورة وخاتمتها	٥٩
التناسب بين الآيات، ويشمل :	٦٤
١. التناسب بين مقاطع الآيات	٦٥
٢. تناسب الآية مع ما قبلها	٨١
٣. تناسب الآية الواحدة من حيث : تناسب صدر الآية مع خاتمتها	٨٧
المبحث الثاني : تناسب القصصي	٩٤
أهمية القصص القرآني	٩٤
طرائق عرضه	٩٧
تناسب التسلسل القصصي	١٠٥

الموضوع	
تناسب القصة مع مقصود السورة	١١٣
الفصل الثاني : تناسب الأسلوب والمتشابه اللفظي	١٢٨
المبحث الأول : تناسب الأسلوب وفيه :	١٢٩
تعريف الأسلوب	١٢٩
الأسلوب القرآني	١٣٢
تناسب التوكيدِ	١٣٣
تناسب الإجمال والتفصيل	١٥١
تناسب الاستئناف	١٥٣
المبحث الثاني : تناسب المتشابه اللفظي	١٦٠
تعريفه المتشابه اللفظي	١٦٠
أهمية المتشابه اللفظي	١٦١
المتشابه في التركيب	١٦٣
المتشابه في إبدال الكلمة	١٧٠
المتشابه في أحوال الاسم	١٨٤
المتشابه في أحوال الفعل	١٨٦
المتشابه في الذكر والحذف	١٨٨
الفصل الثالث : تناسب النظم	١٩٣
المبحث الأول : تناسب التركيب والمفردة اللغوية	١٩٧
تناسب التركيب وفيه :	١٩٧
تناسب التقديم والتأخير	١٩٧
تناسب الحذف	٢٠٥
تناسب المفردة اللغوية	٢١٢
القسط	٢١٣
الكبرياء	٢١٦

الموضوع	الصفحة
قتر	٢١٨
ببدنك	٢٢٠
المبحث الثاني : تناسب التشكيل الصوتي والبنية الصرفية	٢٢٣
تناسب التشكيل الصوتي، وفيه :	٢٢٣
أولاً: الفاصلة وأنواعها :	٢٢٥
١. التمكين	٢٢٦
٢. التصدير	٢٢٧
٣. التوشيح	٢٢٨
٤. الإيغال	٢٢٩
ثانيًا : الدلالة الصوتية	٢٣٠
الأول : دلالة الصوت المفرد	٢٣٠
الثاني : دلالة تركيب الأصوات	٢٣٦
تناسب البنية الصرفية	٢٣٩
بنية التضعيف، ومنه	٢٤٠
فعَّل	٢٤٠
تفعَّل	٢٤٣
بنية المشتقات، ومنها :	٢٤٨
١. اسم الفاعل	٢٤٨
٢. الصفة المشبهة	٢٥١
٣. صيغة المبالغة	٢٥٤
الخاتمة	٢٥٨
قائمة المصادر والمراجع	٢٦٦
قتر	٢١٨

ملخص الرسالة

إن القرآن الكريم بناء فنيٌّ فريد، لا يعلو عليه أي بيان، ولا يسمو عليه أي تعبير، فكل لفظة فيه عاشقة مكانها، لما يتميز به من نظمٍ أعجز الألباب، وتناسب عجيب حيَّر الأذهان، كيف لا، وهو كلام الملك الدَّيّان.

والذي ينعم النظر ويدقق البصر في سور القرآن الكريم يجد أنها تشكل لحمة موضوعية واحدة، متناولة مقاصد معينة، وأهدافًا سامية، ومرامي سامقة، أراد الله أن يبلورها في آي كتابه، ويؤكدَها في صفحات قرآنه الذي أنزله على قلب نبيه المصطفى ﷺ .

ولا يقف التناسب في السور القرآنية عند حدِّ التناسب الموضوعي، بل يتعداه إلى التناسب في التركيب الذي يدلّ على الدقة في اختيار المفردة القرآنية، وانسجامها داخل التركيب، وروعة انتقاء بنيتها الصرفية، وأصواتها اللغوية، إلى جانب الوقوف على أوجه الإحكام في ترتيب آيات السورة القرآنية داخليًا، ويظهر ذلك في تناسب فاتحتها بخاتمتها، وتناسق مقاطع آياتها مع بعضها، وترابط فاصلة كل آية بصدرها، ممّا يجعل السورة نصًّا متماسكَ الأجزاء، لتترابط مرة أخرى مع السورة التي قبلها، والسورة التي بعدها، ومن ثَمَّ كان القرآن الكريم كلُّه كالسورة الواحدة لاتِّصال بعضه ببعض، بل هو كالآية الواحدة كما يقول الفخر الرازي، ناهيك عن تناسب القصص داخل كلّ سورة بما يتوافق مع مقاصد تلك السورة.

ويأتي علم المناسبة ليفتِّق للدارسين والباحثين عن هذا التلاحم الموضوعي والترابط في التركيب والترتيب في السور القرآنية، ولهذا قررت الكتابة في هذا العلم، بعد أن أوضح لي الأستاذ الدكتور أحمد هاشم السامرائي بعضًا من جوانب هذا العلم، وخَيَّرَني بين سورتي يونس والقصص لكونهما لم تُدْرسا بعدُ في ضوء علم المناسبة، فاخترت سورة يونس، فكان عنوان رسالتي : (سورة يونس . دراسة لغوية في ضوء علم المناسبة).

❖ أسباب اختيار الموضوع :

١. أهمية علم المناسبة في خدمة كتاب الله الذي لا تنقضي عجائبه .
٢. الرغبة في دراسة علم المناسبة في سورة يونس ؛ لكونها لم تُدرس بعد .
٣. الوقوف على أسرار المناسبة بين آيات السورة ومقاطعها وقصصها وأساليبها.

٤. التَّدرُب على تحليل النصوص القرآنية في ضوء علم المناسبة .

❖ أهمية الموضوع :

تتمثل أهمية الموضوع في أنه يخدم كتاب الله في تجليته روائع النظم فيه، وإظهار صورة من صور الإعجاز القرآنيّ، فضلًا عن كونه يفتح آفاقًا تفسيرية رحبة للمتدبرين في آياته .

❖ خطة الرسالة :

اقتضت طبيعة البحث أن تقسم الرسالة إلى تمهيد وثلاثة فصول، مُذيلة بخاتمة وقائمة المصادر والمراجع، على وفق المنهجية الآتية :

١. التمهيد : وخصَّصته لـ (**علم المناسبة**) ، فتناولت فيه : (تعريف علم المناسبة ، وبيان أهميته ، ومكانته في التراث) .

٢. الفصل الأول : عنوانه : (تناسب النَّصّ)، فتناولت فيه نصّ سورة يونس على مبحثين : (المناسبات في سورة يونس)، و(تناسب القصص) .

٣. الفصل الثاني : عنوانه : (تناسب الأسلوب والمتشابه اللفظي)، فجاء على مبحثين : (تناسب الأسلوب)، و(تناسب المتشابه اللفظي) .

٤. الفصل الثالث : (تناسب النظم)، فجاء مقسمًا على مبحثين : (تناسب التركيب النحوي والمفردة اللغوية)، و(تناسب التشكيل الصوتي و البنية الصرفية) .

٥. الخاتمة : اشتملت على أهم النتائج التي توصلت إليها هذه الرسالة في فصولها المختلفة.

Abstract

The Holy Quran is based on a unique structure where no eloquence would be better than, nor expression would reach its magnificence. Each utterance is put in well-chosen place as the Quran system continues to bewilder the brightest minds: it is the miraculous speech of the Almighty Allah indeed.

Closely examining the Holy Quran Surahs (Chapters), a person would find out that they form a one unit theme; examining certain objectives and realizing majestic intentions. The Almighty Allah wants to manifest these in the verses of the Holy book that being revealed to the blessed heart of Prophet Mohammad.

However, the relevance of the Surahs is not only dependent on the thematic appropriateness, but it goes further to the structural one as it demonstrates accuracy of the Quran lexical choice, its consistence within structure as well as the impressive selection of its morphology and phonetics, and the perfect internal order of the verses in each Surah. This would be clearly shown on the suitability of the introduction and conclusion, arrangement of the verses' syllabus, linkage of each verse's interval with its introduction; thus, maintaining the Surah cohesion and its association with the precedent and subsequent ones. Taking these into consideration, the Holy Quran is taken as a one Surah because of its interconnection, and rather Al-Fakhr Al-Razi described it as one Surah, and the narratives are consistent with their purposes indeed.

‘Relevance Science’ provides researchers with exposure to the thematic blend, association in structure and order of Surah. Thus, I consider to write on this field, after this topic being deliberated with Dr. Hashim Al-Samurai, who advised me to select whether Surah of ‘Yunus’ or ‘Al-Qasas’ as they have not been studied yet in terms of ‘Relevance Science’.

Reasons for topic selection:

The researcher opts for Surah ‘Yunus; due to its external appropriateness with both ‘Tauba’ and ‘Hud’ Surahs, besides its internal appropriateness in terms of verses and syllabus. There are also a number of narratives connected in certain objectives, and bearing in mind that this Surah has not examined yet, despite the fact of its richness for study and application.

Significance of the study:

The importance of this research is derived from the fact that it is dedicated for the sake of serving the Holy Quran in the manifestation of its magnificent systems and revelation of some of its miracles. It would also entail scholars to diverse interpretations of the Quran verses.

Methodology:

1. Chapter one is titled ‘Relevance of Text’ and it reviews the text in ‘Yunus’ in two sections: (occasions in Yunus) and (suitability of narratives).
2. Chapter two divides the topic ‘Relevance of Pattern and Lexical Similarity’ into two sections: (Relevance of Pattern) and (Relevance of Lexical Similarity).

3. Chapter three examines ‘Relevance of Systems’ in two sections: (Relevance of Grammar Structure and Terminology) and (Relevance of Phonetics and Morphology).

4. The conclusion highlights the research findings in different chapters.

It is note-worthy that, researcher favored not to write an introduction about Relevance Science; given the prior extensive research on this field .

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل كتابه متناسب الأجزاء، مُحْكَم البناء، والصلاة والسلام على الحبيب محمَّد خِيْرَة أنبيائه الأصفياء، وعلى من سار على نهجه من عباد الله الأوفياء، أمّا بعد :

فإن القرآن الكريم بناء فنيٌّ فريد، لا يعلو عليه أي بيان، ولا يسمو عليه أي تعبير، فكل لفظة فيه عاشقة مكانها، لما يتميز به من نظمٍ أعجز الألباب، وتناسب عجيب حيَّر الأذهان، كيف لا، وهو كلام الملك الدَّيّان.

إن من ينعم النظر ويدقق البصر في سور القرآن الكريم يجد أنها تشكل لحمة موضوعية واحدة، متناولة مقاصد معينة، وأهدافًا سامية، ومرامي سامقة، أراد الله ﷻ أن يبلورها في آي كتابه، ويؤكدَها في صفحات قرآنه الذي أنزله على قلب نبيه المصطفى ﷺ .

ولا يقف التناسب في السور القرآنية عند حدِّ التناسب الموضوعي، بل يتعداه إلى التناسب في التركيب الذي يدلّ على الدقة في اختيار المفردة القرآنية، وانسجامها داخل التركيب، وروعة انتقاء بنيتها الصرفية، وأصواتها اللغوية، إلى جانب الوقوف على أوجه الإحكام في ترتيب آيات السورة القرآنية داخليًا، ويظهر ذلك في تناسب فاتحتها بخاتمتها، وتناسق مقاطع آياتها مع بعضها، وترابط فاصلة كل آية بصدرها، ممّا يجعل السورة نصًّا متماسكَ الأجزاء، لتترابط مرة أخرى مع السورة التي قبلها، والسورة التي بعدها، ومن ثَمَّ كان القرآن الكريم كلُّه كأنه سورة واحدة ؛ لاتِّصال بعضه ببعض، بل هو كأنه آية واحدة كما يقول الفخر الرازي، ناهيك عن تناسب القصص داخل كلّ سورة بما يتوافق مع مقاصد تلك السورة.

❖ أسباب اختيار الموضوع أجملها في الآتي :

١. أهمية علم المناسبة في خدمة كتاب الله الذي لا تنقضي عجائبه .
٢. الرغبة في دراسة علم المناسبة في سورة يونس ؛ لكونها لم تُدرس بعد .
٣. الوقوف على أسرار المناسبة بين آيات السورة ومقاطعها وقصصها وأساليبها.
٤. التَّدرُب على تحليل النصوص القرآنية في ضوء علم المناسبة .

❖ الدراسات السابقة :

لم أجد حسب المعلومات المتوفرة لديَّ مَنْ دراسات في علم المناسبة في سورة معينة إلا دراسة واحدة ، وهي رسالة ماجستير للباحث هشام ستار مهدي السامرائي ، بعنوان (سورة النمل ، دراسة لغوية في ضوء علم المناسبة) ، فأفدت منها ، إلى جانب اعتمادي على الكتب الأخرى التي عنيت بجانب النظر في التعبير القرآني ؛ ككتاب (التعبير القرآني) للأستاذ الدكتور فاضل السامرائي ، وكتاب (التعبير القرآني والدلالة النفسية) للدكتور عبدالله محمد الجيوسي ، وغيرها من الكتب .

❖ خطة الرسالة :

اقتضت طبيعة البحث أن تقسم الرسالة إلى تمهيد وثلاثة فصول، مُذيلة بخاتمة وقائمة المصادر والمراجع، على وفق المنهجية الآتية :

١. التمهيد : وخصَّصته لـ (علم المناسبة) ، فتناولت فيه : (تعريف علم المناسبة ، وبيان أهميته ، ومكانته في التراث) .
٢. الفصل الأول : عنوانه : (تناسب النَّصّ)، فتناولت فيه نصّ سورة يونس على مبحثين : (المناسبات في سورة يونس)، و (تناسب القصص) .
٣. الفصل الثاني : عنوانه : (تناسب الأسلوب والمتشابه اللفظي)، فجاء على مبحثين : (تناسب الأسلوب)، و (تناسب المتشابه اللفظي) .
٤. الفصل الثالث : (تناسب النظم)، فجاء مقسمًا على مبحثين : (تناسب التشكيل الصوتي و البنية الصرفية) و(تناسب التركيب النحوي والمفردة اللغوية).
٥. الخاتمة : اشتملت على أهم النتائج التي توصلت إليها هذه الرسالة في فصولها المختلفة .
٦. المصادر والمراجع : فقد كانت متنوعة ما بين الكتب، والرسائل العلمية والأطروحات الجامعية، وعلى رأس هذه المصادر : تفسير الكشاف للزمخشري، وتفسير مفاتيح الغيب للرازي، ونظم الدرر للبقاعيّ، والتحرير والتنوير لابن عاشور، والأساس في التفسير لسعيد حوّى، وفي ظلال القرآن لسيد قطب، وكتب الدراسات القرآنية للأستاذ الدكتور فاضل السامرائي، ومقاييس اللغة لابن فارس .

ولا يفوتني هنا إلا أن أتقدم بجزيل الشكر، وجميل الثناء، وعظيم الامتنان للأستاذ الدكتور (أحمد هاشم السامرائي) الذي تكرم عليَّ بإشرافه على هذه الرسالة، وجاد بالكثير من وقته وجهده وعلمه؛ فأسدى إليَّ من توجيهاته القيِّمَة، ونصائحه الجليلة بما ينهضُ بالرسالة على الوجه المطلوب رصانةً علميةً ومنهجيةً، وبما يقوِّمُ اعوجاجها، فضلًا عن توفيره لي المصادر والمراجع ، كما أشكر لكل مَنْ مدَّ لي يد العون والمساعدة في إنجاز هذا العمل المتواضع .

وختامًا هذا جهد مقلّ، فما كان فيه من صوابٍ فمن اللهِ وحدَه، وإن كان به من خطأٍ فمن نفسي ومن الشيطان ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣ ﴾[يوسف: ٥٣] .

تعريف علم المناسبة :

(**المناسبة**) في اللغة : مشتقةٌ من مادة (نَسَب) التي تدور حول معنى : اتِّصال شيء بشيء ، قال ابن فارس : ((النون والسين والباء كلمة واحدة ، قياسها اتِّصال شيء بشيء ، منه : (النَّسَب) ، سُمِّيَ لاتِّصاله ، وللاتِّصال به ، تقول : (نَسَبْتُ أَنْسُبُ ، وهو نَسِيْبُ فلان) ... ، و (النَّسيبُ) : الطريق المستقيم ؛ لاتِّصال بعضه من بعض))[1] .

ويُقالُ : (((بَين الشَّيْئَين مُنَاسَبَةٌ وتَنَاسُبٌ) : أَي مُشَاكَلَةٌ وتَشَاكُلٌ ، وَكَذَا قَوْلهم : (لَا نِسْبَةَ بينَهُمَا ، وَبَينَهُمَا نِسْبَةٌ قَرِيبةٌ)))[2].

من خلال هذا النظرة المعجمية يتبين لنا أنَّ مفردة (المُناسَبَةُ) قائمة على (المشاكلة ، والمقاربة ، والاتِّصال) ، ومن جهة أخرى أن مصطلح (المُناسَبَةُ) مصدر (ناسَب) الذي يدلُّ على المفاعلة والمشاركة ، وهذا يقتضي وجود أمر يربط بين شيئين أو يقارب بينهما.

(**المُناسَبَة**) اصطلاحًا : يُعَدُّ علم المناسبة من علوم القرآن الكريم ، وهو : ((علم تُعْرف منه عِلل ترتيب أجزائه))[3] ، ومرجعها في الآيات ونحوها ((إلى معنى ما رابط بينهما عام أو خاص ، عقلي أو حسي أو خيالي ، وغير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني ، كالسبب والمسبب والعلة والمعلول والنظيرين والضدين ونحوه))[4].

وقد عَرَّف الدكتور مصطفى مسلم علم المناسبة بقوله : ((هي الرابطة بين شيئين بأي وجه من الوجوه ، وفي كتاب الله تعني ارتباط السورة بما قبلها وما بعدها ، وفي الآيات تعني وجه الارتباط في كل آية بما قبلها وما بعدها))[5] ، ولكن هذا التعريف لم يأتِ على كلِّ الجوانب التي يهتم بها علم المناسبة من تناسب فاتحة السورة بخاتمتها ، وتناسب موضوعاتها وقصصها ، وللشيخ منّاع القطّان تعريف جامع لجوانب اهتمامات علم المناسبة ، إذ يقول :

---

[1]. مقاييس اللغة : ٥ / ٤٢٣ – ٤٢٤ (نسب) .
[2]. تاج العروس : ٤ / ٢٦٥ (نسب) .
[3]. نظم الدرر : ١ / ٦ .
[4]. البرهان في علوم القرآن : ١/ ٣٥ .
[5]. مباحث في التفسير الموضوعيّ : ٥٨ .

((وجه الارتباط بين الجملة والجملة في الآية الواحدة ، أو بين الآية والآية في الآيات المتعددة ، أوبين السورة والسورة))[1].

ويتبين من خلال ما سبق التوافق بين العرض اللغوي والاصطلاحي لتعريف علم المناسبة ، في أنه يعنى ببيان أوجه التناسب والارتباط بين الآيات والسور كمثل ما بين المتناسبين من قرابة ، ولكن لا يعني ذلك أن تكون الآيتان أو الآيات متماثلة تمام التماثل فيما بينها ، فقد يوجد بينها تضاد أو تباعد في المعنى ، وهذا يدعونا بدوره إلى الاستمرار في المحاولة بحثًا عن الروابط بينها.

أهمية علم المناسبة

علم المناسبة علمٌ مهمٌّ ، فهو يشحذ الفكر تدبرا في العلاقة الواشجة بين آيات القرآن الكريم ، ويُعمق التفكير لدى القارئ في البحث عن أسرار التعبير القرآني في ترتيب سوره وآياته وتراكيبه وألفاظه ، فينتهي به الأمر إلى الإيقان بأنَّ القرآن معجز في نظمه وحدة نصِّه ، يقول الرازي أثناء تفسيره لسورة البقرة : ((ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة ، وفي بدائع ترتيبها ، علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه ، فهو أيضا معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته ، ولعل الذين قالوا: إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك))[2].

والتَّشَرُّب بحكم الترتيب والوقوف على دقة النظم ، يورث في القلب يقينًا ، ويُمَكِّن في العقل إدراكًا بأن القرآن كُلٌّ لا يتجزأ ؛ لأنَّ هذا العلمَ يجعل ((أجزاء الكلام بعضها آخذًا بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط ، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم ، المتلائم الأجزاء))[3] ، وبهذا يتحقق ارتباط السورة القرآنية بآياتها ، فيكون هذا العلم سببًا في فهم النَّصِّ القرآني ، ومُساعِدًا على حلّ كثير من مشكل تفسير بعض الآيات ، يقول البقاعي : ((وبذلك يوقف على الحقّ من معاني آيات حار فيها المفسرون ، لتضييع هذا الباب من غير ارتياب ... ، منها قوله تعالى في سورة [النساء : ٩٥ – ٩٦] : ﴿ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ

---

[1]. مباحث في علوم القرآن : ٩٦ .
[2]. مفاتيح الغيب : ٧ / ١٣٩ .
[3]. البرهان في علوم القرآن : ١ / ٣٦ .

﴿ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ﴾ مع قوله عقيبه : ﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ ﴾))[1].

فضلًا عن أهميته في إيضاح التناسب بين آيات التَّشريع ، وبيان مدى التلاؤم التامّ بين أحكام الشريعة ، فمثلا في قوله ﷻ : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [النور: ٣٠] ، فالمناسبة بين الأمر بغضِّ البصر والأمر بحفظ الفرج واضحة ومتلائمة ؛ إذ حفظ الفرج لا يكون إلا بغَضِّ البصر ، بمعنى آخر أن غضَّ البصر مقدم على حفظ الفرج ، وإلا لوقع الإنسان في الزَّلَل ؛ لأن النَّظر سهم من سهام الشيطان[2].

كما لعلم المناسبة فضل في رفد (التفسير الموضوعي) بوجوه المناسبات التي تعين على تحديد محور السورة وهدفها ، وتفتح آفاقا واسعة للمفسر في دراسة قضية معينة في القرآن ، أو دراسة السور القرآنية دراسةً تتناول موضوعاتها وأهدافها التي ترمي إليها[3] ، ومن ثَمَّ لا غرابة أن يقول الإمام فخر الدين الرازي : ((أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط))[4].

موقف العلماء من علم المناسبة

وعلى الرغم من هذه الأهمية التي يحظى بها علم المناسبة ، إلا أن هناك من العلماء من اتَّخذ موقفا معارضا لهذا العلم ، وهناك من توسط بين ردِّه وقبوله ، وسأعرض ذلك الموقفين على النحو الآتي :

أولا : موقف المعارضين :

على رأس هؤلاء المعارضين الشيخ محمَّد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ)[5] ، وأنقل هنا بعضا مما قاله في إنكاره علم المناسبة : ((اعلم أنَّ كثيرًا من المفسرين جاءوا بعلم مُتَكَلَّفٍ ،

---

[1]. نظم الدرر : ١ / ١٣ .
[2]. ينظر : المناسبة بين الفواصل القرآنية وآياتها ، دراسة تطبيقية : ٤ ــ ٥ .
[3]. ينظر : مباحث في التفسير الموضوعي : ٩١ ، وعلم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن وكشف إعجازه : ٤٢ .
[4]. مفاتيح الغيب : ١٠ / ١٤٥ .
[5]. ممن وافق الشوكاني في إنكاره علم المناسبة الشيخ محمَّد بن عبدالله الغزنوي (ت ١٢٩٦هـ) ، ينظر : مباحث في التفسير الموضوعي : ٦٢ .

وخاضوا في بحر لم يُكلَّفوا سباحته ، واستغرقوا أوقاتهم في فنٍّ لا يعود عليهم بفائدة ، بل أوقعوا أنفسهم في التكلُّم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه ، وذلك أنَّهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف ، فجاؤوا بتكلُّفات وتعسُّفات يتبرَّأ منها الإنصاف ، ويتنزَّه عنها كلام البلغاء فضلًا عن كلام الرَّبِّ سبحانه ، حتّى أفردوا ذلك بالتصنيف ، وجعلوه المقصِدَ الأهمَّ من التأليف ، كما فعله البقاعي في تفسيره ، ومن تقدمه حسبما ذكر في خطبته ، ... ، فأي معنى لطلب المناسب بين آيات نعلم قطعا أنه قد تقدم في ترتيب المصحف ما أنزله الله متأخرًا، وتأخَّر ما أنزله الله متقدِّما ، فإنَّ هذا عمل لا يرجع إلى ترتيب نزول القرآن ، بل إلى ما وقع من الترتيب عند جمعه ممن تصدى لذلك من الصحابة ، وما أقلَّ نفع مثل هذا وأنْزَرَ ثمرته ، وأحقر فائدته ، بل هو عند من يفهم ما يقول وما يقال له من تضييع الأوقات ، وإنفاق الساعات في أمر لا يعود بنفعٍ على فاعله ، ولا على من يقف عليه من الناس))[1].

وإني لأعجب من قول الشوكاني في ردِّه علم المناسبة بأنه علم مُتَكَلَّف ، إذ كيف يكون علمًا مُتَكَلَّفًا ، وهو سبيل إلى بيان إعجاز القرآن الكريم في نظمه ، وطريقٌ إلى كشف أسراره البيانية في ألفاظه وتراكيبه ، بل يجعل النَّصَّ القرآنيَّ لُحمةً واحدةً متماسكةً ، والمتتبع للنقد في العصر الجاهلي يلحظ كيف كانوا ينقدون بعضهم بعضًا عندما يحيدون عن وحدة النص ، كما يقول أحدهم : أنت تقول الشعر وابن عمه ، وأنا أقول الشعر وأخاه ، فكيف لا يكون هذا التناسب في أعلى مقامات الكلام بلاغةً ، وأرفع مراقي النظم فصاحةً ، وهو كلام الله العزيز الحكيم ، ثُمَّ إنْ كان مِنْ تَكَلُّفٍ جَرَتْ به بعضُ الألسن أو خَطَّتْه بعض الأقلام ، فليس هذا سببًا في ردّ هذا العلم ، أو الطعن\ فيه ، وإنَّما ترد هذه الأقوال المُتَكَلِّفَةُ نفسُها[2] ، وفي هذا يقول الأستاذ الدكتور نور الدين عتر : ((ونجيب عن هذا بأن هذا حيف على المفسرين واضح ، فما أكثر المناسبات الذكية الصحيحة التي يقبلها العقل ، ويطرب لها الذوق في كتبهم ، وإذا كنّا نرفض أي علم لأخطاء وقعت في بعض أمور اجتهاد أفراد من أهله ، فأخطؤوا في زعمنا لما بقي لنا علم))[3].

---

[1]. فتح القدير : ١ / ١٧١ – ١٧٣ .
[2]. ينظر : علم المناسبات في السور والآيات : ٣٤ ، ومباحث في التفسير الموضوعي : ٦٥ .
[3]. علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن وكشف إعجازه : ١٣ - ١٤ .

أما شبهة انعدام طلب المناسبة بين الآيات ، بحُجَّة أنَّها نزلت متفرقةً على حسب الوقائع على مدار نيّف وعشرين سنةً ، فهي ليست بشبهة أصلًا ، فكما أنَّ لنزولِ الآيات لحكمةً ، فكذلك لترتيبها داخل المصحف حكمة في مراعاة تناسبها ، وإحكام تناسقها ، فقد نزلت الآيات بعلم الله ، ورُتِّبَتْ بوحيه[1] ، والقول بعدم المناسبة بين الآيات ، فيه ما فيه من المجازفة ؛ لأنَّ فيه افتراضًا أن هناك تناقضا بين نزول الآيات وترتيبها في المصحف ، والله ﷻ يقول : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء: ٨٢] ، بينما القول بالمناسبة فيه تنزيه لكلام الله عن الفوضى والتناقض[2].

وأما قوله بأنَّ المناسبة كلام (بمحض الرأي المنهيُّ عنه) ، فللأستاذ الدكتور نور الدين عتر ردٌّ جميلٌ في ذلك ، إذ يقول : ((إنَّ الادِّعاء بأنَّ فنَّ المناسبة كلام بمحض الرأي المنهي عنه غير مقبول ، لأنَّ الرأي المنهيَّ عنه في تفسير القرآن هو الرأي الناشئ عن الهوى أو البعيد عن الاستدلال المقبول ، وما كان من القول في المناسبة هكذا لا تَخالَف في منعه ، وأن الخوض فيه غير جائز ، أمّا ما كان مستندًا إلى دلائل معتبرة في أصول دراسة النَّصِّ ، فكيف يكون منهيًّا عنه ، بعدما تبين مشروعية التفسير بالرأي الناشئ عن البحث الصحيح المستوفي لشروطه المعتبرة))[3].

ومما يثير العَجَب العُجاب أن تجد الشوكاني نفسَه يُورد شيئًا من المناسبة في تفسيره ، فقد قال ، مثلًا ، في مناسبة قوله ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠٨] مع الآيات التي قبلها : ((لما ذكر الله سبحانه أن الناس ينقسمون إلى ثلاث طوائف: مؤمنين، وكافرين، ومنافقين، أمرهم بعد ذلك بالكون على ملة واحدة))[4] .

بل نجده يثني على البقاعي بسبب كتابه (نظم الدرر) ، فيقول : ((وَمن أمْعَنَ النَّظر فِي كتاب المُتَرجَم لَهُ فِي التَّفْسِير الَّذِي جعله فِي الْمُنَاسبَة بَين الآي والسور ، علم أَنه من أوعية الْعلم المُفْرِطين فِي الذَّكاء ، الجامعين بَين عَلمي الْمَعْقُول وَالْمَنْقُول ، وَكَثِيرًا مَا يُشْكل على

---

[1]. ينظر : المصدر نفسه : ١٦ .
[2]. ينظر : مباحث في التفسير الموضوعي : ٦٦ .
[3]. علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن وكشف إعجازه : ١٣ .
[4]. فتح القدير : ١ / ٣٧٣ .

شيء فِي الْكتاب الْعَزِيز ، فأرجع إلى مطولات التفاسير ومختصراتها ، فَلَا أجد مَا يشفي وأرجع إلى هَذَا الْكتاب فأجد مَا يُفِيد فِي الْغَالِب))[1].

ثانيًا : موقف الوسطيين :

ومن هؤلاء سلطان العلماء الشيخ عزُّ الدين عبد العزيز بن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ) ، إذ كان موقفه وسطيًّا بين قبول المناسبة وردِّها ؛ فإن كانت المناسبة ظاهرة قَبِلَها ، وإن كانت خفيةً رَدّها ، وفي ذلك يقول : ((المناسبة علم حَسَنٌ ، ولكن يُشْترط في حُسْن ارتباط الكلام أن يقع في أمر مُتَّحِدٍ مُرتبطٍ أَوَّلُه بآخِرِه ، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يُشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر ، ومن رَبَطَ ذلك ، فهو مُتَكَلِّفٌ بما لا يقدر عليه إلّا برباطٍ ركيكٍ يُصان عنه حَسَنُ الحديث ، فضلًا عن أحسنه ، فإنَّ القرآن نزل في نيِّفٍ وعشرين سنةً في أحكام مختلفة ولأسباب مختلفة ، وما كان كذلك لا يتأَتّى رَبْطُ بعضِهِ بِبَعْض))[2].

وجهة نظره هذه قائمة على أن المناسبة لا بد لها من شرط لقبولها ، وهو أن تكون في أمر متَّحدٍ يرتبط أوَّلُه بآخِرِه ، وما عدا ذلك فالمناسبة غير مقبولة ، بحجة أن القرآن نزل منجَّمًا على حسب الوقائع والأحوال ، وهذا ما لا يمكن ربط بعضه ببعض ، فيتعذر طلب المناسبة منه ، إلا بالتكلف ، والتعسف في الربط بين الآيات ، وهو بهذا يشترك مع الشوكاني في الحُجَّة ، ويختلف عنه بوسطيَّته.

وقد نقل الزركشي ردَّ أحد مشايخه المحققين عليه ، أنقله هنا بنصِّه وفصه لنفاسته ، إذ يقول : ((قَدْ وَهِمَ مَنْ قَالَ : لا يُطلب للآي الكريمة مناسبة ؛ لأنها على حَسَبُ الْوَقَائِعِ الْمُتَفَرِّقَةِ ، وَفَصْلُ الْخِطَابِ : أَنَّهَا عَلَى حَسَبِ الْوَقَائِعِ تَنْزِيلًا ، وَعَلَى حَسَبِ الْحِكْمَةِ تَرْتِيبًا ، فَالْمُصْحَفُ كَالصُّحُفِ الْكَرِيمَةِ عَلَى وَفْقِ مَا فِي الْكِتَابِ الْمَكْنُونِ ، مُرَتَّبَةً سُوَرُهُ كُلُّهَا وَآيَاتُهُ بِالتَّوْقِيفِ ، وَحَافِظُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ لَوِ اسْتُفْتِيَ فِي أَحْكَامٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، أَوْ نَاظَرَ فِيهَا ، أَوْ أَمْلَاهَا لَذَكَرَ آيَةَ كُلِّ حُكْمٍ عَلَى مَا سُئِلَ ، وَإِذَا رَجَعَ إِلَى التِّلَاوَةِ لَمْ يَتْلُ كَمَا أَفْتَى ، وَلَا كَمَا نَزَلَ مُفَرَّقًا بَلْ كَمَا أُنْزِلَ جُمْلَةً إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ ... ، قَالَ : وَالَّذِي يَنْبَغِي فِي كُلِّ آيَةٍ أَنْ يُبْحَثَ أَوَّلَ كُلِّ شَيْءٍ عَنْ كَوْنِهَا

---

[1]. البدر الطالع بمحاسن مَنْ بعد القرن السابع : ١ / ٢٠ .

[2]. البرهان في علوم القرآن : ١ / ٣٧ .

مُكَمِّلَةً لِمَا قَبْلَهَا ، أَوْ مُسْتَقِلَّةً ، ثُمَّ الْمُسْتَقِلَّةُ مَا وَجْهُ مُنَاسَبَتِهَا لِمَا قَبْلَهَا ؟ فَفِي ذَلِكَ عِلْمٌ جَمٌّ ، وَهَكَذَا فِي السُّوَرِ يُطْلَبُ وَجْهُ اتِّصَالِهَا بِمَا قَبْلَهَا وَمَا سِيقَتْ لَهُ))[1].

ولعل الذي جعل هذين العالمين العز بن عبد السلام والشوكاني يقفان هذا الموقف من علم المناسبة ، هو الخوف من الوقوع في التكلف ، والتقول على الله بغير علم ، ولأجل النأي عن ذلك فقد وضع الدكتور محمَّد بازمول شروطًا لطلب المناسبات في القرآن الكريم ، وهي : ((

١. أن تكون المناسبة منسجمة مع السياق ، والسباق ، واللحاق .
٢. أن لا تكون المناسبة متعارضة مع الشرع .
٣. أن تكون متوافقة مع تفسير الآية ، غير مخالفة له مخالفة تضاد .
٤. أن لا تكون المناسبة متعارضة مع اللسان العربيّ المبين الذي نزل به القرآن العظيم .
٥. أن لا يجزم المفسر بأن هذه المناسبة هي مراد الله تعالى ، غاية الأمر أنَّ هذا ما أدّاه إليه اجتهاده ونظره وتدبره .
٦. أن يعلم أنَّ المناسبة موجودة ، ولا يلزم أن تكون ظاهرة في كلِّ موضع لكل أحد))[2] .

علم المناسبة في التراث

النشأة والتأليف

لا يُعلم على وجه الدقة نشأةُ علم المناسبة ؛ لأنه كان يرد على شكل شذرات ولطائف ، كأي علم من العلوم التي لم تنتظم في بدايتها في قواعد وأسس ، وأمَّا ما يُذكر عند الباحثين من أنَّ واضع علم المناسبة هو أبو بكر النيسابوري (ت ٣٢٤ هـ) ، استنادا إلى ما قاله تلميذه أبو الحسن الشهراباني : ((أول من أظهر ببغداد علم المناسبة ، ولم نكن سمعناه من غيره ، هو الشيخ الإمام أبو بكر النيسابوري ، وكان غزير العلم في الشريعة والأدب ، وكان يقول على الكرسيِّ ، إذا قُرِئَ عليه الآية ، لِمَ جُعِلَت هذه الآية إلى جنب هذه ؟ ، وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة ؟ ، وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة))[3] ، واستنادا إلى ما نقله السيوطي أنَّ أوَّل مَنْ أظهر علم المناسبة الشيخ أبو

---

[1]. المصدر نفسه : ١ / ٣٧ .
[2]. علم المناسبات في السور والآيات : ٣٧ .
[3]. ينظر : البرهان في علوم القرآن : ١ / ٣٦ .

بكر النيسابوري[1] ، من غير أن ينسب هذا القول إلى قائله ، فقد أدّى كلٌّ هذا إلى القول بالأسبقية المطلقة إلى هذا العلم للنيسابوري[2] . ، وقد تعقب الدكتور عبد الحكيم الأنيس هذه النسبة ، مُبيِّنًا عدم صحتها ، مستندا في ذلك أنَّ النيسابوري الذي ينسب إليه هذا العلم ، قد تُوُفِّي سنة (٣٢٤ هـ) ، بينما النيسابوري الذي ذكره الشهراباني كان معاصرا له ؛ لأن الشهراباني من علماء القرن السابع الهجري[3] ، وعليه فإن نشأة هذا العلم غير واضحة.

وسأحاول أن أذكر تأريخ هذا العلم في النقاط الآتية :

١. وردت لمحات وإشارات على لسان السلف رضوان الله عليهم ، فقد كانوا يستأنسون بها في تفسير القرآن الكريم[4] ، ومما يروى في ذلك عن ابن مسعود ﷺ : (إذا سأل أحدكم صاحبَه كَيْفَ يقرأ آيةَ كذا وكذا ، فليسأله عمّا قبلها)[5].

٢. أول تفسير يرد فيه لطائف من المناسبات هو ((جامع البيان عن تأويل آي القرآن)) ، للإمام محمَّد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ)[6] .

٣. تفسير ((الكشاف)) للزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) ، حظيت المناسبة بنصيب وافر ، إلا أنه ترك مواضع كثيرة لم يطرق بابها ببيان المناسبة فيها.

٤. تفسير ((مفاتيح الغيب)) للإمام فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦ هـ) ، وقد شُهِدَ له بأنه أَكْثَرَ من المناسبات ، فقد كان كثيرا ما يورد أوجُهًا من المناسبة بين السورة وما قبلها ، وبين الآية وما بعدها[7] ، قال الغماري : ((والزمخشري والزمخشري يتعرض في تفسيره لبيان مناسبة الآي ، لكن الإمام الرازي أكثر تعرُّضًا منه لبيان المناسبة))[8].

---

[1]. ينظر : الإتقان في علوم القرآن : ٥ / ١٨٣٧ ، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن : ١ / ٤٣ .
[2]. ينظر : أضواء على ظهور علم المناسبة القرآنية : ١٧ – ١٨ .
[3]. ينظر : المصدر نفسه : ٢٥ .
[4]. ينظر : علم المناسبات ، وأهميته في تفسير القرآن الكريم وكشف إعجازه : ٢٧ .
[5]. المعجم الكبير : ٩ / ١٤٠ (٨٦٩٣) .
[6]. ينظر : علم المناسبات ، وأهميته في تفسير القرآن الكريم وكشف إعجازه : ٢٨ .
[7]. ينظر : علم المناسبات ، وأهميته في تفسير القرآن الكريم وكشف إعجازه : ٢٨ .
[8]. جواهر البيان في تناسب سور القرآن : ١٥ – ١٦ .

٥. تفسير ((مفتاح الباب المقفل على فهم القرآن المنزل)) لأبي الحسن علي بن أحمد الحرالي (ت ٦٣٧ هـ)[١].

٦. تفسير كبير ((ريّ الظمآن في تفسير القرآن)) للإمام أبي عبدالله محمَّد بن عبدالله الأندلسي المرسي (٦٥٥ هـ) ، ويقع في عشرين مجلدا ، يهتم بارتباط الآيات بعضها بعض ، وبيان وجوهه ، إلى جانب تفسير وسط وصغير[٢].

٧. تفسير ((التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير في معاني كلام السميع البصير)) المعروف بـ ((تفسير ابن النقب)) لأبي عبدالله محمَّد بن سليمان المقدسي الحنفي المعروف بابن النقيب (ت ٦٩٨ هـ)[٣] ، قال البقاعي في وصفه : ((ذُكِرَ لي أن تفسير ابن النقيب الحنفي ، وهو في نحو ستين مجلدًا ، يَذكر فيه المناسبات ، وفي خزانة جامع الحاكم كثير منه ، فطلبت منه جزءًا ، فرأيت الأمر كذلك بالنسبة إلى الآيات لا جملها ، وإلى القصص لا جميع آياتها))[٤].

(مرحلة التصنيف)

- أمّا أول من أفرد هذا العلم بمؤلف مُستقلَّ ، فهو العالم الواحد الذي ذكره أبو بكر بن العربي بقوله : ((ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة ثم فتح الله – عزَّ وجلَّ – لنا فيه فلما لم نجد له حملة ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه))[٥] ، ثُمَّ أبو بكر بن العربي (ت ٥٤٣ هـ) الذي كتب ((ترتيب آي القرآن))[٦] .

---

[١]. ينظر : علم المناسبات في السور والآيات : ٢٤ .
[٢]. ينظر : أضواء على ظهور علم المناسبة القرآنية : ٤١ .
[٣]. ينظر : علم المناسبات في السور والآيات : ٢٥ .
[٤]. نظم الدرر : ١ / ١٠ .
[٥]. البرهان في علوم القرآن : ١ / ٣٦ .
[٦]. ينظر : أضواء على ظهور علم المناسبة القرآنية : ٥٧ .

- كتاب ((البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن)) للعلامة الشيخ أبي جعفر بن الزبير الغرناطي (ت ٧٠٨ هـ)[١] ، قال عنه البقاعي : ((وهو لبيان مناسبة تعقيب السورة بالسورة فقط ، لا يتعرض فيه للآيات))[٢].
- كتاب ((نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)) لبرهان الدين البقاعي (ت ٨٨٥ هـ) ، وهو تفسير للقرآن الكريم ، عني كثيرا بأوجه المناسبة ، وقد أفاد البقاعي مما ذكره الحرالي من مناسبات في تفسيره ، وهو ما ذكره البقاعي نفسه : ((ثم بعد وصولي إلى سورة الأنفال ، ملكت جزءًا من ((تفسيره)) ، فيه من أوله إلى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ في آل عمران ، فرأيته عديم النظير ، وقد ذُكِرَت فيه المناسبات ، وقد ذَكَرْت ما أعجبني منها ، وعزوته إليه ، يَسَّرَ الله الاطِّلاع على بقيته بحوله وقوته))[٣].
- كتاب ((تناسق الدرر في تناسب السور)) لجلال الدين السيوطي ، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ) ، و له كتاب آخر هو ((مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع)) ، وهو يعنى بتناسب فواتح السور وخواتمها بعضها مع بعض.

وأما في العصر الحديث ، فقد ظهرت مؤلفات مستقلة بهذا العلم ، منها :

١. كتاب (جواهر البيان في تناسب سور القرآن) لعبدالله بن محمود الصديق الغماري.
٢. كتاب (التناسب البياني في القرآن – دراسة في النظم الصوتي والمعنوي) للدكتور أحمد أو زيد .
٣. كتاب (التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم) للأستاذ الدكتور فاضل صالح السامرائي.
٤. كتاب (المناسبة في القرآن – دراسة لغوية أسلوبية للعلاقة بين اللفظ والسياق اللغوي) للدكتور مصطفى شعبان المصري.

---

[١]. ينظر : جواهر البيان في تناسب سور القرآن : ١٦ ، وعلم المناسبات ، وأهميته في تفسير القرآن الكريم وكشف إعجازه : ٢٨ .
[٢]. نظم الدرر : ١ / ٦ .
[٣]. المصدر نفسه : ١ / ١٠ .

إلى جانب الكثير من البحوث والرسائل الجامعية التي اعتنت بهذا العلم ، وقد أفدت منها بين ثنايا هذه الرسالة.

الفصل الأوَّل

تناسب النص

وفيه . . .

- المبحث الأول : المناسبات في سورة يونس
- المبحث الثاني : التناسب القصصي

المبحث الأول

المناسبات في سورة يونس

القسم الأول : المناسبات الخارجية :

تناسب سورة يونس مع ما قبلها (سورة التوبة) وما بعدها (سورة هود) :

❖ تناسب سورة يونس داخل الترتيب المصحفي (التوبة، و يونس، و هود)

أنزل الله ﷻ القرآن الكريم على وفق منظومة متجانسة ومتعضدة معنويًّا وموضوعيًّا؛ فكل سورة لا تنبو عن أختها اللاحقة ولا عن أختها السابقة في الترتيب داخل المصحف، بل تجدها تلقف وتمسك ما جاورها من سور لتجسد هذا الكتاب المتعالي على كل الكتب التي أصابها التحريف والتبديل ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء:٨٢] .

ويمكن إجمال تناسب سورة يونس مع السورة التي قبلها (سورة التوبة)، والسورة التي بعدها (سورة هود) ضمن الترتيب المصحفيّ في النقاط الآتية :

أ. ترتيب النزول :

ثمة تناسب جزئي[١] بين سورة يونس وسورة هود في الترتيب المصحفيّ؛ فقد نزلت قبل سورة هود، قال ابن عاشور : ((وهي السورة، يعني : سورة يونس، الحادية والخمسون في ترتيب نزول السور . نزلت بعد سورة بني إسرائيل وقبل سورة هود))[٢] ، وهذا الترتيب له أثره في بيان الجو النصي لسورة يونس، كما سنعلم فيما في مبحث (التناسب القصصي) .

ج. التفصيل والإجمال :

من وجوه التناسب والترابط بين السور القرآنية التفصيل والإجمال، فنجد سورةً بحسب الترتيب المصحفي مجملة فتأتي التي قبلها أو بعدها شارحةً لها ومبينةً، والعكس صحيح، وهذا ما نلحظه في سورة يونس، إذ جاءت مجمَلة من جهة، ومفصِلة من جهة أخرى.

---

(١). قلت بالتناسب الجزئي على أساس أن سورة يونس نزلت بعد سورة الإسراء، وهذا خلاف الترتيب المصحفيّ .

(٢). التحرير والتنوير : ١١ / ٧٨ ، وينظر : تفسير الجلالين : ٢٠٨ .

ويمكن توضيح ما فصلته سورة يونس مع سورة هود أو أجملته في النقاط الآتية :

١. وردت قصة نوح عليه السلام في سورة يونس شارحة لتلك الإشارة الخاطفة في السورة التي قبلها، سورة التوبة، حين ذكرت نبأ نوح عليه السلام في سياق تعداد نبأ الأقوام السابقين ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [التوبة: ٧٠]، ولا غرو أن تستفتح القصة في يونس بـ ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ [يونس: ٧١] ، بتكرار كلمة (نبأ) ، والتصدير بالواو التي كأنها معطوفة على آية التوبة[١] في إشارة واضحة إلى ذلكم التلاحم القصصي، والترابط الفني بين الإشارة الخاطفة في التوبة، وشرحها في يونس؛ فهناك ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ [التوبة: ٧٠]، وهنا ذكر النبأ ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ [يونس: ٧١] .

وممّا يلحظ أن القصة في يونس قد وردت مجملة في ثلاث آيات فقط؛ فلم تتطرق إلى دعوة نوح قومه إلى عبادة الله، بل اكتفت بذكر رده على قومه، حينما رآهم مستثقلين دعوته وشخصه بعد طول إنذار وتبليغ، وفوق ذلك تحداهم أن يفعلوا به ما يشاؤون، متوكلًا على ربه، دون أي ذكر للتفاصيل الأخرى[٢].

قال ﷻ :﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يونس: ٧١ – ٧٢]، وختامًا ذكرت الآيات عناد قومه وتكذيبهم مع بيان مصيرهم وهلاكهم، ونجاة نوح ومن آمن معه[٣] ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [يونس: ٧٣].

---

(١). الواو في الحقيقة ليست معطوفة، بل هي استئنافية، ينظر :الجدول في إعراب القرآن : ١١ / ١٦٦.

(٢). ينظر : على طريق التفسير البياني : ٣ / ٨١ – ٨٢ .

(٣). ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٨١٢ .

بينما وردت القصة نفسها في سورة هود مفصلة[1] في أربع وعشرين آية من الآية (٢٥) إلى الآية (٤٨)، وتضمنت التفاصيل الآتية :

- ابتدأت القصة بخطاب نوح عليه السلام قومه بأنه لهم نذير مبين، ودعوتهم إلى عبادة الله وحده، من منطلق خوفه عليهم من أن يصيبهم عذاب أليم ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [هود: ٢٥ – ٢٦].

- ثم بينت الآيات رد قومه عليه بكل صفاقة وصلافة، وإثارة الشبهات حوله، وحول أتباعه، ودعوته ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ۖ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [هود: ٢٧].

- يرد عليهم نوح عليه السلام بكل محبة وتودد، ومكررًا ﴿يَٰقَوْمِ ﴾، مبتدئًا كلامه بأنه رسول من عند الله، وهو على بينة ساطعة من ربه بذلك، وآتاه رحمة النبوة والهداية التي أرسل بها، وإن رفضوها وكرهوها، فلن يلزمهم إياها، وهو في كل ذلك لا يسألهم أجرًا مقابل دعوته، ثم بيَّن لهم أنه لا يستطيع طرد أتباعه[2] ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ۚ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [هود: ٢٨ – ٣١].

- ثم شعروا أمام ردوده عليه السلام بفشلهم عن مقارعته بالحجج، فأرادوا طيَّ النقاش والجدال باستفزازه وتعجيزه بأن ينزل عليهم العذاب الذي توعدهم به[3] ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ

---

(١). روح المعاني ١١ / ٢٠٢، وينظر : في ظلال القرآن ٤ / ١٨٧٠ .

(٢). ينظر : القصص القرآني ، عرض وقائع وتحليل أحداث : ١ / ١٧٣ .

(٣). التحرير والتنوير : ١٢ / ٦٠ .

جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [هود: ٣٢]، فردَّ عليهم بأن ذلك المطلب مرجعه إلى الله الذي لا يعجزه شيء، وأن نصحه لن ينفعهم شيئًا ما داموا مصرين على قناعاتهم الموروثة ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [هود: ٣٣ – ٣٤].

▪ وهنا يُعلن لنوح عليه السلام أنَّ الأمر قد انتهى، وفترة الإنذار قد انقضت، فائزًا من آمَن وأطاعَ، وخاسرًا من كَفَر وعانَد[1] ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [هود: ٣٦] .

▪ ثم ينتقل السياق إلى الحديث عن أمرِ اللهِ نوحًا بصنع السفينة، وما تبع ذلك من استهزاء قومه وسخريتهم منه، فرد عليهم بأن عذاب الله سيحل عليهم ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [هود: ٣٧ – ٣٩].

▪ ثم يُفَصِّل السياق في حادثة فوران التنور والطوفان، وحمولة السفينة من البشر المؤمنين وغير البشر، وكذلك تطرقت الآيات إلى الحوار الذي دار بين نوح عليه السلام وابنه الكافر الذي أبى الركوب في السفينة، مستعصمًا بالجبل أمام تلك المياه المتلاطمة ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ

(١). ينظر : القصص القرآني، عرض وقائع وتحليل أحداث : ١ / ١٨٥ .

﴿ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [هود: ٤٠ - ٤٤].

▪ ثم ينتقل بنا السياق إلى ما بعد زوال الطوفان، واستواء السفينة على جبل الجوديِّ، وفي هذه اللحظات شاهد نوح غرق ابنه أمام عينيه، فتحركت فيه عليه السلام عاطفة الأبوة تجاه ابنه، فيأتيه الرد من المولى عز وجل أنَّ القرابة الحقيقية هي قرابة الإيمان والعقيدة لا قرابة الدم[1] :﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [هود: ٤٥ – ٤٧].

▪ ثم يكون ختام القصة بمشهد النجاة والبشرى له وللمؤمنين معه، والوعيد والتهديد للمتنكبين الصراط المستقيم[2] : ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ [هود: ٤٨].

٢. لكننا نجد في المقابل أن سورة يونس فصَّلت قصة موسى عليه السلام أجمل تفصيل في (١٩) آية من الآية (٧٥) إلى الآية (٩٣)، وجاء هذا التفصيل على النحو الآتي :

▪ تفصيل عرض موسى عليه السلام وأخيه هارون الآيات[3] على فرعون وملئه الذين كذَّبوا واستكبروا رافضين الحق من عند الله، وفوق ذلك وصفوه بأنه سحر مبين، مع بيان تعليل تكذيبهم له ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا

---

(١). ينظر : في ظلال القرآن : ٤ / ١٨٧٩، وينظر : القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث : ١ / ٢٠٤ .

(٢). ينظر : المصدر نفسه : ٤/١٨٨٠ .

(٣). جرى التفصيل عن هذه الآيات في سورة الأعراف في قوله تعالى :﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

جَآءَكُمْۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [يونس: ٧٥ – ٧٨] .

▪ ثم يتحدث السياق في إيجاز سريع عن مشهد المباراة، مبينا انتصار الحق على الباطل الفرعوني ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يونس: ٧٩ – ٨٢].

▪ ونتيجة للإرهاب الفرعوني الذي ازداد بعد المباراة، لم يؤمن من بني إسرائيل إلا الشباب الذين رجَّحوا الإيمان على المخاوف، ولتثبيتِ إيمانهم يردفُ السياقُ على ذلك توجيهاتِ موسى عليه السلام، مع التوجيهاتِ الربانية استعدادًا للخروج من مصر في الوقت المناسب[1] ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يونس: ٨٣ – ٨٧] .

▪ ثم يُفصِّل السياقُ دعاء موسى ربه بأن يهلك فرعون وملأه بسبب استغلالهم الزينة والأموال في الإضلال عن الطريق القويم، فيعدهم باستجابة الدعاء، طالبا منهما الاستقامة على هداه ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [يونس: ٨٨ – ٨٩] .

▪ ثم يختتم سياق القصة بغرق فرعون المتغطرس، وهنا تنفرد سورة يونس بذكر تفاصيل مشهد الغرق ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ

---

(١). ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٨١٦ .

عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يونس: ٩٠ - ٩٢] .

▪ ثم ينتهي السياق بحال بني إسرائيل بعد نجاتهم من فرعون ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [يونس: ٩٣].

بينما نجد أن القصة نفسها وردت في سورة هود موجزة تمام الإيجاز في (٤) آيات، على النحو الآتي :

▪ تطرق السياق إلى رسالة موسى إلى فرعون وملئه، مؤيدًا بالآيات والسلطان المبين، ولكن القوم تنكبوا الصراط المستقيم، وزاغوا عن المنهج القويم، متبعين أمر فرعون الضال على أمر الله المبين ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ ﴾ [هود: ٩٦ – ٩٧] .

▪ ثم تعرض السياق لذكر عاقبتهم نتيجة اتِّباعِهم أمرَ فرعون في الدنيا بأن يكون قائدهم في الآخرة إلى جهنم، مَتْبوعين باللعنة في الدنيا والآخرة[1] ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [هود: ٩٨ – ٩٩] .

وهنا نلحظ أن سورة هود انفردت بذكر عاقبة فرعون في الآخرة، عن سورة يونس التي ذكرت عاقبة فرعون في الدنيا غرقًا في البحر[2]، ومن ثَمَّ كانت سورة هود متممة لبقية الأحداث بإيجاز شديد .

٣. أشارت سورة التوبة في الآية (٧٠) إلى ذكر أسماء الأقوام السابقين لموسى عليه السلام، وهم : نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات (مدائن قوم لوط)[3]،

---

(١). ينظر : روح المعاني : ١٢ / ١٣٤ .

(٢). ينظر : على طريق التفسير البياني : ٣ / ٣٠٧ .

(٣). ينظر : الكشاف : ٣ / ٦٦ .

ولم تذكر قصصهم لا مجملة ولا مفصلة، قال ﷻ :﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [التوبة: ٧٠]، بينما نجد سورة يونس أشارت في الآية (٧٤) إلى هذه الأقوام التي كانت بعد نوح[١] عليه السلام إشارة خاطفة ومجملة تمامًا دون ذكر أسماء هذه الأقوام، وإلى من تنسب، فلم تذكر قصصهم ألبتة، قال ﷻ :﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [يونس: ٧٤]، ثم تأتي سورة هود لتفصل قصص هؤلاء الأقوام مرتبة[٢] كما ورد ذكرها في سورة التوبة، إلا قصة لوط عليه السلام فقد جاءت في سورة هود بعد قصة إبراهيم عليه السلام، كما هو موضح في المخطط الآتي :

ت	القصة	مجموع آياتها	موضعها بين الآيات
١.	نوح عليه السلام	٢٤ آية	من الآية (٢٥) إلى (٤٨)
٢.	عاد	١١ آية	من الآية (٥٠) إلى (٦٠)
٣.	ثمود	٨ آية	من الآية (٦١) إلى (٦٨)
٤.	إبراهيم عليه السلام مع الملائكة[٣]	٨ آية	من الآية (٦٩) إلى (٧٦)
٥.	لوط عليه السلام	٧ آية	من الآية (٧٧) إلى (٨٣)
٦.	مدين	١٢ آية	من الآية (٨٤) إلى (٩٥)

٤. ورد في سورة يونس ذكر قصة قوم يونس عليه السلام مجملة، وسميت بها السورة؛ ((لأنها انفردت بذكر خصوصية لقوم يونس، أنهم آمنوا بعد أن توعدهم رسولهم بنزول العذاب فعفا الله عنهم لمَّا آمنوا))[٤]، وقد وردت في آية واحدة فقط، قال ﷻ :﴿فَلَوْلَا كَانَتْ

---

(١). سبق أن قلنا : إن قصة نوح عليه السلام وردت مجملة في سورة يونس .

(٢). الترتيب الوارد في سورة هود هو الترتيب التأريخي : ينظر : في ظلال القرآن : ٤ /١٨٧٠ .

(٣). لم تتطرق سورة هود إلى ذكر قصة قوم إبراهيم، بل ذكرت الحوار الذي دار بين إبراهيم عليه السلام والملائكة، وتبشيرهم إبراهيم وزوجه بإسحاق ويعقوب .

(٤). التحرير والتنوير : ١١ / ٧٧ .

قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ [يونس: ٩٨]، وفي المقابل لم يأت ذكر لهذه القصة في سورة التوبة وهود إجمالًا ولا تفصيلًا.

٥. جاء في سورة يونس تحدي العرب بالإتيان بسورة واحدة، قال ﷻ : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس: ٣٨]، بينما نجد التحدي في سورة هود بعشر سور مفتريات ، قال ﷻ : ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [هـود: ١٣]، وهذا يدلُّ على أنَّ التحدي كان في أَوْجِهِ ، فقد تحداهم أن يأتوا من عندِهم بسورة من مثيلات أي سورة من سور القرآن الكريم، ثم وسع عليهم أن يأتوا بعشر سور مفتريات، وهنا يظهر ملمح التفصيل في آية هود عن آية يونس من خلال التوسع في العدد (سورة واحدة مقابل عشر سور) والتوسع في الصفة (مفتريات)، في حين أن صفة المثلية مشتركة بين الآيتين، قال ابن عاشور ذاكرًا قول المبرد : ((تحدّاهم أولاً بسورة ثمّ تحدّاهم هنا بعشر سور؛ لأنّهم قد وسع عليهم هنا بالاكتفاء بسور مفتريات، فلمّا وسع عليهم في صفتها أكثَرَ عليهم عددها، وما وقع من التحدّي بسورة اعتبر فيه مماثلتها لسور القرآن في كمال المعاني، وليس بالقويّ))[١]

٦. ورد في سورة يونس قوله ﷻ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [يونس: ١٩]، ومدلول الآية أنَّ الناس كانوا على دين واحد؛ ألا وهو الإسلام، ثم اختلفوا من بعدُ إلى فِرَقٍ وشِيَعٍ، فأرسل الله الرسل ليردوهم إلى جادة الصواب، ولولا أمر الله وحكمته التي اقتضت تأخيرهم إلى يوم القيامة، لعَجَّل لهم العذاب في الدنيا[٢]، ونلحظ هنا أن مفردة ﴿كَلِمَةٌ﴾في الآية جاءت مُجْمَلَةً، فتأتي آية سورة هود؛ لتزيل ذلك الإجمال، مُفَصِّلَةً دلالتها في بيان وتناسب جميلين يشي بسر الترتيب المصحفي للسورتين، يقول ﷻ : ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً

---

(١). التحرير والتنوير : ١٢ / ٢٠ .

(٢). ينظر : صفوة التفاسير : ١/ ٥٧٧ .

وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١١٩ ﴾[هود: ١١٨ – ١١٩]، أي : إنَّ الكلمة هي : ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١١٩ ﴾[هود: ١١٩]، قال ابن عاشور : ((أَصْرَحُ مِنْ ذَلِكَ فِي بَيَانِ مَعْنَى (الْكَلِمَةِ) قَوْلُهُ فِي سُورَةِ هُودٍ : ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١١٩ ﴾ [هود: ١١٨ – ١١٩]))(١)

٧. جاء في سورة هود الإنذار والتبشير مجملًا، دون توضيح لمن الإنذار والتبشير ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ٢ ﴾[هود: ٢]، على عكس سورة يونس؛ فقد جاء فيها ذكر الإنذار والتبشير مفصلًا، فالإنذار للناس عمومًا، بينما التبشير للمؤمنين خاصةً(٢) ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ٢ ﴾ [يونس: ٢] .

٨. ممّا ورد في سورة يونس في بيان قدرة الله وعظيم خلقه، آية الشمس والقمر؛ لمعرفة عدد السنين والحساب في قوله ﷻ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٥ ﴾ [يونس: ٥]، بينما ((تناولت سورة التوبة أشهر السنة الاثنتي عشر، التي هي أصل حساب السنين))(٣)، يقول الله ﷻ : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٦ ﴾[التوبة: ٣٦]، قال ابن كثير : ((يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا خَلَقَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ

(١). التحرير والتنوير : ١١ / ١٢٩ .

(٢). ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٧٦٠ .

(٣). أهداف ومقاصد موضوعات سورة التوبة : ٣٠ .

سُلْطَانِهِ أنـه جَعَلَ الشُّعَاعَ الصَّادِرَ عَنْ جُرْمِ الشَّمْسِ ضِيَاءً وجعل شعاع الْقَمَرِ نُورًا، ... فَبِالشَّمْسِ تُعْرَفُ الْأَيَّامُ وَبِسَيْرِ الْقَمَرِ تُعْرَفُ الشُّهُورُ وَالْأَعْوَامُ))[1].

(١). تفسير القرآن العظيم : ٤/ ٢١٧ ، وينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ٩٥ – ٩٦ .

❖ **التناسب بين فواتح سور (التوبة ويونس وهود)**

إنَّ النظر في تناسب فواتح السور لهو من الأهمية بمكان؛ إذ يبين مدى الترابط والتلاحم والانسجام في إيضاح مقاصد السور، والاتجاه الموضوعيّ الذي استفتحت به السور، واتفقت عليه.

- **تناسب فاتحة سورتي التوبة ويونس :**

١. ثمة تناسب بين فاتحتي سورة يونس وسورة التوبة في أنَّ كلتيهما تحدثت عن الكافرين والمشركين؛ فالسياق في سورة التوبة حول المشركين والكفار بعد فتح مكة، مثل إنهاء العهود التي كانت بين المسلمين المشركين إلى لحظة نزول هذه سورة التوبة ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾﴾[التوبة: ١]، وبيان المدة التي فيها يتمكن المشركون من تصفية أمورهم وعهودهم مع المسلمين، وهي أربعة أشهر ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾[التوبة: ٢]، ومع هذه المفاصلة في التعامل مع المشركين في كل شيء، يشتدُّ السياق مشددًا النكيرَ عليهم، ومغلظًا الكلم معهم ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِي ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[التوبة: ٢]، ثُمَّ يستمرُّ السياق في بيان الميقات الذي يعلن فيه البراءة، وهو يوم الحج الأكبر، حتى يعلم المشركون ذلك بكل وضوح ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾[التوبة: ٣]، ثم يجمع السياق بين ترغيب المشركين في الهداية وترهيبهم من الضلالة في أسلوب جامع مانع ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[التوبة: ٣]، ويعلن السياق عدم المداهنة مع المشركين بعد انقضاء الأشهر التي يحرم فيها القتال، إلا إن تابوا وأتوا بما يُحَصِّنُ دماءَهم وأنفسَهم من أحكام الإسلام كالصلاة والزكاة[1] ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ

(١). ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٥٨٦ – ١٦٠٢ .

﴿ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾[التوبة: ٥] .

وأمّا فاتحة سورة يونس فقد كان سياق الحديث فيها بذكر الكافرين أيضًا في تناسب واضح مع سورة التوبة؛ إذ أشار إلى استغراب الكافرين من الإيحاء إلى رجل منهم، مستعملًا أسلوب الاستفهام الاستنكاري، بل تمادوا في إنكارهم واصفين الرسول الكريم ﷺ بأنه ساحر مبين[1] ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾[يونس: ٢]، ثم يمضي السياق في بيان عاقبة الكافرين المبتعدين عن الحق الناصع ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾[يونس: ٤] .

٢. ممّا يلحظ أيضًا في التناسب بين مفتتح السورتين، ذكر عذاب الذين كفروا، بالتركيب الوصفي [عذاب أليم]؛ ففي سورة التوبة ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[التوبة: ٣]، وأمّا في سورة يونس ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾[يونس: ٤] .

٣. ومن جوانب التناسب بين فاتحتي سورة التوبة ويونس تلك المقابلة بين تبشير الله ﷻ المشركين في أول سورة التوبة، وتبشير الله ﷻ المؤمنين في أول سورة يونس[2]، فأولئك المشركون الذين إن تولوا عن التوبة بالشرك، فإنَّهم لن يعجزوا الله، وهنا يأتي الأمر إلى الرسول ﷺ بأن يبشر هؤلاء المشركين بالعذاب الأليم، في أسلوب تهجم[3] بأعلى درجات ونبرات التهديد والتشديد في مخاطبتهم، في سياق المفاصلة والبراءة المطلقة من المشركين ومن عهودهم ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ ﴾[التوبة: ٣] .

---

(١). ينظر : الأساس في التفسير : ٥ / ٢٤٢٣ .

(٢). أهداف ومقاصد موضوعات سورة التوبة : ٢٩ .

(٣). ينظر : التحرير والتنوير : ١٠ / ١١١ .

وبالمقابل وردت في أول سورة يونس البشارة للمؤمنين بالمنزلة الرفيعة الثابتة عند ربهم، في أسلوب يوحي بالطمأنينة والرحمة والرأفة؛ لأنهم أطاعوه ﷻ متبعين أوامره، ومجتنبين نواهيه التي نَزَلَ بها الوحي[1] ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾[يونس: ٢]، يقول البقاعيُّ : ((خصّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات تصديقاً لدعواهم، بالبشارة بقبول حسناتهم وتكفير سيئاتهم والتجاوز عن هفواتهم وترفع درجاتهم، فمقتضى العدل في إثابة الطائع، وعتاب العاصي، والإنذار : إعلام بما ينبغي أن يحذر منه ، والتبشير : التعريف بما فيه السرور))[2]، ومن جمال التناسب أنَّ كلتا البشارتين جاءت في أسلوبِ أمرٍ من الله إلى رسوله ﷺ .

٣. تناسب ختام الآيات القرآنية بين السورتين :

أ. ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾[التوبة: ٦] : فقد ورد هذا التذييل في سياق بيان الجانب الإنساني في هذا الدين، الذي يحرص كلَّ الحرص على هداية البشر، فلو طلب أحد من المشركين الجوار والأمان، فَلْيُجبْ إلى طلبه، طمعًا في أن يسمع كلام الله، ويَعرف هذا الدين من قرب، ويأتي هذا التوجيه الربانيُّ للرسول ﷺ وللأمة من بعده استغلالًا للفرصة في هداية هؤلاء المشركين؛ لأنهم قوم لا يعلمون شيئًا عن عظمة هذا الدين؛ بسبب أنَّهم صمُّوا آذانهم، وتعامَوا عن الحقِّ، وغلَّقوا قلوبهم حتى لا يتسلل إليها شيءٌ من معالم هذا الدين الحنيف.

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾[يونس: ٥] يأتي هذا التذييل في سورة يونس في تناسب بديع عجيب مكملًا هذا المعنى الذي في آية التوبة، وموضحًا أن الذي يدرك قدرة الله في هذا الكون الفسيح الواسع المترامي الأطراف كخلقه الشمس والقمر هو الذي يعلم ويعي، أما الذي لا يعلم فإنه سيبقى جاحدًا منكرًا آلاء الله، ومِنْ ثَمَّ علينا أن نبذل قصارى جهدنا في انتهاز كل فرصة سانحة في هداية البشر حتى يكونوا من القوم الذين يعلمون.

---

(١). ينظر : روح المعاني : ١١ / ٦٢ .

(٢). نظم الدرر : ٩ / ٦٦ – ٦٧ .

ب. ﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾[يونس: ٦] : يشي هذا التذييل في الآية بأن القوم الذين يتقون الله ﷻ هم من تَعْظم في نفسه قدرةُ الله، فيزداد إيمانًا وتقوًى، وخوفًا من أليم عقابه، ذلك لأن التَّقوى يَجعل القلب ذا مناعة عن الوقوع في المحرمات، فمن كان كذلك فلا يظلم أحدًا ولا يأتي شيئًا أبدًا يُغضب الله، بل تجده مسارعًا إلى طاعة الله في السراء والضراء، والمكره والمنشط، بمجرد أنَّ يُذَكَّر بالله الذي يُحب المتَّقين، وهذا ما نجده في ختام آية سورة التوبة التي جاءت في سياق مَنْ استثناهم اللهُ من المشركين الذين ((احتفظوا بعهدهم مع المسلمين، ووفوا به على أتمِّ وجه، فلم يكيدوا المسلمين بكيد، ولا ظاهروا عليهم عدوًا سرًّا، فهؤلاء أمر المسلمون أن لا ينقضوا عهدهم إلى المدة التي عوهدوا عليها، ومن هؤلاء : بنو ضمره، وحيان من بني كنانة: هم بنو جذيمة، وبنو الديل . ولا شكَّ أنَّهم ممن دخلوا في عهد الحديبية))[1]

إذن هؤلاء المشركون الذين تمَّ استثناؤهم، لم يُمْهَلوا أربعةَ أشهر كحال بقية المشركين الناقضين العهد، بل أمهلوا إلى المدة المُتَّفق عليها في العهود بينهم وبين المسلمين؛ وذلك تقديرا لهم لوفائهم في المحافظة على ما عاهدوا عليه المسلمين ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾[التوبة: ٤]، ولحثِّ المسلمين على الوفاء بعهود هؤلاء المشركين ختم اللهُ هذا التوجيه الرباني بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾، إشارةً إلى أن هذا التوجيه فيما يخصُّ هؤلاء المشركين يُعَدُّ من التَّقوى؛ لأن بعض المسلمين قد لا يسارع إلى تنفيذ هذا الأمر بسبب حقده الدفين على المشركين، ولكنه عندما يُذَكَّرُ بالتَّقوى، وتُسْتَثار نفسُه بمعانيه تجدُه يُسابِق ويَلْتزم بالأمر الرباني، ولا سيما أن هذا الخَتْمَ جاء مؤكدًا بـ (إنَّ) حتّى يبتعد كلُّ شكٍّ وريب، قال ابن عاشور : ((وجملة : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾تذييل في معنى التعليل للأمر بإتمام العهد إلى الأجل بأنّ ذلك من التقوَى، أي : من امتثال الشرع الذي أمر الله به، لأنّ الإخبار بمحبة الله المتّقين عقب الأمر كناية عن كون المأمور به من التقوى))[2].

---

(١). التحرير والتنوير : ١٠ / ١١٢، وينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٦٠٠ .

(٢). التحرير والتنوير : ١١٣/١٠ ، وينظر : تفسير البيضاوي : ٣ / ٧١ .

- **تناسب فاتحة سورتي يونس وهود :**

١. ثمة تناسب بين سورتي يونس وهود في الاستفتاح، يقول الله ﷻ في سورة يونس: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾[يونس: ١]، وفي سورة هود : ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾[هود: ١] .

فالسورتان ابتُدِئتا بالأحرف المُقطَّعة (الألف، واللام، والراء) في تشابهٍ تامٍّ، وتناسب واضح، وهذه الأحرف لها دلالاتها الإعجازية البيانية التي تناولها المفسرون والعلماء بالدرس وأشبعوها بحثًا.

وسرُّ مجيء هذه الأحرف المُقطَّعة هنا في مفتتح السورتين هو التنبيه[١] إلى أنَّ القرآن الكريم نظم من هذه الحروف، حروف لغة العرب التي ينظمون منها كلامهم وخطبهم وأشعارهم وحكمهم، ومِنْ ثَمَّ يتحداهم الله بأن يأتوا إن استطاعوا بمثل هذا القرآن، وممّا يؤكد على ذلك أن كلتا السورتين تضمنت بين دفتيهما التحدي بالإتيان بمثل هذا القرآن، الأمر الذي يبين مدى التناسب بين السورتين؛ ففي سورة يونس تحداهم المولى بأن يأتوا بسورة واحدة من مثل هذا القرآن، ردًا على قولهم : بأن هذا القرآن من افتراء الرسول ﷺ، قال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٧ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٨﴾[يونس: ٣٧ – ٣٨]، وأمّا في سورة هود فالتحدي يبلغ أَوْجَه، مطالبًا المشككين بأن يأتوا بعشر سور مفتريات من مثل سور هذا القرآن، قال ﷻ : ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣﴾[هود: ١٣]، قال الفخر الرازي ذاكرًا قول المبرد، وأنَّ جمعًا من المحققين اختاروا هذا القول : ((إنَّ الله تعالى إنما ذكرها احتجاجًا على الكفار، وذلك أنَّ الرسول ﷺ لما تحداهم أن يأتوا بمثل القرآن، أو بعشر سور، أو بسورة واحدة فعجزوا عنه أنزلت هذه الحروف تنبيهًا على أن القرآن ليس إلا

(١). ينظر : فواتح سور القرآن الكريم : ٣٦ – ٤٣ .

من هذه الحروف، وأنتم قادرون عليها، وعارفون بقوانين الفصاحة، فكان يجب أن تأتوا بمثل هذا القرآن، فلما عجزتم عنه دلَّ ذلك على أنه من عند الله لا من البشر))[1].

٢. ومن جوانب التناسب بين مفتتح هاتين السورتين هو ذكر ما يتعلق بالقرآن الكريم بعد هذه الأحرف المقطَّعة، التي تأتي تنبيهًا على القارئ والمستمع بأن هذا القرآن له مكانتُهُ صياغةً ونظمًا ومضمونًا، ويتجلى هذا التناسب الرائع في أنَّ آية يونس : ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾[يونس: ١]، وصفت الكتاب بصفة ﴿ٱلۡحَكِيمِ ﴾التي يُحْتمل أن تكونَ ((بِمَعْنَى مُفْعَلٌ بِفَتْحِ الْعَيْنِ، أَيْ : مُحْكَمٌ، مِثْلُ عَتِيدٍ، بِمَعْنَى مُعَدٍّ))[2]، قال الفخر الرازي : ((والإحكام معناه المنع من الفساد، فيكون المراد منه أنه لا يمحوه الماء، ولا تحرقه النار، ولا تغيره الدهور، أو المراد منه براءته عن الكذب والتناقض))[3]، وهذا يعني أن هذه الآيات محكمة في صياغتها ونظمها، لا يستطيع أحد أن يأتي بمثلها ولو حاول المحاولون، وجدَّ المجدون في أن يصوغوا مثلها، وهذا الإحكام نفسه ذكرته آية سورة هود ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾[هود: ١] .

كذلك لو نظرنا إلى دلالة ﴿ٱلۡحَكِيمِ ﴾في آية يونس من زاوية أخرى لتبين لنا تناسبٌ جديدٌ؛ فكلمة ﴿ٱلۡحَكِيمِ ﴾ يحتمل أن تكون بمعنى أن هذا الكتاب العزيز حكيمٌ؛ فهو يضع كلَّ شيء في محله المناسب، قال ابن عاشور : ((وَالْحَكِيمُ : وَصْفٌ إِمَّا بِمَعْنَى ذِي الْحِكْمَةِ لِاشْتِمَالِهِ عَلَى الْحِكْمَةِ وَالْحَقِّ وَالْحَقَائِقِ الْعَالِيَةِ، إِذِ الْحِكْمَةُ هِيَ إِصَابَةُ الْحَقِّ بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ فَوُصِفَ بِوَصْفِ ذِي الْحِكْمَةِ مِنَ النَّاسِ عَلَى سَبِيلِ التَّوَسُّعِ النَّاشِئِ عَنِ الْبَلِيغِ))[4] .

وهذا يفهم منه أن ناظم هذا الكتاب هو الله الحكيم ﷻ، الذي أحكم آياتِ هذا الكتاب، ((فجاءت قويةَ البناء، دقيقةَ الدلالة، كل كلمة فيها وكل عبارة مقصودة، وكل معنى فيها وكل توجيه مطلوب، وكل إيماءة وكل إشارة ذات هدف معلوم، متناسقة لا اختلاف بينها ولا تضارب، ومنسقة ذات نظام واحد، ثم فصلت . فهي مقسمة وفق أغراضها، مبوبة وفق

---

(١). مفاتيح الغيب : ٢ / ٧ .

(٢). التحرير والتنوير : ١١ / ٨٢ .

(٣). مفاتيح الغيب : ١٧ / ٥ .

(٤). التحرير والتنوير : ١١ / ٨٢ .

موضوعاتها، وكل منها له حيز بمقدار ما يقتضيه))[1]؛ أي : إنَّ القرآن الكريم حكيمٌ أحكمه حكيمٌ، وهو الأمر الذي أشارت إليه آية سورة هود ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾[هود: ١]، قال الأستاذ الدكتور فاضل السامرائي : ((تبدأ السورة التي قبلها أعني سورة يونس بقوله : ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾[يونس: ١]، فقد وصفت الآية الكتاب بأنه ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾، وذكر في هذه السورة أي : سورة هود من أحكمه، فقال : إن آياته أحكمت ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[هود: ١]، فالذي أحكمها هو الحكيم))[2].

إذن يتبين لنا ممّا سبق أن كلتا السورتين أشارت إلى أن القرآن الكريم مُحْكَمٌ في لفظه ومعناه، وهذا ما يؤيده السياق في كثير من آيات هاتين السورتين:

❖ **آيات سورة يونس :**

- ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦﴾[يونس: ١٥ – ١٦].
- ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٧ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٨﴾[يونس: ٣٧ – ٣٨] .
- ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٩٤﴾[يونس: ٩٤] .

---

(١). في ظلال القرآن : ٤ / ١٨٥١، و ينظر : الأساس في التفسير : ٥ / ٢٤٢٢ .

(٢). على طريق التفسير البياني : ٣ / ٤ .

❖ آيات سورة هود :

- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤)﴾ [هود: ١٣ – ١٤] .
- ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧)﴾ [هود: ١٧] .
- ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥)﴾ [هود: ٣٥] .
- ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩)﴾ [هود: ٤٩] .

٣. كذلك يتجلى التناسب في مفتتح السورتين في ذكر رسالة الرسول محمّد ﷺ وبيان مهمته من التبليغ والإنذار والتبشير، يقول ﷻ في فاتحة سورة يونس ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (٢)﴾ [يونس: ٢]، أمّا في فاتحة سورة هود يقول ﷻ : ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢)﴾ [هود: ٢]، يقول محمد رشيد رضا : ((وَهِيَ، أي : سورة يونس، مُنَاسِبَةٌ لَهَا كُلَّ الْمُنَاسَبَةِ بِبَرَاعَةِ الْمَطْلَعِ فِي فَاتِحَتِهَا، وَالْمَقْطَعِ فِي خَاتِمَتِهَا، وَتَفْصِيلِ الدَّعْوَةِ فِي أَثْنَائِهَا، فَقَدِ افْتُتِحَتَا بِذِكْرِ الْقُرْآنِ بَعْدَ الر، وَمِثْلُهُمَا فِي هَذَا مَا بَعْدَهُمَا مِنَ السُّوَرِ الْأَرْبَعِ إِلَّا الرَّعْدَ فَأَوَّلُهَا المر، وَذِكْرُ رِسَالَةِ النَّبِيِّ الْمُبَلِّغِ لَهُ عَنِ اللهِ – تَعَالَى – وَبَيَانُ وَظِيفَتِهِ فِيهَا، وَهُوَ الْإِنْذَارُ وَالتَّبْشِيرُ))[1]، وهذا يدلُّ دلالةً واضحةً على أن كلتا السورتين توضح معالم الرسالة المحمّدية التي تقوم على ركنين أساسين؛ هما إنذار من أصرَّ على الشرك فعصى ربه وتمرد على أوامره، وتبشير من آمن بالله فأذعن له وأطاع، فـ ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ

(١). تفسير المنار : ١٢ / ٣ .

وَبَشِيرٌ ﴾[هود: ٢]، وَهُوَ تَبْلِيغٌ لِدَعْوَةِ الرِّسَالَةِ مُبَيِّنٌ لِوَظِيفَةِ الرَّسُولِ، وَهِيَ إِنْذَارُ مَنْ أَصَرَّ عَلَى شِرْكِهِ وَمَا يَتْبَعُهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ، وَتَبْشِيرُ مَنْ آمَنَ وَاتَّقَى بِالسَّعَادَةِ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ))[1] .

ومن زاوية أخرى يبدو لنا التناسب في ذكر الإنذار والتبشير في مفتتح السورتين، يقول الله تعالي في فاتحة سورة يونس: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾ [يونس: ٢]، بينما في فاتحة سورة هود يقول المولى جلَّ شأنه : ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾[هود: ٢].

وتتمثل روعة التناسب في أنَّ فاتحة سورة يونس جاءت موضحةً وشارحةً ومُفَصِّلةً ما أُجْمِل وأُبْهِم في فاتحة سورة هود، علاوةً على ذلك فإن المتتبع لآيات السورتين يلحظ أن كلتيهما تحمل في طياتهما الإشارة إلى الإنذار والتبشير .

فمثلًا آيات الإنذار في سورة يونس، وهي على النحو الآتي:

- ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾[يونس: ٤] .
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ ﴾[يونس: ٧ – ٨] .
- ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[يونس: ١٣] .
- ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[يونس: ٢٠] .

---

(١). تفسير المنار ١٢ / ٦ – ٧ .

- ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [يونس: ٧٣] .
- ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس: ١٠١] .

وأما آيات التبشير في السورة نفسها، فهي على النحو الآتي :

- ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [يونس: ٤] .
- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ ﴾ [يونس: ٩] .
- ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [يونس: ٢٥].
- ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [يونس: ٢٦] .
- ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يونس: ٦٤] .
- ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّـَٔا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يونس: ٨٧] .

ولو انتقلنا إلى سورة هود لنقف على آيات الإنذار فيها، فهي على النحو الآتي :

- ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ ﴾ [هود: ٣] .
- ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [هود: ١٢] .

- ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [هود: ١٥ – ١٦] .
- ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [هود: ١٧].
- ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ هود: [٢٥ – ٢٦] .

ثم نأتي على آيات التبشير في السورة عينها، وهي على النحو الآتي :

- ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ ﴾ [هود: ٣] .
- ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [هود: ١٠ – ١١] .
- ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ ﴾ [هود: ٦٩] .
- ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾ [هود: ٧١] .
- ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [هود: ٧٤] .

٤. ثمة تناسب في مفتتح السورتين، بين قوله ﷻ في فاتحة يونس : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [يونس: ٣]، وقوله ﷻ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧ ﴾ [هود: ٧] .

من مظاهر التناسب بين هاتين الآيتين، الاتفاق على ذكر خلق السموات والأرض في ستة أيام، في معرض استنهاض العقل الإنساني، وإيقاظ القلب البشري للتفكر والتأمل في قدرة الله ﷻ الذي خلق السموات والأرض بإحكام منقطع النظير، حتى أنَّ الناظر لو كدّ بصره في هذين الجرمين تدبرًا، لآمن بالله ربًّا حق الإيمان، ولسارع إلى الإمساك بمنهج الله مطيعًا مذعنًا[1]، ومن ثَمَّ يرتفع ذلك العجب من أن الله أنزل كتابه العزيز على بشر منهم، يقول الشوكاني : ((ثم إن الله سبحانه جاء بكلام يبطل به العجب الذي حصل للكفار من الإيحاء إلى رجل منهم، فقال : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ﴾[يونس: ٣] أي : من كان له هذا الاقتدار العظيم الذي تضيق العقول عن تصوّره، كيف يكون إرساله لرسول إلى الناس من جنسهم محلاً للتعجب مع كون الكفار يعترفون بذلك، فكيف لا يعترفون بصحة هذه الرسالة بهذا الرسول))[2] .

ولا تبعد آية هود عن السياق نفسه، سياق التفكر والتأمل في هذا الكون المترامي الأطراف، الواسع الأرجاء، الموصل إلى إدراك قدرة الله الذي يستحق أن تخضع له الجباه، وتسجد له الجبال، كيف لا، وهو الرزاق الذي يرزق كل دابة على وجه هذه البسيطة، بل يعلم شؤون حياتها المختلفة؛ كمكان استقرارها ومستودعها، كما أنه ﷻ هو القادر الذي خلق السموات والأرض في مراحل وأطوار محكمة، تسير على وفق سنن أرادها ﷻ وصولًا إلى البعث والنشور والحساب والعمل والجزاء[3]، قال محمّد رشيد رضا : ((وَبَيَّنَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى مِنْ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ مَا يُهِمُّ النَّاسَ مِنْ آثَارِ قُدْرَتِهِ، وَمُتَعَلِّقَاتِ عِلْمِهِ، وَكِتَابَةِ مَقَادِيرِ خَلْقِهِ، وَهُوَ مَا يَتَعَلَّقُ بِحَيَاتِهِمْ وَشُئُونِهِمْ، وَفِي الْآيَةِ الَّتِي بَعْدَهَا خَلْقَهُ لِلْعَالَمِ كُلِّهِ، وَمَكَانَ عَرْشِهِ قَبْلَ هَذَا

---

(١). ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٧٦٢ .

(٢). فتح القدير : ٢ / ٥٩٦ .

(٣). ينظر : في ظلال القرآن : ٤ / ١٨٥٧ .

مِنْ مُلْكِهِ، وَبَلَاءَ الْبَشَرِ خَاصَّةً بِذَلِكَ كُلِّهِ ؛ لِيُظْهِرَ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، وَبَعْثَهُ إِيَّاهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ لِيَنَالُوا جَزَاءَ أَعْمَالِهِمْ، وَإِنْكَارَ كُفَّارِهِمْ لِهَذَا))[1]

ويبدو لي من مجموع هاتين الآيتين أنهما يلمحان في تناسب رائع إلى أطوار حياة الإنسان، التي تبدأ بـ[مرحلة الخلق] التي تفهم من قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾[يونس: ٣]، وممّا لا شك فيه أن الله خلق السموات والأرض للإنسان الذي استُخلف في الأرض ليعمر هذا الكون بما أوتي من قدرات وإمكانيات واستعدادات[2]، ثم تأتي بعد ذلك [مرحلة العبادة]، التي تبين الحكمة من الخلق، وهو عبادة الله مخلصًا مطيعًا في هذه الحياة، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[يونس: ٣]، ثم تأتي [مرحلة الابتلاء]، فالإنسان منذ خلقه على هذه الأرض، وأثناء عبادته، وحياته، يبتلى بصنوف الابتلاء ؛ ليميز المطيع من العاصي، وليعرف مدى تمسك الإنسان بدينه وطاعته في السراء والضراء، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[هود: ٧]، ثم [مرحلة البعث والنشور والحساب والجزاء]، التي يكون فيها عرض الأعمال والمحاسبة على كل صغيرة وكبيرة، ومجازاة المؤمن، ومعاقبة الكافر، ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ ﴾[هود: ٧]، وهنا أقتبس من كلام سيد قطب ما يقارب الوجهة التي ربطت بها بين هاتين الآيتين ((كما جهز الخالق هذه الأرض وهذه السماوات بما يصلح لحياة هذا الجنس، جهز هذا الجنس كذلك باستعدادات وطاقات وبنى فطرته على ذات القانون الذي يحكم الكون وترك له جانباً اختيارياً في حياته، يملك معه أن يتجه إلى الهدى فيعينه الله عليه ويهديه، أو أن يتجه إلى الضلال فيمد الله له فيه، وترك الناس يعملون، ليبلوهم أيهم أحسن عملاً. يبلوهم لا للعلم فهو يعلم. ولكن يبلوهم ليظهر المكنون من أفعالهم، فيتلقوا جزاءهم عليها كما اقتضت إرادة الله وعدله))[3].

---

(١). تفسير المنار : ١٢ / ١٣ .

(٢). ينظر : في ظلال القرآن : ٤ / ١٨٥٦ .

(٣). في ظلال القرآن : ٤ / ١٨٥٨ .

٥. ومن مظاهر التناسب في المفتتح بين السورتين قول الكفار : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾[يونس: ٢]، و ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾[هود: ٧]، في إشارة واضحة إلى أن تهمة السحر موجهة إلى شخص رسول الله ﷺ أولًا، وإلى كتاب الله الذي هو الوحي ثانيًا، ظنًّا من الكفار أنَّهم باستهدافهم هذين الركنين الأصيلين من الدعوة بالتُّهم وإثارة الشبهات، يكونون قد نالوا من الدعوة، وأسقطوها من أساسها .

ويتبين ذلك جليًا من خلال الوقوف على سياق الآيتين، فآية يونس جاءت في سياق تقرير وإثبات الوحي من الله إلى الرسول محمّد ﷺ، وكيف قابل المشركون هذه القضية بالعجب والاندهاش؛ إذ كيف يُوحى إلى بشر، مقللين من شأن هذا البشر؛ فهو لا يملك القدرات التي تؤهله لتحمل تبعات الوحي والاتصال بالله ، وممّا قالوه في ذلك : ((لما بعث محمّد : إن الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا، وقالوا : ما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبي طالب))[1] ، وفي المقابل لم يستطع هؤلاء الكفار أن يقارعوا الرسالة بالحجة والبرهان الساطع، بل اكتفوا باتَّهام الرسول الكريم بأنه صرف الناس عن الشرك ومعتقداته، وعن عبادة الأوثان والأصنام، وأنه فرَّق بين المرء وزوجه، وبين الرجل وأخيه، والابن وأبيه، كل ذلك تحت تأثير سحره الذي أثر في عقولهم وقلوبهم، حتى انصاعوا له وانقادوا.

وأما التهمة في آية سورة هود، فهي موجهة إلى القرآن الكريم، إثر قول الرسول ﷺ للمشركين بأن هنالك بعثًا ونشورًا ينتظركم بعد الموت، فاستعدوا وأعدوا له العدة، ولكن المشركين المنكرين لقاء الله، ردّوا عليه بأن هذا القرآن الذي جئتنا به، ما هو إلا سحرٌ، تود أن تؤثر به في عقولنا بأفكارك هذه، وفي قلوبنا، فتلين لمعتقداتك، وتسخرنا لطاعتك، وتبعدنا عن متع الحياة الدنيا ومباهجها .

---

(١). تفسير القرطبي : ١٠ / ٤٤٨ .

والتهمة هنا سياسية على ما يبدو لي؛ لأن المشركين أرادوا أن يؤلبوا بقية العوام على الرسول ﷺ والقرآن الكريم، بمعنى أن الرسول يستعمل هذا القرآن لأغراض سياسية، مستفيدًا من عذوبة ألفاظه، وجرس مبانيه التي تسحر كلَّ من أقبل عليه بقلبه وسمعه، بحسب زعمهم، لكي يخضع الناس إلى دينه، ويسخرهم لصالحه، يقول الفخر الرازي نقلًا عن القفال: ((معناه أن هذا القول خديعة منكم وضعتموها لمنع الناس عن لذات الدنيا وإحرازًا لهم إلى الانقياد لكم والدخول تحت طاعتكم))[1].

وحينما ننعم النظر في مجموع الآيتين مبدأً وختامًا، ولا سيما آية يونس، نلحظ تناقضهم باديًا في أجلى صورة، فمرة يُظهرون عجبهم مِنْ أنْ يُوحي اللهُ إلى رجلٍ، لا يملك القدرة والطاقة في تحمل تبعات الرسالة، ومرة يصفونه أنه ساحر؛ أي : لديه قدرات عجيبة وطاقات خارقة في التأثير في الآخرين .

٧. من عادة القرآن الكريم دائمًا أن يربط الإنسان بقضية المبدأ والمصير، قضيةِ (الإيمان بالله واليوم الآخر)؛ لأنَّ الإنسان حينما يدرك إدراكًا تامًا أن هنالك يومًا سيقف فيه للحساب فإنه يحسن القول، ويتقن العمل بصنوف الطاعات، وعظيم القربات التي يبيض بها وجهه، وتثقل بها صحيفة أعماله.

وربط الإيمان باليوم الآخر نصَّت عليه آية سورة يونس مع الآية التي قبلها في المفتتح ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾[يونس: ٣ – ٤] .

فقد جاء هذا الربط في سياق استحقاق الله العبادة؛ فالله هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام في أروع خلق، وأعظم تكوين، وأبدع صنع، وهو الذي يسيطر على هذا الكون الشاسع الأرجاء بأسره، ويدبر كلَّ جزئية فيه على وفق حكمته، وهو الذي لا يندُّ الشفعاء عن أمره ومراده إلا من بعد إذنه، ثم على إثر تلك الاستحقاقات تختم الآية بالدعوة إلى عبادة الله ﷻ حقَّ العبادة، ثم يكون بعد ذلك المرجع إليه ﷻ الذي هو وعد ناجز لا

(١). مفاتيح الغيب : ١٧ / ١٩٦ .

محالـة؛ إذ لا منـاص عنـه أبـدًا، ولا مفـرَّ إلا إليـه، ثـم تبـين الآيـة نفسُـها الحكمـة مـن ذلـك المرجع، وهو مجازاة الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ومعاقبة الذين كفروا بالعذاب الأليم.

وحينما نربط هذه القضية المهمة التي وردت في مفتتح سورة يونس بسياقات السورة نفسها نجد أن الله نعى على أولئك الذين لا يرجون لقاء الله؛ راضين بالحياة الدنيا بدلًا من الحياة الآخرة، ساكنة نفوسهم إليها، مرتاحة قلوبهم إلى هذه الفانية، أدى ذلك إلى غفلتهم عن آياتـه، فكانـت عـاقبتُهم النـارَ نتيجـةً حتميـةً، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس: ٧ – ٨] .

بل إنَّ السياق القرآنيَّ يشددُ النَّكير، ويغلظ التعبير في نعت هؤلاء حين يصفهم بالعَمَهِ والحَيْرَة والتخبط في طغيانهم ومعاصيهم وكفرهم وظلمهم، لا يلوون على شيء ولا يهتدون، حتى يأتيهم الأجل المحتوم؛ نتيجة عدم رجائهم لقاء الله، جاء ذلك في مَعْرِض استعجال المشركين الشرَّ والعذابَ قبل أوانه[1]، ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾[يونس: ١١]، يقول أبو زهرة : ((وعبَّر سبحانَه بالموصول : ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾[يونس: ١١] للإشارة إلى أن السبب في استمرار طغيانهم وتجاوزهم أنهم لا يتوقعون لقاء الله تعالى وتلقي الجزاء فيخافون، أو تلقي الثواب فلا يطغون))[2]

ثم ينقلنا السياق إلى بيان موقف المتجاسرين على كتاب الله، الطالبين من الرسول ﷺ الإتيانَ بقرآن غيرِ هذا القرآن المنزل عليه أو تبديله، بسبب أنهم لا يتوقعون ملاقاة ربهم، ولا يخافون يوم الحشر والنشور، فيتمادون في العصيان، والتفنن في مخالفة الرحمن، ولكن الرسول ﷺ يعرض عن ذلك؛ بسبب أن هذا ليس من شأنه، ولا من الصلاحيات التي تسمح بها رسالته، فقصارى جهده هو أن يتبع ما يوحى إليه من ربه، وفوق كلِّ ذلك يبدي خوفه التامّ من عذاب يوم القيامة العظيم، ومن ملاقاة ربه إنْ عصاه لأي شيء كان، فكيف إن أقدم على هذه المعصية، قال ﷻ : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ

(١). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٢٦٧ – ٢٦٨، وفي ظلال القرآن : ٣ / ١٧٦٨ – ١٧٦٩ .
(٢). زهرة التفاسير : ٧ / ٣٥٢٦ .

لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ ﴾[يونس: ١٥]، يقول البقاعيُّ : ((والموصول بصلته في قوله : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ﴾[يونس: ١٥] في موضع الضمير تنبيهًا على أنَّ هذا الوصف علة قولهم))[١].

وأما الربط بين الإيمان بالله واليوم الآخر فيتجلى في آية سورة هود في أبدع بيان، وأجمل تبيان ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾[هود: ١ – ٤]؛ إذ ورد هذا الربط في سياق ذكرِ اللهِ أركانَ العقيدة الصحيحة التي تضمنتها آيات الكتاب الذي أحكمت ثم فصلت، وهي توحيد الله وعبادته وحده، ومقومات الرسالة القائمة على الإنذار والتبشير، والاستغفار من جميع متعلقات الشرك والمعصية، والتوبة والعودة إلى الله بصالح الأعمال، ثم بيان جزاء التائبين المستغفرين، وهو المتاع الحسن ما داموا أحياء على طاعة الله، ثم ينتقل السياق إلى تهديد المتولين عن صراط الله المستقيم، وعن التمسك بتلك العقيدة الصافية، فإنَّ لهم بعد موتهم عذابَ يومٍ كبيرٍ في يوم المرجع إلى الله[٢].

ونجد السياق في سورة هود يشير أيضًا إلى قضية التلازم بين الإيمان بالله واليوم الآخر، فمثلًا في قوله ﷻ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾هود: [١٥ – ١٦]، وإرادة الدنيا هنا ليس ظاهرةً طارئةً استثنائيةً، بل إرادة مستمرة مُسْتكنة في أعماق القلوب والنفوس، بدليل إدخال ﴿كَانَ﴾على الفعل المضارع ﴿يُرِيدُ ﴾[٣]،

---

(١). نظم الدرر : ٨٧/٩

(٢). ينظر : في ظلال القرآن : ٤ / ١٨٥٢ .

(٣). ينظر : على طريق التفسير البياني : ٣ / ٤٨ .

قال الألوسي : ((وإدخال كانَ للدلالة على الاستمرار أي : من يريد ذلك بحيث لا يكاد يريد الآخرة أصلا))[1] .

وهنا نلحظ من مجموع الآيتين المُفْتَتَحِ بهما السورتان، الربط بين الإيمان واليوم الآخر أو العبادة والمرجع في تناسب يعكس أهمية هذا القضية في حياة الإنسان، فهو يعيش بين المبدأ والمصير اللذين يدفعانه نحو الإيمان الحقِّ، وترجمته بالعمل الصالح، وأنَّ الإيمان باليوم الآخر يجعله مُخلصًا في أعماله الدنيويّة والأخرويّة، حريصًا كلَّ الحرص على أنْ يحاسب نفسه على كل صغيرة وكبيرة

(١). روح المعاني : ١٢ / ٢٣ .

❖ **التناسب بين موضوعات سور (التوبة، ويونس، وهود) وقصصها :**

تبين لنا من قبلُ مدى التناسب بين هذه السور في مفتتحها تناسبًا يدلُّ على روعة النظم القرآني، الذي تنتظم فيه السورُ كانتظام اللؤلؤ في العقد، وحقيقة الأمر أن إشعاعات التناسب لا تقف عند هذا الحدِّ، بل تتعداه إلى التناسب بين الموضوعات وقصصها، بما يشكل لُحْمَةً موضوعيةً واحدةً بين هذه السور الثلاث في تناسق عجيب فريد.

وأبرز الموضوعات التي تكتنفها هذه السور على أساس أنها سور مكية، هو موضوع العقيدة الإسلامية وأصولها، على الرَّغم من أن سورة التوبة مدنية؛ تتحدث عن ضرورة المفاصلة مع المشركين والمنافقين وأهل الكتاب، إلا أن موضوع العقيدة لم يَغِبْ عن جوِّ هذه السورة في إشارة مهمة إلى أن العقيدة الإسلامية هي المعيار الذي يُؤَطِّر هذه المفاصلة[1]، يقول محمَّد رشيد رضا، متحدثًا عن التناسب الموضوعيِّ بين سورة يونس وسورة هود : ((قَدْ نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ يُونُسَ، وَهِيَ فِي مَعْنَاهَا وَمَوْضُوعِهَا الَّذِي بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِهَا، وَهُوَ أُصُولُ عَقَائِدِ الْإِسْلَامِ فِي الْإِلَهِيَّاتِ وَالنُّبُوَّاتِ وَالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ وَعَمَلِ الصَّالِحَاتِ))[2]، وتابعه في ذلك سيد قطب : ((فالآن إذ نعود إلى القرآن المكي نجد سورتي يونس وهود متواليتين في ترتيب المصحف وفي ترتيب النزول أيضًا.. والعجيب أن هناك شبهًا كبيرًا بين هاتين السورتين وتلكما في الموضوع، وفي طريقة عرض هذا الموضوع كذلك))[3]، كذلك أشارت هذه السور إلى موضوع تمجيد القرآن الكريم، وموقف المشركين منه استهزاء واستهانة .

وقد حاولتُ تتبع الآيات في كلِّ سورة من هذه السور الثلاث، ثم فرزَها في موضوعات مشتركة، فكانت موضوعاتُها على النحو الآتي :

١. **ماهية رسالة الرسول ﷺ** : كقوله ﷻ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[التوبة: ٣٣]، وقوله :﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ

---

(١). ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٦١٩ .

(٢). تفسير المنار : ١٢ / ٥ .

(٣). في ظلال القرآن : ٣ / ١٧٤٥ .

ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾ [يونس: ٢]، وقوله :﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾ [هود: ٢] .

٢. **إثبات البعث والنشور** : كقوله ﷻ : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [التوبة: ٩٤]، وقوله : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [يونس: ٤]، وقوله :﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ [هود: ٤] .

٣. **إثبات قدرة الله المطلقة** : كقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ ﴾ [التوبة: ١١٦]، وقوله :﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [يونس: ٣]، وقوله :﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾ [هود: ٧] .

٤. **توحيد العبودية والألوهية** : كقوله ﷻ :﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [التوبة: ٣١]، وقوله :﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يونس: ١٠٦]، وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [هود: ١٢٣] .

٥. **تمجيد القرآن الكريم سواء من الله ﷻ أو البشر** : كقوله ﷻ : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [

التوبة:١٢٤]، وقوله : ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾[يونس: ١]، وقوله : ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾[هود: ١] .

٦. **الاستهانة بالقرآن العظيم** : كقوله ﷻ : ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤﴾[التوبة: ١٢٤]، وقوله : ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ١٢٧﴾[التوبة: ١٢٧] وقوله : ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾[يونس: ١٥]، وقوله : ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣﴾[هود: ١٣] .

هذا من جانب التناسب الموضوعيِّ بين هذه السور، أما جانب التناسب القصصيِّ فيها، فاتَّخذ منحى التسلسل من الإجمال إلى التفصيل تارةً، ومن التفصيل إلى الإجمال تارةً أخرى، وقد جاء ذلك بما يتوافق ويتجانس مع الموضوع والسياق في كلِّ سورةٍ منها.

فالقصص في سورة التوبة وردت مكتفيةً بذكر أسماء الأقوام فقط، دون ذكر تفاصيلها وأحداثها؛ لأن القصص هنا ليست أساسية في تشكيل هذه السورة، حتى تأخذ مساحة كبيرة عرضًا وتفصيلًا، فكلّ السورة ينْصَب على الحديث عن الأحكام النهائية في العلاقات بين المسلمين والمشركين وأهل الكتاب والمنافقين[1]، وكان الحديث عن المنافقين وفضح مخططاتهم في المجتمع المسلم، كان له النصيب الأوفر، ومِنْ ثَمَّ لا غرابةَ أن يحمل السياق في مخاطبته هذه الفئة التهديدَ والوعيدَ، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٦٨﴾[التوبة: ٦٨]، ثم يذكرهم بأسلافهم الذين استمتعوا بحظوظهم، وبملذاتهم في الدنيا، والذين كانوا أشدَّ منهم قوةً وأكثر أموالًا وأولادًا، في محاولةٍ لإيقافهم عن أفاعيلهم الآثمة بأسلوب مِلْؤُهُ الوعيدُ والتهديدُ

(١). ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٥٦٤ .

والتقريعُ ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [التوبة: ٦٩]، ثم يُذكِّرهم بقصص هؤلاء السلف كقوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات، بأسلوب الاستفهام التقريريِّ الإنكاريِّ، دون ذكر التفاصيل كما قلتُ سابقًا؛ لأن الغرض من سوقها هنا هو أخذُ العبرة فحسب ممّا حلَّ بهؤلاء السابقين؛ لكي يربؤوا بأنفسهم عن نهج مسلكهم، والسير على ركابهم حين ظلموا أنفسهم بتكذيبهم بالبينات، ومكابرتهم الحقائق الساطعة التي جاء بها أنبياؤهم ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [التوبة: ٧٠] .

وأمّا القصص في سورة يونس، فهي متناسبة مع قصص سورة التوبة في التفصيل لقصة نوح عليه السلام فقط من جهة، وفي الإجمال لبقية القصص (عاد، وثمود، وقوم إبراهيم، وأصحاب مدين، والمؤتفكات) من جهة أخرى، دون ذكر أسماء هؤلاء الأقوام، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [يونس: ٧٤] .

ومن ناحية أخرى تتناسب القصص في سورة يونس مع قصص سورة هود في التفصيل لقصة موسى عليه السلام، وفي الإجمال والإيجاز لقصة نوح عليه السلام .

فضلًا عن أنَّ السياق الذي اكتنف القصص في سورة يونس، فيما يبدو لي، متناسبٌ مع سياق القصص في سورة التوبة؛ فقد وردت القصص في سورة التوبة بعد التهديد والوعيد والاستمتاع بمُتَع الدنيا الفانية كما بينتُ ذلك قبل قليل، فكذلك الحال أيضًا في ورود قصص سورة يونس بعد التهديد والوعيد والاستمتاع بمُتَع الحياة الفانية؛ فمثلًا : قصة نوح، كما بقية القصص في سورة يونس، وردت بعد التهديد والوعيد للمفترين على الله كذبًا أنه اتَّخذ ولدًا تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا بعدما يأخذون نصيبهم من هذه الحياة الدنيا، ويستمتعون بملذاتها، وهم لاهون سادرون في غيهم عما ينتظرهم من العذاب في الآخرة ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ

ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [يونس: ٦٨ – ٧٣]، قال البقاعي : ((ولما تقدم سؤالهم الإتيان بما يقترحون من الآيات، ومضت الإشارة إلى أن تسييرهم في الفلك من أعظم الآيات وإن كانوا لإلفهم له قد نسوا ذلك، وتناسجت الآي كما سلف إلى أن بين هذا أن متاع المفترين الكذبَ قليلٌ تخويفاً من شديد السطوة وعظيم الأخذ، عقَّب ذلك بقصة قوم نوح؛ لأنهم كانوا أطول الأمم الظالمة مدة وأكثرهم عدة، ثم أخذوا أشدَّ أخذٍ، فزالت آثارهم وانطمست أعلامهم ومنارهم، فصاروا كأنهم لم يكونوا أصلًا ولا أظهروا قولًا، ولا فعلًا))[1].

ومما يلحظ أيضًا أن القصص في سورة يونس متناسبة مع موضوعها ومقاصدها[2]، وهي على النحو الآتي :

أولًا : تهديد وتقريع المشركين المعارضين دعوة الرسول ﷺ بأن الله ناصر عبده ودعوته كما نصر الأنبياء من قبل على أقوامهم، فأبادهم، وأنجى المؤمنين[3]، يقول الله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [يونس: ١٣ – ١٤]، يقول وهبة الزحيلي : ((هذه آية وعيد وتهديد بعذاب الاستئصال والإهلاك للكفار مقرونة بضرب الأمثال لهم، في تعذيب الأمم السابقة، ليرتدعوا عما هم فيه من تحدّ

---

(١). نظم الدرر : ٩ / ١٦١ – ١٦٢ .

(٢). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٣٨٧ – ٣٨٨ .

(٣). ينظر : المصدر نفسه : ١١ / ٣٨٧ .

لموكب الإيمان أو مطلب متسرع في تعجيل العذاب، مع أن القانون الإلهي واحد، فكما فعل السابقون أفعالًا منكرةً فعذّبوا، كذلك يفعل بالأجيال المتلاحقة بسبب التّشابه في الأسباب واقتراف السّيئات))[1].

ثانيًا : أنَّ الله جعل لكلِّ أمَّة من الأمم رسولًا، يرشدها ويهديها إلى الحقِّ، ويقيم عليهم الحجة، ثم يقضى الله بينه وبينهم بالعدل؛ إن أطاعوه نجوا، وإن عصوه هلكوا[2]، يقول ﷻ : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾[يونس: ٤٧]، وهذه الآية هي الأخرى تنطوي على التهديد والوعيد والتحذير لمشركي مكة ومن سار على شاكلتهم، من أن ينتهجوا الكفر والضلال طريقًا ومسلكًا، قال ابن عاشور : ((وَلَمَّا أَشْعَرَ قَوْلُهُ : ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم ﴾ بِأَنَّ الْقَضَاءَ قَضَاءُ زَجْرٍ لَهُمْ عَلَى مُخَالَفَةِ رَسُولِهِمْ وَأَنَّهُ عِقَابٌ شَدِيدٌ يَكَادُ مَنْ يَرَاهُ أَوْ يَسْمَعُهُ أَنْ يَجُولَ بِخَاطِرِهِ أَنَّهُ مُبَالَغٌ فِيهِ أُتِيَ بِجُمْلَةِ، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾، وَهِيَ حَالٌ مُؤَكِّدَةٌ لِعَامِلِهَا الَّذِي هُوَ ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ﴾ لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّ الذَّنْبَ الَّذِي قُضِيَ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِهِ ذَنْب عَظِيم))[3].

ثم تأتي القصص بعد ذلك تباعًا، لتؤكد هذا التهديد والتحذير من أن ينال هؤلاء المشركين ما أصاب السابقين من العذاب والهلاك، كما حدث مع قوم نوح وفرعون وملئه وجنوده، ويستثنى من ذلك قوم يونس؛ فإنهم آمنوا قبل أن يحلَّ عليهم العذاب.[4]

ويبدو لي تناسبٌ موضوعيٌّ داخليٌّ آخر بين القصص ومطلع السورة، فمطلع السورة يعرض لنا تعجب الكفار من أن يوحى على رجل من الناس، فرفضوا دعوة الرسول محمَّد ﷺ، لهذه العلة، وهذا التعجب يتناسب ومضمون قصة نوح وقصة موسى عليهما السلام فإن قوم نوح رأوا نبيهم نوحًا ثقيلًا عليهم، غيرَ مرحب به بينهم؛ بسبب عدم تقبلهم دعوته ورسالته، ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ [يونس: ٧١]، وكذا الحال مع موسى عليه السلام فقد جحد فرعون وملؤه دعوة نبيهم، بل وصفوا ما

---

(١). التفسير الوسيط : ٢ / ٩٥٠ .

(٢). ينظر : المصدر نفسه : ٢/٩٧٧ .

(٣). التحرير والتنوير : ١١ / ١٨٨ .

(٤). ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٨٠٩ – ١٨١٠ .

جاء به من الوحي والرسالة بأنه سحر مبين، ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ ﴾[يونس: ٧٦] .

وأمّا القصص في سورة هود، فهي متناسبةٌ في تفصيل قصص سورة التوبة وسورة يونس (نوح، وعاد، وثمود، وإبراهيم مع الملائكة، ولوط، ومدين)، ما عدا قصة موسى عليه السلام فقد أجملت في مقابل التفصيل الذي عرض في سورة يونس.

وقد سبق أن ذكرتُ قبل قليلٍ أنَّ القصص في سورة التوبة وسورة يونس وردت بعد التهديد والوعيد، وهذا النمطُ ينطبق أيضًا على القصص في سورة هود؛ إذ وردت بعد التهديد والوعيد لأولئك الذين يفترون على الله كذبًا في وحيه وقرآنه، أو أحكامه، أو صفاته، أو أفعاله[1]، ويصدون الناس عن سبيل الحقِّ ويكفرون بيوم القيامة، فإنهم لن يعجزوا الله في الأرض من أن ينالهم العذاب والعقاب واللعنة والطرد من رحمة الله، وليس لهم من أولياء وأنصار يستعينون بهم في دفع العذاب عنهم، بل إنَّهم قد خسروا أنفسَهم في الدنيا والآخرة ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ ... وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ ﴾[هود: ١٨ – ٢٥]، قال ابن عاشور في تفسيره على الآية ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[هود: ٢٠] : ((اسْتِئْنَافٌ بَيَانِيٌّ نَاشِئٌ عَنْ الِاقْتِصَارِ فِي تَهْدِيدِهِمْ عَلَى وَصْفِ بَعْضِ عِقَابِهِمْ فِي الْآخِرَةِ فَإِنَّ ذَلِكَ يُثِيرُ فِي نَفْسِ السَّامِعِ أَنْ يَسْأَلَ : هَلْ هُمْ سَالِمُونَ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا، فَأُجِيبَ بِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الدُّنْيَا، أَيْ : لَا يَخْرُجُونَ عَنْ مَقْدِرَةِ اللَّهِ عَلَى تَعْذِيبِهِمْ فِي الدُّنْيَا إِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ تَعْجِيلَ عَذَابِهِمْ))[2].

---

(١). ينظر : تفسير المنار : ٤٧/١٢ .

(٢). التحرير والتنوير : ٣٤/١٢ .

وثمة تناسبٌ داخليٌّ للقصص في سورة هود مع موضوعها ومقاصدها؛ فالسورة عرضت في مطلعها حقائق العقيدة، ثم تأتي هذه القصص لتؤكد وتستعرض حركة هذه الحقائق في التاريخ البشريّ، من زمن نوح عليه السلام إلى عهد محمَّد ﷺ[1]، وهذه الحقائق العقدية هي : (توحيد الله، والاستغفار والتوبة، و الخوف من عذاب الله، والرجوع إلى الله، وقدرة الله الغالبة، وخفايا النفس الإنسانية، والتكفل بأرزاق كل دابة، وخلق السموات والأرض)، قال ﷻ : ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٖ فَضْلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٖ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ۝٤ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٞ مُّبِينٞ ۝٧﴾[هود: ٢ – ٧] .

وبعد هذا التَّطواف لابدَّ من الإشارة إلى أن السور الثلاث اشتركت في قصة نوح عليه السلام في تسلسل عجيب من الإجمال الكليَّ في سورة التوبة، إلى الإيجاز في سورة يونس، ثم التفصيل والعرض الموسع في سورة هود، ومن اللافت للنظر في التناسب بين القصص في السور الثلاث، أنها كلها بدئت بقصة نوح عليه السلام.

فسورة التوبة، كما ذكرت، لم تتعرض لأحداث القصة تمامًا، بينما سورة يونس أشارت إلى جانب تحدي نوح عليه السلام قومه بعدما استغرق طويلًا في إنذارهم وتخويفهم، وتعرضت إلى استعانته بالله وحده، ونجاة نوح ومن آمن به ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ۝٧١ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٧٢ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا

(١). ينظر : في ظلال القرآن : ٤/ ١٨٤١– ١٨٤٤– ١٨٧٠ .

﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾[يونس: ٧١ – ٧٣]، في حين فصَّلت سورة هود كثيرًا؛ فقد ابتدأت بذكر رسالة نوح، ومعارضة قومه له، ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ۖ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾[هود: ٢٥ – ٢٧]، وانتهت بنجاة نوح ومن معه ﴿ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ ﴾[هود: ٤٨] .

وبهذا يتبين لنا تناسب القصص في السور (التوبة، ويونس، وهود) من حيث :

١. تناسبها تفصيلًا وإجمالًا.
٢. التناسب الموضوعيُّ المشترك : مجيء القصص بعد التهديد والوعيد .
٣. التناسب الداخلي للقصص مع موضوعها ومقاصدها.
٤. اشتراكها جميعا في قصة نوح .

❖ **التناسب بين خاتمة التوبة وفاتحة يونس:**

من ملامح التناسب ذلك التلاؤم والتلاحم الذي تبدو فيه فاتحة كلِّ سورة تلقف خاتمةَ ما قبلها، في تآخٍ وتآلف معنويٍّ يأخذ بالألباب، ويأسر الأسماع، حتى تشعر أنك أمام سورة واحدة من شدة ما بينهما من الترابط والتناسق، ويشير الزركشيُّ إلى أهمية هذا النوع من المناسبات بقوله : ((وَإِذَا اعْتَبَرْتَ افْتِتَاحَ كُلِّ سُورِهِ وَجَدْتَهُ فِي غَايَةِ الْمُنَاسَبَةِ لِمَا خَتَمَ بِهِ السُّورَةَ قَبْلَهَا ثُمَّ هُوَ يَخْفَى تَارَةً وَيَظْهَرُ أُخْرَى))[1]، وسمَّى السيوطيُّ هذا النوع من التناسب (تشابه الأطراف)، ويرى أنه من أكبر وجوه المناسبات في ترتيب السور.[2]

وهذا النوع من التناسب نجده فعلًا بين فاتحة سورة يونس وخاتمة التوبة، أجمله في النقاط الآتية :

١. ختمت سورة التوبة بذكر الرسول ﷺ، ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾[التوبة: ١٢٨]، وبدئت سورة يونس به[3]، ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾[يونس: ٢]، هذا بالنظر في كلتا الآيتين نظرة إجمالية عامة، ولكن حينما نُعيد النظرَ فيهما مرةً أخرى، نجد تناسبًا بين جملهما ومفرداتهما؛ فآية يونس تأتي مؤكدةً أو شارحةً ما ورد في آية التوبة من الصفات التي يتحلى بها الرسول ﷺ، في ملمحٍ عجيبٍ، وإشارةٍ فريدةٍ إلى أن من كانت هذه صفاته فلا عجبَ أن يرسله الله إلى الناس هاديًا ومنذرًا وبشيرًا، ومِنْ ثَمَّ كان حريًّا بالكفار وغيرِهم أن يُقْبلوا عليه ﷺ ويُسارعوا إلى الإيمان بدعوته[4]، وتوضيح هذا التناسب يكون في المخطط الآتي :

---

(١). البرهان في علوم القرآن : ١ / ٣٨ .

(٢). ينظر : أسرار ترتيب القرآن : ٧١ .

(٣). ينظر : روح المعاني : ١١ / ٥٨ – ٦١، وتفسير المنار : ١٢٤/١١ .

(٤). ينظر : نظم الدرر : ٦٣/٩ .

م	آية التوبة	آية يونس
١.	رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ	رَجُلٍ مِّنْهُمْ
٢.	عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ	قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ
٣.	حَرِيصٌ عَلَيْكُم	أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ
٤.	بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ	وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ

٢. تناولت خاتمة التوبة أحوال المنافقين وما يقولونه عند نزول سورة من سور القرآن، ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقوله ﷻ أيضا : ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [التوبة: ١٢٧]، بينما سورة يونس تناولت أحوال الكفار وما يقولونه في القرآن الكريم[1]، ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [يونس: ١٥]، وهذا الترابط بين الآيتين يؤكد أن المنافقين والكفار في خندق واحد يرمون الإسلام والرسالة والقرآن الكريم عن قوس واحدة .

٣. أشارت سورة التوبة إلى ذمِّ المنافقين الذين لا يتوبون ولا يتذكرون ولا يرعون إلى ربِّهم من بعدِ ما ألمَّ بهم البلاء، ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التوبة: ١٢٦]، أمّا سورة يونس فأشارت إلى ذمِّ ذلك الإنسان الذي يتذكرُ ربَّه ويدعوه ليلَ نهارَ حين يمسُّه الضرُّ والبلاءُ ثم ينساه في السراء، ناكرًا فضل الله عليه[2]، ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ

(١). ينظر : روح المعاني : ١١ / ٥٨ ، و تفسير المنار : ١١ / ١٢٤ .

(٢). ينظر : روح المعاني : ١١ / ٥٨ .

ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [يونس: ١٢] .

٤. ختمت سورة التوبة بذكر العرش العظيم، ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٩]، وبُدئت سورة يونس بالاستواء على العرش، ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [يونس: ٣] .

وذكر العرش في الآيتين في سياق التولية والإعراض[١]، يأتي تفخيما وكناية عن سيطرة الله وتدبيره كلَّ هذا الوجود المترامي الأطراف؛ لِيُلْتَجأ إليها ويُعْتمد عليها حين يتولّى المتولون، ويُعرض المعرضون عن دين الله ومنهجه، في حين كان جديرًا بهؤلاء أن يذعنوا لله ذي القدرة الغالبة، والسيطرة المطلقة، أذلاء مطيعين عابدين له، لا أن يتولوا ويتكبروا ويعرضوا عن عبادته[٢]، ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [يونس: ٣] .

٥. ولأبي حيان ملحظ فنيٌّ في تناسب ما جاء في ختام سورة التوبة وفاتحة يونس، يوضحه بقوله : ((وَلَمَّا كَانَ ذِكْرُ الْقُرْآنِ مُقَدَّمًا عَلَى ذِكْرِ الرَّسُولِ فِي آخِرِ السُّورَةِ، جَاءَ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ كَذَلِكَ، يعني يونس، فَتَقَدَّمَ ذِكْرُ الْكِتَابِ عَلَى ذِكْرِ الرَّسُولِ))[٣].

---

(١). وردت كلتا الآيتين في سياق التولية والإعراض : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٩]، و ﴿ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾ [يونس: ٢].

(٢). ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٧٤٢، و تفسير المنار : ١١ / ٧٨ .

(٣). البحر المحيط : ٥ / ١٢٥ .

❖ **التناسب بين خاتمة سورة يونس وفاتحة سورة هود**

بينتُ سابقًا وجوه التناسب بين فاتحة يونس وخاتمة التوبة، ولكن لابدَّ من النظر في وجوه التناسب والترابط بين خاتمة سورة يونس وفاتحة سورة هود، حتى تتجلى روعة تآخي سورة يونس بما قبلها وما بعدها، في النظام القرآني.

وسأبرز وجوه هذا التناسب في الآتي :

١. ختمت سورة يونس بالأمر إلى الرسول ﷺ باتِّباع الوحي، والصبر على الدعوة، بما يكتنفها من مشاقّ وضيق وأذًى، حتى يَحْكَم اللهُ ويَقْضي في أمره وأمر قومه[١]، ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾[يونس: ١٠٩]، وهذا الختام، فيما يبدو لي، يتساوق مع الآية في مفتتح سورة هود التي تنهى الرسول ﷺ عن الرضوخ لضغوطات المشركين له، فيترك شيئًا من الوحي أو يضيق صدره، بل عليه أن يبلغ كلَّ ما يُوحى إليه، ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ ﴾[هود: ١٢]، وفي ذلك قال ابن عاشور : ((فَلَيْسَ فِي هَذَا تَجْوِيزُ تَرْكِ النَّبِي ﷺ تَبْلِيغَ بَعْضِ مَا يُوحَى إِلَيْهِ، وَذَلِكَ الْبَعْضُ هُوَ مَا فِيهِ دَعْوَتُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ وَإِنْذَارُهُمْ بِالْعَذَابِ وَإِعْلَامُهُمْ بِالْبَعْثِ، ...، وَالْمَعْنَى تَحْذِيرُهُ مِنَ التَّأَثُّرِ بِعِنَادِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ وَاسْتِهْزَائِهِمْ، ...، فَيَكُونُ تَحْذِيرًا مِنْ أَنْ يَضِيقَ صَدْرُهُ لِاقْتِرَاحِهِمُ الْآيَاتِ بِأَنْ يَقُولُوا: ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ﴾[هود: ١٢]))[٢].

٢. ولكنَّ البقاعيَّ وجّه آية يونس الآنفة الذكر وجهةً أخرى، مبينًا تناسبَها مع قوله ﷻ : ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾[هود: ١]، فيقول : ((لمّا خُتِمتْ السورةُ التي قبلها، كما ترى، بالحثِّ على اتِّباع الكتاب ولزومه والصبر على ما يتعقب ذلك من مرائر الضير المؤدية إلى مفاوز الخير اعتمادًا على المُتَّصف بالجلال

---

(١). ينظر : التفسير الوسيط : ٢ / ١٠١٨ .

(٢). التحرير والتنوير : ١٢ / ١٦ – ١٧، وينظر : في ظلال القرآن : ٤ / ١٨٦٠ .

والكبرياء والكمال، ابتدئتْ هذه بوصفه بما يرغب فيه))[1]، ويذهب الأستاذ الدكتور فاضل السامرائي إلى تفصيل هذا التناسب بين هاتين الآيتين، أنقله هنا بنصِّه وفصِّه : ((قال في خاتمة السورة التي قبلها، وهي سورة يونس : ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [يونس: ١٠٩]، وما يوحى إليه هو الكتاب الذي أحكمت آياته ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ [هود: ١]، فناسب قوله : ﴿ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ وصف الكتاب بأنه أحكمت آياته، فخير الحاكمين هو الذي أحكم آياته، وناسب قوله : ﴿ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ في آية يونس قوله في آية هود : ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾ [هود: ١]؛ فالحكيم قد يكون من معنى القضاء فيكون بمعنى الحاكم، وقد يكون من الحكمة؛ فالحكيم على هذا هو خير الحاكمين؛ لأنه حكيم وحاكم، ولا شكَّ أنَّ الحاكم إذا كان ذا حكمة كان خير الحاكمين))[2].

٣. أشارت خاتمة يونس إلى أنَّ وظيفة الرسول ﷺ تبليغُ الحقِّ من ربِّه ﷻ فحسب، وأما هدايتهم فليست من اختصاصه؛ إذ ليس هو وكيلًا على أن يجعلهم مؤمنين؛ فمن أطاع الله واهتدى، فإنما يهتدي لنفسه، ويعود نفع هدايته لنفسه، ومن ضلَّ وغوى، فإنه يعود ضررُ ضلاله على نفسه، ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يونس: ١٠٨]، قال سيد قطب : ((وليس الرسول موكلاً بالناس يسوقهم إلى الهدى سوقًا، إنما هو مبلغ، وهم موكولون إلى إرادتهم وإلى اختيارهم وإلى تبعاتهم، وإلى قدر الله بهم في النهاية))[3]، وهذا يتناسب، فيما أرى، مع قوله ﷻ في مبدأ سورة هود : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾ [هود: ٢]، فالرسول هنا ﷺ يدعو قومه إلى عبادة الله وحده، مبينًا أن وظيفته هي الإنذار والتبشير، يقول وهبة الزحيلي : ((نزل هذا الكتاب بألا تعبدوا غير الله، ولا تشركوا به شيئا، ...، وإنني أنا رسول الله مرسل من عند الله، نذير من العذاب إن عصيتموه أو خالفتموه،

---

(١). نظم الدرر : ٩ / ٢٢٤ .

(٢). على طريق التفسير البياني : ٣ / ٤ – ٥ .

(٣). في ظلال القرآن : ٣ / ١٨٢٦ .

وبشير مبشّر بالثواب إن أطعتموه. وفي هذا تبيان مهمة الرسول ﷺ ووظيفته وهي الإنذار لمن عصاه بالنّار، والتّبشير لمن أطاعه بالجنة))[1].

٤. تناولت خاتمة يونس قصة قوم نبي الله يونس عليه السلام الذين آمنوا وتابوا قبيل وقوع العذاب الذي هددهم به نبيُّهم، فكشف الله عنهم عذاب الخزي، ومتعهم في حياتهم إلى حين أجلهم[2]، ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ [يونس: ٩٨]، وهذه القصة تتواءم مع قوله ﷻ في فاتحة هود : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ [هود: ٢ – ٣]، فهذه الآية تشير إلى أن الإيمان بالله وعبادته حقَّ العبادة، والاستغفار والتوبة من الشرك والكفر والذنوب، ينفع صاحبه؛ فالله يمتعه متاعًا حسنًا في الحياة الدنيا إلى الممات، كانتفاع قوم يونس بإيمانهم.

---

(١). التفسير الوسيط : ٢ / ١٠٢١ .

(٢). ينظر: تفسير القرطبي : ١١ / ٥٤ – ٥٦ .

القسم الثاني : المناسبات الداخلية :

❖ **تناسب اسم السورة مع مقصودها :**

للاسم أهميته الكبرى في معرفة ما بداخل النَّصِّ من مضامين، يقول البقاعيُّ : ((اسم كلِّ شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسماه عنوانه الدَّالّ إجمالًا على تفصيل ما فيه))[١]، وبمعرفة المضامين والمقاصد التي تكتنفها السورة، يتشكل لدى الدارس أرضيةٌ صُلْبةٌ للانطلاق منها إلى بيان أوجه التناسب بين الآيات ومقاطعها وقصصها، يقول البقاعيُّ : ((أنَّ من عرف المراد من اسم السور عرف مقصودها، ومن حقق المقصود منها، عرف تناسب آيها، وقصصها، وجميع أجزائها))[٢]، وهذا ما يؤكده الدكتور مصطفى مسلم بقوله : ((التّعرف على الهدف الأساسيِّ للسورة أو المحور الذي تدور السورة حوله يمكن معرفة ذلك من خلال التعرف على دلالة اسم السورة أو أسمائها التي ثبتت عن طريق الوحي، أي : بالتوقيف عن رسول الله ﷺ)).[٣]

ولكي نسبر أغوار سورة يونس ومقاصدها ومضامينها، فلا بدَّ من الوقوف على اسمها، وبيان دلالته، واسم السورة التوقيفيُّ هو (سورة يونس)، وهكذا سميت السورة في جميع كتب التفسير والحديث، وبه كتبت في المصاحف[٤]، وسبب تسمية هذه السورة به هو ورود ذكر (يونس) فيها، في قوله ﷻ : ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾[يونس: ٩٨]، ويرى ابن عاشور أنَّ سبب التسمية راجع إلى أمرين، هما :

١. انفراد السورة بذكر خصوصية لقوم يونس، وهي إيمانهم وتوبتهم قبل حلول العذاب عليهم، ((سُمِّيَتْ فِي الْمَصَاحِفِ وَفِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ وَالسُّنَّةِ سُورَةَ يُونُسَ لِأَنَّهَا انْفَرَدَتْ

---

(١). نظم الدرر : ١ / ١٩ .

(٢). مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور : ١ / ١٤٩ .

(٣). مباحث في التفسير الموضوعي : ٤١ .

(٤). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ٧٧، و أسماء سور القرآن الكريم :٢٢٤ .

بِذِكْرِ خُصُوصِيَّةٍ لِقَوْمِ يُونُسَ، أَنَّهُمْ آمَنُوا بَعْدَ أَنْ تَوَعَّدَهُمْ رَسُولُهُمْ بِنُزُولِ الْعَذَابِ فَعَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ لَمَّا آمَنُوا))[١]

٢. تمييز هذه السورة عن أخواتها الأربع المفتتحة بـ (الر)، وهي سورة : (هود، ويوسف، وإبراهيم، الحجر)، فقد مُيِّزْنَ هُنَّ الأخريات بإضافتهن إلى نبيٍ أو قوم نبي بدلًا من أن يُقال الر الأولى والر الثانية[٢].

وحينما نقف على الجذر اللغويِّ لكلمة (يونس) نجدها عند ابن فارس تحمل الدلالات الآتية : (((أَنَسَ) الْهَمْزَةُ وَالنُّونُ وَالسِّينُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ ظُهُورُ الشَّيْءِ، وَكُلّ شَيْءٍ خَالَفَ طَرِيقَةَ التَّوَحُّشِ، قَالُوا: (الْإِنْسُ خِلَافُ الْجِنِّ)، وَسُمُّوا لِظُهُورِهِمْ، يُقَالُ: (آنَسْتُ الشَّيْءَ) : إِذَا رَأَيْتُهُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦]، وَيُقَالُ: (آنَسْتُ الشَّيْءَ) : إِذَا سَمِعْتُهُ، وَهَذَا مُسْتَعَارٌ مِنَ الْأَوَّلِ))[٣] .

يفهم من كلام ابن فارس أن الجذر اللغويَّ لكلمة (يونس) يحمل دلالة الأنس والظهور، أي : إن الأنس يكون بسبب الظهور، ولهذا الإنسان يستأنس بغيره من الإنس؛ لأنه يراه بكثرة، ولو لم يعرفه أحيانًا، بخلاف الجنِّ الذين يَخاف منهم الإنسان ويستوحش ويوجس خيفة منهم؛ بسبب اختفائهم وعدم ظهورهم[٤]، ويقول الفيروز آبادي : ((وفيه، يعني اسم (يونس) ثلاثُ لُغاتٍ : ضَمُّ نُونِه وفَتْحهُ وكَسْرُه، وهو اسمُ علمٍ أَعجميّ ممتنع من الصَّرْف، وقيل : مُشْتَقٌ وَزْنُه يُفْعِل من آنَس يُؤْنِسُ إيناسًا بمعنى أَبْصَر، قال الله تعالى: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩]، وقيلَ من الأُنْسِ ضدّ الوَحْشة، سُمِّيَ بِه لأُنْسِهِ بطاعةِ الله، أَو لأَنَّه أَبصر رُشْدَه فى العبادة))[٥]، ونستخلص من كلام الفيروز آبادي أن اسم (يونس) مشتق من الأنس؛ بسبب إيناسه بطاعة الله أو مشتق من الإبصار؛ بسبب إبصاره الرشد في العبادة .

---

(١). التحرير والتنوير : ١١ / ٧٧ ، و ينظر : التفسير الوسيط للقرآن الكريم : ٧ / ٧ .
(٢). ينظر التحرير والتنوير : ١١ / ٧٧ .
(٣). مقاييس اللغة : ١ / ١٤٥، (أنس) .
(٤). ينظر : تهذيب اللغة : ١٠ / ٤٩٦ .
(٥). بصائر ذوي التمييز : ٦ / ٥٣ .

ومن كلِّ ما سبق نستنتج أن الجذر اللغويَّ للاسم (يونس) تدور معانيه حول : (الأنس، والظهور، والإبصار)، وهذه الدلالات نجد ملامحها في مقاصد هذه السورة[1]، وسأوضح ذلك في النقاط الآتية :

١. التمسك بالوحي مهما كانت الظروف، فهو أساس الدعوة.

من دلالات الاسم (يونس) الأنس والإيناس، وهذه الدلالة تتوافق مع ما بينته السورة من هجوم كبير على الوحي لما يمثله من أساس قويٍّ تستند عليه الدعوة، فلم يفتأ المشركون أن يثيروا الشُّبَه حوله؛ كالتعجب من أن يُوحى إلى بشرٍ حينًا ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ ﴾ [يونس: ٢]، إلى الطلب بالإتيان بقرآنٍ غيرِ هذا القرآن أو تبديله ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ [يونس: ١٥]، إلى التشكيك في هذا الوحي المتمثل في القرآن الكريم بأنه مفترًى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس: ٣٨]، إلى آخر محاولاتهم البائسة اليائسة، ولهذا كلِّه ختم الله هذه السورة بأمره إلى الرسول باتِّباع الوحي والصبر عليه ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [يونس: ١٠٩]، وهذا الأمر لا يخلو من الإيناس والتسرية للرسول ﷺ، وفي هذه الآية قال وهبة الزحيلي : ((وفي هذا الكلام تسرية عن هموم النّبي ﷺ ممّا لقيه من أذى قومه، ووعد له وللمؤمنين بأن يغلّبهم وينصرهم، ووعيد للأعداء الكافرين بأن يخذلهم ويهزمهم، ويطوي صفحتهم من التاريخ إلى الأبد))[2].

٢. الرد على مزاعم المشركين بأسلوب عقلي لا غموض فيه :

من دلالات الاسم (يونس) الأنس والإيناس؛ فإننا نجد في كثير من آيات سورة يونس التوجيهَ الربانيَّ ومددَ الوحي المستمر للرسول في الردِّ على شُبُهات المشركين التي كثرت بعد حادث الإسراء والمعراج، وهذا يظهر جليًا من خلال تكرار الفعل (قُلْ) في السورة؛ فقد تكرر (٢٤) مرة، مما يُضفي صفة الأنس للرسول ﷺ، وهو يواجه عناد

---

(١). بعض هذه المقاصد من اجتهادي، وأكثرها منقول عن كتاب (أسماء سور القرآن الكريم)، نقلا حرفيا أو متصرفًا فيه : ٢٢٤ .

(٢). التفسير الوسيط : ٢ / ١٠١٩ ، وينظر : تفسير المراغي : ١١ / ١٦٦ .

المشركين، وصلفَ المكذبين بكَمٍّ كبير من التوجيهات والردود الربانية، ومن أمثلة ذلك، لا الحصر، الردُّ على طلباتهم الغريبة العجيبة، فإنهم حين تتلى عليهم آيات الله البينات يبدون امتعاضَهم وضيقهم منها؛ لأنَّها لا تتماشى مع هواهم، فيطلبون من الرسول ﷺ الإتيان بقرآن غير هذا القرآن أو تبديله ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥]، فيأتي الردُّ من الله ﷻ عليهم، مواكبًا هذا الطلب الغريبَ بصيغة ﴿قُلْ﴾ في توجيه ربانيٍّ صارمٍ لا يقبل المساومة، وفي ردٍّ مؤنسٍ للرسول أمام هذه التحديات والطلبات بغيةَ نسف هذا الدين من أساسه، ينقله الرسول ﷺ إلى المكذبين ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس: ١٥ – ١٦]، وبعدما لم تُفلح هذه الشُبُهات الفكريةُ التي بددها القرآن بنفسه، انتقل أولئك المشركون أصحابُ النفوذ والسلطة إلى اتِّباع سياسة التهديد والوعيد والتخويف ضدَّ الرسول ﷺ ودعوته، ولكنَّ المددَ الربانيَّ، والوحي الإلهيَّ، يتنزل عليه؛ ليبلغَ الإيناسُ مبلغَه، والأُنْسُ منتهاه ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾ [يونس: ٦٥]، يقول وهبة الزحيلي : ((فجاءت آيات الوحيِ القرآنيِّ تُواسي محمَّدًا ﷺ، وتَشدُّ عزيمته، ومعناها : لا يهمّك ولا يحزنك أيها الرسول قول المشركين أبدًا : لستَ مُرسلًا، وغير ذلك من المعارضة والإصرار على الشّرك والتّكذيب لرسالتك، والتهديد بأنَّهم أصحاب القوة والمال، واستعن بالله عليهم، وتوكّل عليه، فإنَّ العزّة، أي : الغلبة والقوة والقهر لله تعالى جميعًا، جميعها له، فهو مصدرها ومانحها لمن يشاء من عباده، كما جاء في آية أخرى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون: ٨]))[1].

٣. ترسيخ قضية الألوهية والربوبية :

من دلالات الاسم (يونس) الظهور؛ فقد عرضت السورة قضية الألوهية والربوبية مدعمةً بالحقائق الكونية الظاهرة الواضحة، في أسلوبٍ يخاطبُ الفطرةَ التي تتجاوب مع

(١). التفسير الوسيط : ٢ / ٩٨٨ .

خالقها، وما بثَّه في هذا الكون الفسيح المترامي الأطراف ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [يونس: ٣]، نلحظ في هذه الآية دلائل استحقاق الله للألوهية والعبودية، فهي تطرق القلب والعقل والسمع والبصر بلطفٍ ولينٍ، فتدرك هذه الحواس عظمةَ هذا الإله في ملكوته الذي يستحق العبادة ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [يونس: ٣]، ثم يعدد السياق مظاهر قدرة الله الظاهرة، وبديع صنعه، في جعل الشمس ضياءً والقمر نورًا، وأثرهما في الحساب والمواقيت، وفي تعاقب الليل والنهار؛ ليلامس شغاف القلوب ويوقظ العقول ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [يونس: ٥ – ٦]، يقول سيد قطب : ((وكلتاهما ظاهرتان مشهودتان تذهب ألفة المشاهدة بجدة وقعهما في الحس، إلا في اللحظات التي تستيقظ فيها النفس، وينتفض فيها الوجدان للمطالع والمغارب، فيقف في الشروق وفي الغروب وقفة الإنسان الجديد في هذا الكون، يتطلع إلى كل ظاهرة جديدة فيه بعين مفتوحة وحس مستجيب))[1].

٤. بعث الأمل في الرسول محمَّد ﷺ بإيمان قومه :

من دلالات الاسم (يونس) الأنس والظهور؛ فإن قوم يونس عليه السلام حينما أبصروا أمارات العذاب وظهرت بوادر الهلاك، سارعوا إلى الإيمان بالله والتوبة والحوبة ممّا هم عليه من العصيان، فكشف الله عنهم العذاب المخزي[2]، ولا شكَّ أن الإيمان كان أنيسَهم في تلك الفترة المحدقة بهم كإيناس الصديق بصديقه وقت الضيق، وفي الوقت نفسه نلحظ في القصة تسلية للرسول محمَّد ﷺ بأن الأمل موجود في قومك وأمتك بأن يؤمنوا ويذعنوا لله، ويضيف

---

(١). في ظلال القرآن : ٣ / ١٧٦٥ – ١٧٦٦ .

(٢). التحرير والتنوير : ١١ / ٢٩٠ .

الشيخ محمَّد سيد الطنطاوي جانبًا آخرَ من جوانب التسلية والإيناس، فيقول : ((وفي الآية الكريمة أيضًا تسلية الرسول ﷺ عمّا أصابه من حزن بسبب إعراض قومه عن دعوته))[1].

٥. تسلية الرسول ﷺ من خلال ذكر قصص بعض الأنبياء :

من دلالات الاسم (يونس) الأنس؛ فقد أوردت السورة عددًا من القصص لإيناس الرسول محمَّد ﷺ وتسليته، كقصة نوح وقصة موسى، لكيلا يحزن، فوعد الله بنصر أنبيائه وعباده المؤمنين على المكذبين المعاندين، سنةٌ ماضيةٌ على وفق إرادته ﷻ لا على رغبة البشر واستعجالهم، فهي، وإن تأخرت، لا تتخلف، كما أنَّ العاقبة والاستخلاف للمؤمنين[2].

وهذه التسلية والتسرية واضحة في التعقيب على كلِّ قصة فُصِّلَ بعضُ أحداثها:

أ. **التعقيب الأول** : ورد على قصة نوح عليه السلام يقول ﷻ : ﴿ **فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾** ﴾ [يونس: ٧٣]، فالمتأمل في هذه الآية يلحظ تقديم نجاة نوح ومن آمن معه واستخلافهم على هلاك المنذرين المكذبين وغرقهم، وذلك راجع إلى سببين، وضحهما محمَّد رشيد رضا بقوله ((:

- أَوَّلُهُمَا تَقْدِيمُ مِصْدَاقِ الْوَعْدِ لِتَسْلِيَةِ النَّبِيِّ – ﷺ – وَتَسْرِيَةِ حُزْنِهِ عَلَى قَوْمِهِ وَمِنْهُمْ.
- ثَانِيهِمَا كَوْنُهُ هُوَ الْأَظْهَرَ فِي الْحُجَّةِ عَلَى أَنَّهُمَا (أَيِ : الْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ) مِنَ اللهِ تَعَالَى الْقَادِرِ عَلَى إِيقَاعِهِمَا، عَلَى خِلَافِ مَا يَعْتَقِدُ الْمُشْرِكُونَ الْمُكَذِّبُونَ الْمَغْرُورُونَ بِكَثْرَتِهِمْ وَقِلَّةِ أَتْبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ، وَخِلَافُ الْأَصْلِ الْمَعْهُودِ فِي الْمَصَائِبِ الْعَامَّةِ فِي الْعَادَةِ وَهُوَ أَنَّهَا تُصِيبُ الصَّالِحَ وَالطَّالِحَ عَلَى سَوَاءٍ، فَلَا تَمْيِيزَ فِيهَا وَلَا اسْتِثْنَاءَ، وَلَكِنَّهُ هُوَ الَّذِي جَرَتْ بِهِ سُنَّةُ اللهِ تَعَالَى فِي مُكَذِّبِي الرُّسُلِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ فَكَانَ آيَةً لَهُمْ، فَلَوْلَا أَنَّ الْأَمْرَ بِيَدِ اللهِ عَلَى وَفْقِ وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ لَمَا هَلَكَ الْأُلُوفُ الْكَثِيرُونَ، وَنَجَا أَفْرَادٌ قَلِيلُونَ لَهُمْ صِفَةٌ خَاصَّةٌ أَخْرَجَهُمْ مِنْهُمْ تَصْدِيقًا لِخَبَرِ رَسُولِهِمْ))[3].

---

(١). التفسير الوسيط للقرآن الكريم : ٧ / ١٣٥ – ١٣٦ .

(٢). ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٨١٢ .

(٣). تفسير المنار : ١١ / ٣٩١ .

ب. **التعقيب الثاني** : ورد على خاتمة قصة موسى ونوح عليهما السلام يقول ﷻ :

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [يونس: ٩٤ – ٩٥]، ويأتي هذا التعقيب مُتَّسِقًا مع سياق القصص السابقة التي نَقَلت لنا صورةً واضحةً عمّا كان عليه ديدن المعاندين من تكذيبهم رسلهم، وتشكيكهم في أنَّ دعوة أنبيائهم محضُ افتراء، وهذا الأمر نفسُه حدث في مكة مع الرسول ﷺ، بعد حادث الإسراء والمعراج، فقد انتكسَ بعض المسلمين عن دين الله، وارتدوا لعدم تصديقهم هذه الحادثة، إلى جانب ضغوطاتِ معسكر الكفر على الرسول وأصحابه، كلُّ ذلك أثَّرَ فيه ﷺ وأحزنه، فكان أحوجَ ما يكون إلى التسلية والتسرية.

يأتي هذا التعقيب أيضًا على إثر بيان ما آل إليه بنو إسرائيل بعد غرق فرعون وجنوده، ولا شكَّ أنهم يعرفون التوراة، وما فيه من قصص كقصة نوح مع قومه، وقصة موسى مع فرعون، يأتي محملًا بالأمر إلى الرسول ﷺ بسؤال علماء أهل الكتاب الذين يقرؤون الكتاب، إن كان في شكٍّ ممّا جاء في القرآن الكريم من قصة نوح، وقصة موسى وغيرهما، وهذا السؤال على سبيل الفرض والتقدير، فهو مُوجَّه إلى أولئك الذين شكَّكوا في مصداقية الرسول ودعوته حتى ارتدّوا عن دينه، والدليل على أن هذا التوجيه ليس مقصودًا به الرسول، ما يُروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : (لا أشكُّ ولا أسألُ)[1]، وهنا تأتي التسلية والتسرية عن الرسول ﷺ في شهادة مؤكدةٍ بالقسم، أن رسالتك ودعوتك لا شكَّ فيها، بل هي الحق من ربك ﴿ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ [يونس: ٩٤]، ثم يُعَرِّضُ بالشاكين المكذبين بالنهي المؤكد ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [يونس: ٩٤ – ٩٥]، فهؤلاء هم الذين خسروا أنفسهم في الدنيا والآخرة بحرمانها من الإيمان[2].

---

(١). المصنف : ٦ / ١٢٥، رقم الحديث (١٠٢١١) .

(٢). ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٨١٩ – ١٨٢٠، وتفسير المنار : ١١ / ٤٠٤ – ٤٠٥، والتفسير الوسيط : ٢ / ١٠٠٧ – ١٠٠٨ .

ج. **التعقيب الثالث** : ورد على قصة يونس، يقول الله ﷻ : ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩]، في هذه الآية تسلية للرسول ﷺ بأن لا تُضَيِّق على نفسك؛ فأنت لا تستطيع إكراه الناس للدخول في الإسلام، فهذا أمره إلى الله، ما عليك إلا البلاغ، يقول الدكتور عبدالكريم الخطيب : ((وفى هذا عزاء للنبي، وتسرية عنه، مما يعتمل في نفسه من هموم على أهل هذه القرية التي يأبى عليه أهلها، وهم أهله وعشيرته، أن يستجيبوا له، وأن يأخذوا طريق النجاة الذي يدعوهم إليه))[1].

ونَخْلُصُ من كلِّ ما سبق إلى أنَّ اسم السورة (يونس) جلّى مقصودَ السورة الذي يتمحور حول الوحي وقضاياه؛ كإثبات الألوهية والربوبية لله، وقصّ القصص التي جاء بها الوحي، والرد على شبهات المكذبين .

---

(١). التفسير القرآني للقرآن : ٦ / ١٠٨٥ .

❖ **التناسب بين فاتحة السورة وخاتمتها :**

يُعَدُّ التناسب بين فاتحة السورة وخاتمتها بمثابة السُّورِ الذي يطوق السورة من كلِّ جانب، والمحيطِ الذي تتناغم معه كلُّ الموضوعات داخلَ السورة، في وحدة موضوعية قلَّ نظيرُها، وفي ترابط وتلاحم تتجاوب معه الفاتحة والخاتمة اللتان سُبِكَتا أحسن سَبْكٍ، وصِيغَتا أروع صياغةٍ، فاستهويتا الألبابَ، وخفّتا على الأسماع والقلوب، يقول الدكتور محمَّد عبدالله دراز : ((ولقد وضح لنا بما أثار دهشتنا أنَّ هناك تخطيطًا حقيقيًّا واضحًا ومحددًا يتكون من ديباجة وموضوع وخاتمة، فتوضح الآيات الافتتاحية الأولى من السورة الموضوع الذي ستعالجه في خطوطه الرئيسية، ثم يتبع ذلك التدرج في عرض الموضوع بنظام لا يتداخل فيه جزء آخر، وإنما يحتلُّ كلُّ جزء المكانَ المناسب له في جملة السورة، وأخيرًا تأتي الخاتمة التي تقابل الديباجة))[1].

وببيان أوجه تناسب المفتتح والمختتم يتجلى مقصود السورة، كما يبينه الاسم أجمل تبيان بالنظر إلى ما جاء في السورة من موضوعات، يقول الدكتور مصطفى مسلم : ((وقد يكون النَّظر في فاتحة السورة وخاتمتها وإبراز القضايا المشتركة بينهما دليلًا على الهدف الأساسيِّ في السورة، فكثير من السور القرآنية يُرَدُّ فيها العَجُز على الصدر؛ لترسيخ مفاهيم معينة أو التذكير بقضية جاءت السورة لبيانها))[2].

ومقصود سورة يونس الذي أكَّده اسمُها (يونس)، كما ذكرت سابقا، هو إثبات الوحي وقضاياه، وهذا ما ستثبته فاتحة السورة وخاتمتها أيضًا من خلال الاستعراض القادم.

ومن فوائد معرفة تناسب فاتحة السورة مع خاتمتها، هو أن السورة قد تطول؛ بسبب اتِّساع مساحاتها بين موضوعات متعددة وقصص ومقاطع متنوعة، ممّا يجعل القارئ ينسى ما افتتحت به السورة، فتكون الخاتمة مُذكِّرةً بما استُهلت به فاتحة السورة في تطابق فريد مقصود، ممّا يزيد النَّص القرآنيَّ تماسكًا، يقول أبو حيان : ((وَقَدْ تَتَبَّعْتُ أَوَائِلَ السُّوَرِ

---

(١). مدخل إلى القرآن الكريم : ١١٩ .

(٢). مباحث في التفسير الموضوعي : ٤٥ .

الْمُطَوَّلَـةِ فَوَجَـدْتُهَا يُنَاسِـبُهَا أَوَاخِرُهَـا، بِحَيْـثُ لَا يَكَـادُ يَنْخَـرِمُ مِنْهَـا شَـيْءٌ، وَذَلِـكَ مِـنْ أَبْـدَعِ الْفَصَاحَةِ، حَيْثُ يَتَلَاقَى آخِرُ الْكَلَامِ الْمُفْرِطُ فِي الطُّولِ بِأَوَّلِهِ))[1].

وسأستعرض جوانب التناسب بين فاتحة سورة يونس وخاتمتها في النقاط الآتية :

١. افتُتحت سورة يونس بتعجب المشركين من إنزال الوحي على الرسول محمَّد ﷺ، حتى قالوا : إنَّه ساحرٌ، بهدف التَّشكيك وإثارة الشُّبَهِ والبلبلةِ في نفوس النّاس حتى لا يأبهوا بدعوة نبيهم ﷺ، ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾ [يونس: ٢]، فيأتي الختام بالأمر الجازم داعيًا الرسول بأنْ يصدع بهذا الوحي، ويتمسك به، ويتحلى بالصبر[2]، غير مبالٍ بتعجبهم وبما يقولونه، فإن الله سينصره عليهم، ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [يونس: ١٠٩]، ((فَفِي الْإِخْبَارِ بِأَنَّ اللَّهَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ إِيمَاءٌ بِأَنَّ اللَّهَ نَاصِرٌ رَسُولَهُ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَى الَّذِينَ كَذَّبُوا وَعَانَدُوا، وَهَذَا كَلَامٌ جَامِعٌ فِيهِ بَرَاعَةُ الْمَقْطَعِ))[3].

ولسيد قطب كلام جامع لهاتين الآيتين، مبينًا القضية الأساس التي ربطت بين الفاتحة والخاتمة، ما نصُّه : ((والترابط في سياق السورة يوحِّد بين مطلعها وختامها، فيجيء في المطلع قوله ﷻ : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾ [يونس: ٢] .. ويجيء في الختام : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [يونس: ١٠٩] .. فالحديث عن قضية الوحي هو المطلع وهو الختام، كما أنه هو الموضوع المتَّصل الملتحم بين المطلع والختام))[4].

---

(١). البحر المحيط : ٢ / ٣٧٨ .

(٢). ينظر : التفسير الوسيط : ٢ / ١٠١٨ .

(٣). التحرير والتنوير : ١١ / ٣١٠ .

(٤). في ظلال القرآن : ٣ / ١٧٥٢ .

٢. ومن جميل التناسب في هذه السورة، أن الخاتمة فيها أمر للرسول ﷺ باتِّباع الوحي، ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ١٠٩ ﴾ [يونس: ١٠٩]، وسبق هذا الأمرَ تنفيذُ الرسول له في فاتحة السورة، ﴿ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥ ﴾ [يونس: ١٥]، وكأنَّ هذا الأمر ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ ﴾ توكيد لما كان عليه الرسول ﷺ من الالتزام بهذا الوحي المقدس.

٣. بدأتْ سورة يونس بوصف الكتاب بـ ﴿ ٱلۡحَكِيمِ ﴾، وهذه الصفة على وزن (فَعيل) بمعنى : (فاعل)، وعليه فالحكيم بمعنى الحاكم، الذي يحكم ويهيمن على الكتب ببيان صحيحها من محرَّفِها[١]، وقد تكون هذه الصفة ﴿ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ بمعنى : ذي الحكمة، على أساس اشتمال الكتاب على الحكمة[٢]، وكلا التفسيرين يتناسب والصفةَ التي وصف بها الله ﷻ في ختام السورة ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ١٠٩ ﴾ [يونس: ١٠٩]، يقول وهبة الزحيلي : ((وهو خير الحاكمين، أي : أعدل الحكام وأحكمهم، يقضي بالعدل التَّامِّ والحكمة الصحيحة، والواقع الحقيقي))[٣].

٤. تناولت فاتحة يونس الأمر الإلهي للرسول ﷺ بإنذار الناس وتخويفهم من عذاب الله، وتبشير المؤمنين بالمنزلة الرفيعة في جنات النعيم، ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ [يونس: ٢]، ثم تأتي الخاتمة ؛ لتبين للرسول الأكرم كيف ينفذ هذا الإنذار، ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ١٠٨ ﴾ [يونس: ١٠٨][٤] .

---

(١). ينظر: التحرير والتنوير : ١١ / ٨٢، والبحر المحيط : ٥ / ١٢٦ .

(٢). ينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ / ٤ .

(٣). التفسير الوسيط :٢ / ١٠١٨ .

(٤). التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم : ٢٠ – ٢١ .

٥. عرضت خاتمة يونس أنَّ الضرَّ إنْ حلَّ بالإنسان فليس لأحد القدرة على كشفه إلا الله، ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ [يونس: ١٠٧]، فهذه الآية وردت في مَعرِض الحديث عن نفي النفع والضر عن الأصنام، والنعي على أولئك المشركين الذين يسبحون بحمد هذه الأصنام ويعبدونها، ولا يعبدون الله الذي خلقها، وهي منسجمة ومناسبة مع قوله ﷻ في فاتحة السورة نفسها : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [يونس: ١٢]؛ إذ إنَّ هذه الآية تبين كيف يتعامل هذا الإنسان مع الضرّ حينما يحدق به، ولا يجد منه مفرًا، فإنه يُقبل على ربِّه إقبال الضعيف، فيُلحُّ في الدعاء إليه في كلِّ حال يكون عليه، فتارةً يدعوه مضطجعًا لجنبه، وتارةً يدعوه قاعدًا، وتارة أخرى يدعوه قائمًا، ما دام الضرُّ جاثمًا عليه يتهدده، والنجاةُ بعيدة المنال، وإذا بهذا الإنسان إذا ما كُشِفَ عنه ضرُّه وانقشع خطره، مرَّ في شؤون حياته غافلًا سادرًا غيرَ آبهٍ بربه، وكأن لم يكن ثمة شيءٌ قد ألمَّ به، يقول محمَّد رشيد رضا : ((هَاتَانِ الْآيَتَانِ[1] فِي بَيَانِ شَأْنٍ مِنْ شُؤُونِ الْبَشَرِ وَغَرَائِزِهِمْ فِيمَا يَعْرِضُ لَهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَنَفْعٍ وَضُرٍّ، وَشُعُورِهِمْ فِيهِ بِالْحَاجَةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَاللُّجُوءِ إِلَى دُعَائِهِ لِأَنْفُسِهِمْ وَعَلَيْهَا، وَاسْتِعْجَالِهِمُ الْأُمُورَ قَبْلَ أَوَانِهَا، وَهُوَ تَعْرِيضٌ بِالْمُشْرِكِينَ وَحُجَّةٌ عَلَى مَا يَأْتُونَ مِنْ شِرْكٍ، وَمَا يُنْكِرُونَ مِنْ أَمْرِ الْبَعْثِ))[2]، وممّا يلحظ في هذه النقطة والنقطة الرابعة أنَّ الخاتمة كأنها ملخص لما ورد في فاتحة السورة.

٦. ورد في خاتمة السورة الأمر بالنَّظر إلى السموات والأرض ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس: ١٠١]، فإنَّ هذا النظر والتَّأمل في بدائع صنع الله في السموات والأرض يقود إلى الإيمان بالله، وهذا يتناسب مع الآية في فاتحة السورة، التي جاءت في مَعرِض التدليل على استحقاق الله للعبودية والألوهية، ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ﴾ [يونس: ٣]، ثم يذكر في آخر الآية ما يقود إليه التأمل والنَّظر من

---

(١). يعني الآيتين : (١١، ١٢) .

(٢). تفسير المنار : ١١ / ٢٦٦ – ٢٦٧ .

استنتاج : ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٣]، يقول الزمخشريُّ : ((هو ربكم، وهو الذي يستحق منكم العبادة فَاعْبُدُوهُ وحده ولا تشركوا به بعض خلقه من ملك أو إنسان، فضلًا عن جماد لا يضر ولا ينفع، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ : فإنَّ أدنى التَّفكُر والنظر ينبهكم على الخطأ فيما أنتم عليه))[1].

٧. ذكر الله في فاتحة السورة وعيده وتهديده للمشركين بتعذيبهم كما عذَّب من قبلهم من الأقوام الغابرة حين كفروا وعصوا، ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [يونس: ١٣]، ثم يأتي التذييل في هذه الآية : ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [يونس: ١٣] ليستكمل ذلك التهديد، وليستنهضهم من غيهم آخذين العبرة ممّا حلَّ بالقرون الماضية، ولكن هؤلاء لا يتَّعظون ولا يعتبرون، ولا يسارعون إلى الإيمان والطاعة، وكأنَّهم بذلك ينتظرون ذلك العذاب، ثم تتجلى المناسبة مع خاتمة السورة في قوله ﷻ : ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [يونس: ١٠٢] .

من خلال هذا العرض يتبين لنا أهمية التناسب بين فاتحة سورة يونس وخاتمتها، الذي طوق السورة بالقضية الأساسية، وحقق مقصودها، وهو (الوحي وقضاياه)، ثم كانت ملامح هذا التناسب تتفاعل تفاعلًا عجيبًا مع هذه القضية الأمّ، فتارة بالتوكيد، وتارة بالتوضيح، وتارة أخرى بالاستكمال.

---

(١). الكشاف : ٣ / ١١٤ – ١١٥ .

❖ **التناسب بين الآيات :**

التناسب بين الآيات صورة من صور التناسب داخل النظام القرآني، ففيه تتعانق الآيات، وتلتئم فيما بينها مكونة وحدة نصية متماسكة، المعاني فيها منتظمة، والمباني مُتَّسِقة، في شكل يكون فيه النَّص القرآنيُّ آخذاً بعضُه بحُجَز بعض، يقول ابن العربي : ((ارتباط آي القرآن بعضها ببعض، حتى تكون كأنها كلمة واحدة، مُتَّسقة المعاني، منتظمة المباني، علم عظيم))[1]، وأصدق وصف لهذا النظام القرآنيِّ المُحْكَمِ آياتُه هو قوله ﷻ : ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ ﴾ [هود: ١] .

ومن روائع النَّظْم القرآنيِّ أنَّ كُلَّ تعبير فيه وُضع وضعًا فنيًّا مقصودًا[2]، فلا تندُّ فيه الآياتُ عن أخواتها، ولا تشذُّ عن أماكنها، بل تكون في تركيب فريد، وترتيب جميل، وتآخ عجيب، يشدُّ بعضُها بعضًا وشائجُ وصلاتٌ من المعاني، وهذا صورة من صور الإعجاز القرآنيِّ، يقول البقاعيُّ في ذلك : ((وذلك لأنَّ في كُلِّ آية معنى تنتظم به بما قبلها ومعنى تتهيأ به للانتظام بما بعدها؛ وبذلك كان انتظام الآي داخلًا في معنى الإعجاز الذي لا يأتي الخلق بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً))[3].

وترتيب الآيات داخل هذا النظام القرآني توقيفي[4]؛ فلو لم يكن تسلسل الآيات وترتيبها على ما عليه الآن من الإحكام والضبط، لنزل القرآن عن الإعجاز درجات إلى مصافِّ الكتب التي طالتها يدُ التحريف والتبديل، يقول ابن عاشور : ((فَلِذَلِكَ كَانَ تَرْتِيبُ آيَاتِ السُّورَةِ الْوَاحِدَةِ عَلَى مَا بَلَغَتْنَا عَلَيْهِ مُتَعَيِّنًا بِحَيْثُ لَوْ غُيِّرَ عَنْهُ إِلَى تَرْتِيبٍ آخر لنزل عَن

---

(١). البرهان في علوم القرآن : ١ / ٣٦ .

(٢). التعبير القرآني : ١٠ .

(٣). نظم الدرر : ١ / ٢٣٤ – ٢٣٥ .

(٤). يقول ابن عاشور : ((أَمَّا تَرْتِيبُ الْآيِ بَعْضِهَا عَقِبَ بَعْضٍ فَهُوَ بِتَوْقِيفٍ مِنَ النَّبِي ﷺ حَسَبَ نُزُولِ الْوَحْيِ)) التحرير والتنوير : ١ / ٧٩ .

حَدِّ الْإِعْجَازِ الَّذِي امْتَازَ بِهِ))[1]، وأفضل منه ﷻ : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء: ٨٢] .

وسأحاول أن أستعرض هذا التناسب على وفق المحاور الآتية[2] :

- التناسب بين مقاطع الآيات.
- تناسب الآية مع ما قبلها .
- تناسب الآية الواحدة من حيث صدرها وخاتمتها .

التناسب بين مقاطع الآيات :

يهدف هذا النوع من التناسب إلى دراسة توزع آيات السورة في مقاطع متعانقة بعضها ببعض موضوعيًّا ودلاليًّا، بما يتناسب مع مقصود السورة ووحدتها، وفي هذا المحور سأستعرض مقاطع السورة مقطعًا مقطعًا على النحو الآتي .

تنقسم سورة يونس إلى خمسة مقاطع، وهي على النحو الآتي :

المقطع الأول : (التمهيد) من الآية (١) إلى الآية (٢).

هذا المقطع التمهيديُّ هو المنطلق الأساسيُّ الذي حدد مسار سورة يونس، واصْطَبغت به مقاطع السورة؛ لتُكَوِّنَ لُحْمةً موضوعيَّة واحدةً، تتمحور حول (الوحي)، وهذا يُعَدُّ من براعة الاستهلال[3] الذي يتميز بها القرآن الكريم في سوره.

افتتحت السورة بالأحرف المقطعة التي تمثل صورة من صور الإعجاز، ثم تلا ذلك الإشارةُ إلى المكانة السامقة للقرآن الكريم الحكيم، باستعمال أسلوب اسم الإشارة للبعيد كعادة النظام القرآنيِّ حينما يستفتح السور بالأحرف المقطعة، ثم يأتي الحديث عن القضية المحورية في السورة، وهي قضية الوحي، وإنكار كفار مكة نبوة الرسول ﷺ واتِّهامه بأنه

---

(١). المصدر نفسه : ١ / ٧٩ .

(٢). أفدت في هذا التقسيم من دراسة سابقة . ينظر : سورة النمل دراسة لغوية في ضوء علم المناسبة .

(٣). ينظر : الأساس في التفسير : ٥ / ٢٤١٦ .

ساحر، وهذا يقدح بدوره في القرآن الكريم الذي هو من الوحي، كذلك بينت الآيات وظيفة الرسول القائمة على الإنذار والتبشير.[١]

وقد أورد السيوطيُّ سبب نزول الآية (٢) : ((قوله تعالى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ [يونس: ٢]، لما بعث الله محمَّدًا رسولًا أنكرت العرب ذلك أو من أنكر ذلك منهم فقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشرًا فأنزل الله ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ الآية))[٢].

المقطع الثاني : (تفنيد إنكار كفار مكة الوحيَ، وإثبات الدلائل على وحدانية الله)، من الآية (٣) إلى الآية (٥٦)

وهنا نلحظ مدى التناسب بين هذا المقطع والتمهيد السابق، فقد تمَّ الربط بينهما بأسلوب الالتفات من الغائب إلى الخطاب ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [يونس: ٣][٣]، وفي هذا تنبيه على أهمية قضية الوحي الذي هو قَوام هذا الدين وأساسه، يقول محمَّد رشيد رضا : ((والخطاب فيها للناس الذين عجبوا أن يوحى إلى رجل منهم ما فيه هدايتهم بأسلوب الالتفات المنبه للذهن))[٤] .

ابتدأ هذا المقطع بالتأكيد على استحقاق الله الربوبية والعبودية لخلقه السموات والأرض وتدبيره أمر الخلق، في إشارة إلى أن الذي يدبر أمر السموات والأرض، يدبر أيضًا أمر البشر بإرساله الرسل إليهم، وإنزاله الوحي عليهم[٥] ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [يونس: ٣] .

وهنا يتجلى انسجام هذا المقطع بالمقطع السابق في أنه يأتي ردًّا على مزاعم الكفار في قضية الوحي، فهذه الآية الكريمة نفسها تناقش هذه المزاعم بما يعتقدون هم أنفسهم؛ فقد

---

(١). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ١٢٦ .

(٢). لباب النقول في أسباب النزول : ١٤٧ .

(٣). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ٨٧ .

(٤). تفسير المنار : ١١ / ٢٥٤ .

(٥). ينظر : الأساس في التفسير : ٥ / ٢٤٢٤ .

كانوا يعتقدون أن أصنامهم ومعبوداتهم من الملائكة والبشر تقربهم إلى الله وتشفع لهم عنده، ثم في الوقت نفسه يتعجبون عندما يُوْحِي اللهُ إلى عبدٍ من عباده برسالته، وفي هذا يقول محمَّد رشيد رضا : ((إِنَّكُمْ إِذَا كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِأَنَّ لِلَّهِ شُفَعَاءَ مِنْ أَوْلِيَائِهِ وَعِبَادِهِ الْمُقَرَّبِينَ يَشْفَعُونَ لَكُمْ عِنْدَهُ بِمَا يُقَرِّبُكُمْ إِلَيْهِ زُلْفَى وَيَدْفَعُ عَنْكُمُ الضُّرَّ وَيَجْلِبُ لَكُمُ النَّفْعَ، وَهُوَ قَوْلٌ مِنْكُمْ عَلَى اللهِ تَعَالَى بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَمَا لَكُمْ تُنْكِرُونَ وَتَعْجَبُونَ أَنْ يُوحِيَ تَعَالَى إِلَى مَنْ يَشَاءُ، وَيَصْطَفِيَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْعِبَادِ مَنْ يُعَلِّمُكُمْ مِنَ الْعِلْمِ مَا يَهْدِيكُمْ إِلَى الْعَمَلِ الْمُوَصِّلِ إِلَى كُلِّ مَا تَطْلُبُونَهُ مِنْ هَؤُلَاءِ الشُّفَعَاءِ بِاسْتِحْقَاقٍ بِدُونِ عَمَلٍ مِنْكُمْ وَلَا اسْتِحْقَاقٍ لِمَا تَطْلُبُونَ مِنْهُمْ؟))[1].

إلى جانب الردِّ على طلباتهم الغريبة العجيبة المشككة المستهزئة، مثل طلبهم من الرسول ﷺ الإتيان بقرآن غير هذا الذي جاءهم به أو تبديله، بأن هذه المسألة فوق قدرته ﷺ، حتى تلاوته عليهم وإعلامهم به ليست بيده، بل بقدرة الله، ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس: ١٥ - ١٦] .

فضلًا عن أنَّ هذا الجحود والنكران طارئٌ وناشئٌ، بعدما كان الناس أمة واحدة حنفاء مسلمين على الفطرة[2] ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يونس: ١٩] .

ويُنوِّع السياقُ في أساليب رده، فيتبع في هذه المرة أسلوب الحوار القائم على السؤال والجواب لإثبات وحدانية الله والبعث من خلال آثار قدرته ونعمه : (نعمة الرزق والحواس، والقدرة على الحياة والموت والإيجاد والهداية التي لا يقدر عليها الشركاء والأصنام والمعبودات)، ثم يختم الحوار بالنتيجة التي خلص إليها، وهي : (إثبات الوحي والنبوة والقرآن) في قوله ﷻ : ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [يونس: ٣٧] .

---

(١). تفسير المنار : ١١ / ٢٥٥ .

(٢). ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٧٧٢ .

كذلك أشار هذا المقطعُ إلى السبب الحقيقيّ وراء هذا النكران لقضية الوحي والتشكيك فيها؛ إذ مرجع ذلك إلى ركونهم إلى الدنيا الفانية، وجحود الآخرة[1]، قال ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ٧ ﴾ [يونس: ٧]، بالإضافة إلى فسادهم وظلمهم، قال ﷻ : ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤٠ ﴾ [يونس: ٤٠]، ويبين سعيد حوى ارتباط هذا السبب بمقصود السورة : ((سبب الريب والكفر بهذا القرآن الظلمُ والإفسادُ في الأرض، فمن كان ظالمًا ومن كان مفسدًا فهذا وحده الذي يرتاب في هذا القرآن ويشكُّ به ويكفر، أما القرآن فليس فيه ريب ولا شكٌّ، لأن الحجة قائمة فيه أنه من عندالله))[2].

ثم يتبع السياق أسلوب التنفير والتزهيد في هذه الحياة الزائلة[3]، وترغيبهم في الدار الحقيقية؛ دار السلام التي أعدت للمتمسكين بالوحي ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢٤ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٥ ﴾ [يونس: ٢٤ – ٢٥] .

وفي تناسب هذه الآيات مع مقصود السورة يقول سعيد حوى : ((وارتباطها بالمقطع من حيث إن المقطع يردُّ على المنكرين للوحي، فالله يحدثنا عن ذاته جل جلاله أنه يدعو إلى دار السلام، وهذا يقتضي أن يرسل رسلًا،وأن ينزل وحيًا، فكيف ينكر المنكرون الوحي وبعثة الرسل ؟))[4].

كما تطرق المقطعُ إلى مقالة الكفار بأن محمَّدًا افترى القرآن من لدنه، بنبرة مرتفعة في مخاطبة هؤلاء في تحدٍّ واضحٍ، بأن يأتوا بسورة مثله، مستعينين بمن شاءوا بحسب

---

(١). ينظر :الأساس في التفسير : ٥ / ٢٤٢٨ .

(٢). الأساس في التفسير : ٥ / ٢٤٦٢ .

(٣). ينظر : الأساس في التفسير : ٥ / ٢٤٤٣ .

(٤). الأساس في التفسير : ٥ / ٢٤٤٧ .

استطاعتهم ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس: ٣٨]، بل ينعى السياق على مسارعتهم إلى تكذيب القرآن دون تأمل وروية، ودراية بخصائصه، فيقول الله ﷻ : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [يونس: ٣٩] .

كذلك تناول هذا المقطع قضية التشكيك في العذاب الذي سيحيق بالمكذبين بالوحي والرسول ﷺ سواء أكان عذاب الدنيا أو الآخرة، فقد أخذ الكفارُ يتفننون في التكذيب به، فتارة بالاستعجال مستهزئين ومستبعدين وقوعه، وتارة بالسؤال عنه، كما توضح الآيات ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [يونس: ٤٨]، ﴿ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ﴾ [يونس: ٥٣]، فيأتي الجواب حاسمًا مؤكدًا بالقسم ﴿ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [يونس: ٥٣] .

ثم يختتم هذا المقطع الذي كان فيه التأكيد على صدق الرسول ﷺ والقرآن الكريم، وما تخلله من الوعيد وإثبات البعث ونزول العذاب بالمنكرين المكذبين، يختتم بملخص عن كلِّ ذلك في آيتين :

١. التأكيد والتنبيه على استحقاقه العبادة، من خلال انفراده بامتلاكه السموات والأرض، وبالتالي قدرته على تصريف شؤون الناس.
٢. التأكيد والتنبيه على إنفاذ وعده، مع بيان تجهيل منكريه.
٣. قدرته على الإحياء والإماتة، وعلى البعث والحساب.

وفي ذلك يقول ابن عاشور : ((تذييل تنهية للكلام المتعلق بصدق الرسول والقرآن وما جاء به من الوعيد وترقب يوم البعث ويوم نزول العذاب بالمشركين، وقد اشتمل هذا التذييل على مجمل تفصيل ذلك الغرض، وعلى تعليله بأن من هذه شؤونه لا يعجز عن تحقيق ما أخبر بوقوعه))[1].

(١). التحرير والتنوير : ١٩٨/١١.

المقطع الثالث : (مقاصد القرآن الكريم الإصلاحية، وضرورة الاهتداء به)، من الآية (٥٧) إلى الآية (٧٠).

ينسجم هذا المقطع مع المقطع الثاني الذي رمى إلى الردِّ على الشبهات الفكرية التي أثارها المشركون حول الوحي والقرآن الكريم والرسول ﷺ ليأتي هذا المقطع شارحًا حقيقة مقاصد القرآن الكريم الإصلاحية .

ابتدأ هذا المقطع بخطاب عام للناس، موضحًا ما اشتمل عليه القرآن الكريم من مقاصد وخصائص وسمات؛ فهو موعظة لإصلاح حياة الناس في أخلاقهم وأعمالهم لتكون خالصة لله، وشفاء لأمراضهم الباطنية من أدواء الشرك والكفر والمعاصي والحقد وحب الدنيا، وهداية لحياتهم العملية، ورحمة للمؤمنين فيما بينهم كإغاثة الملهوف، والتعاون على البِرّ والتقوى، ومنع الظلم[1] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾[يونس: ٥٧].

ثم يبين السياق أنَّ السعادة كل السعادة في تطبيق هذه المقاصد بدلًا من الركض وراء حطام الدنيا ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾ [يونس: ٥٨]، وهذا هو الذي فهمه الرعيل الأول الذي تشرب بنور القرآن وهديه، فـ ((عن عقبة بن الوليد عن صفوان بن عمرو : سمعت أيفع بن عبد اللّه الكلاعي يقول : لما قدم خراج العراق إلى عمر رضي اللّه عنه خرج عمر ومولى له ، فجعل عمر يُعدُّ الإبل فإذا هي أكثر من ذلك ، فجعل يقول : الحمد للّه تعالى، ويقول مولاه : هذا واللّه من فضل اللّه ورحمته ، فقال عمر: كذبت ليس هذا هو الذي يقول اللّه تعالى : ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾ [يونس: ٥٨]))[2]، وهنا يقدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه درسًا للأمة بأن الفضل والرحمة في اتباع مقاصد القرآن ومنهجه، وليس في المال والثراء والأرزاق المادية[3].

---

(١). ينظر : تفسير المنار : ١١/٣٣٨-٣٤١، والتحرير والتنوير : ١١ / ٢٠٠ .

(٢). نقلا عن : في ظلال القرآن : ٣/١٧٩٩ .

(٣). ينظر: في ظلال القرآن : ٣/١٨٠٠ .

ثم يشير السياق إلى جانب من اجتراء المكذبين في الجاهلية على مقاصد القرآن الكريم، وتجاوزهم الحدود على الوحي الذي ينظم الحياة العملية فيما يحل لهم ويَحْرُم عليهم، فإذا بهم يحلون ويحرمون كما يحلو لهم وحسبما تشتهيه أهواؤهم، ضاربين بتشريعات الله عرض الحائط، وهم بذلك يفترون على الله الكذب ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [يونس: ٥٩ – ٦٠] .

ومن خلال تصحيح مفهوم التحليل والتحريم بأن مرجعهما إلى الله، يرمي القرآن الكريم إلى أهداف إصلاحية كبرى، وهي أن نكيف كلَّ شيء في حياتنا لمقاصده، وأن نخضعها لموازينه ومقاييسه، حتى نسعد في الدارين، لا أن نتبع أهواءنا ونزواتنا، ونساير الركب المادي حيث اتجه وسار .

ومن بين مقاصد الوحي الإصلاحية التي تناولها هذا المقطع هي قضية اطلاع الله ﷻ على شؤون الناس وأعمالهم، بما في ذلك الاطلاع على حال الرسول معهم ﷺ في دعوته إياهم، وقراءة القرآن عليهم؛ لكي يحاسبوا أنفسهم على تقصيرهم في عبادته وذكره وشكره[1]، يقول ﷻ : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ [يونس: ٦١] .

ثم يؤكد السياق على تطمين الرسول ﷺ وتسليته بسبب حزنه على تكذيب الكفار له وعنادهم وأقوالهم بأن لهم العزة ، مبينًا له أن العزة كلها له ﷻ، لا أحد ينازعه فيها، كيف لا وهو مالك ما في السموات والأرض، وهو خالق الليل والنهار ، وجاعل الليل للاستراحة والسكن[2]، ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن

---

(١). ينظر : تفسير المنار : ٣٤٩/١١ ، والتفسير الوسيط : ٩٨٥/٢ .

(٢). ينظر : التفسير الوسيط : ٩٨٩/٢ .

يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [يونس: ٦٥ – ٦٧] .

ويختتم هذا المقطع بعرض نموذج من أقوالهم الفاسدة الكاسدة[١]، وتصوراتهم العقدية الخاطئة في ذات الله؛ فقد ادعوا زورًا بهتانًا بدون دليل أن لله ولدًا تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا ، ثم يأخذ السياق في تصحيح هذا التصور الخاطئ، ويفند مقولتهم وعقيدتهم الساذجة بأدلة كونية واضحة؛ أن من يملك ما في السموات والأرض ليس بحاجة إلى الولد، ثم يبين عاقبة افترائهم الكذب والتقول على الله في الدنيا والآخرة، ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [يونس: ٦٨ – ٧٠] .

المقطع الرابع : (قصص الأنبياء)، من الآية (٧١) إلى الآية (١٠٣).

هذا المقطع ينطوي على مشاهد من قصص الأنبياء التي تتناسبُ والمقطعَ السابقَ في التأكيد على خصيصة من خصائص القرآن الكريم، وهي خصيصة الموعظة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [يونس: ٥٧]؛ فقد وردت هذه القصص (قصة نوح، وقصة موسى وما بينهما من أنبياء عليهم السلام) بهدف وعظ[٢] المشركين الذين استنكفوا عن الإيمان برسالة سيدنا محمّد ﷺ، لكي ينظروا في تأريخ الأمم الماضية، ويأخذوا العبرة مما حل بها عندما ابتعدت عن منهج الله الذي فيه صلاح أمرها وفلاح شؤون حياتها، يقول ابن عاشور مبينا التناسب : ((انتقال من مقارعة المشركين بالحجج الساطعة على بطلان دينهم، وبالدلائل الواضحة على تفنيد أكاذيبهم وتكذيبهم وما تخلل ذلك من الموعظة والوعيد بالعذاب العاجل والآجل والإرهاب، إلى التعريض لهم بذكر ما حل بالأمم المماثلة أحوالها لأحوالهم، استقصاء لطرائق الحجاج على أصحاب اللجاج))[٣].

---

(١). ينظر : الأساس في التفسير : ٢٤٨٣/٥ .

(٢). ينظر : الأساس في التفسير : ٥ / ٢٤٩٤ .

(٣). التحرير والتنوير : ١١ / ٢٣٤ .

وهذا الهدف الوعظي واضح من التعقيبات الواردة في نهاية قصة نوح عليه السلام، قال ﷻ : ﴿ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٧٣ ﴾ [يونس: ٧٣]، يقول سيد قطب : ((لينظر من ينظر (عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ) المكذبين وليتعظ من يتعظ بعاقبة المؤمنين الناجين))[١].

وفي نهاية قصة موسى عليه السلام مع فرعون، يقول الله ﷻ : ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ٩٢ ﴾ [يونس: ٩٢] [٢]، يقول فخر الدين الرازي : ((فالأظهر أنه تعالى لما ذكر قصة موسى وفرعون، وذكر حال عاقبة فرعون وختم ذلك بهذا الكلام وخاطب به محمدا عليه الصلاة والسلام فيكون ذلك زاجرا لأمته عن الإعراض عن الدلائل، وباعثا لهم على التأمل فيها والاعتبار بها، فإن المقصود من ذكر هذه القصص حصول الاعتبار، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [يوسف: ١١١]))[٣].

وهذا الهدف أكَّده من قبلُ قولُه ﷻ في بداية السورة، ﴿ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٣ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٤ ﴾ [يونس: ١٣ – ١٤] .

- **المقطع المختتم : (التمسك بثوابت الوحي والدين رغم عواصف التشكيك) من الآية (١٠٤) إلى الآية (١٠٩).**

يأتي هذا المقطعُ المختتمُ ليلخص ثوابت الوحي في تناسب رائع وفريد مع مقاطع السورة السابقة التي تضمنت التصور الصحيح للعقيدة الإسلامية، وفي ذلك يقول محمّد رشيد رضا : ((هذه الآيات الأربع والآيتان اللتان بعدها ختم للسورة بالنداء العام، في الدعوة إلى عقيدة الإسلام، أجملت أمرا ونهيا وخبرا في خاتمتها))[٤]، وهو الذي أكده سيد قطب بقوله :

---

(١). في ظلال القرآن : ٣ / ١٨١٢ .

(٢). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٤٠٢ .

(٣). مفاتيح الغيب : ١٧ / ١٦٤ .

(٤). تفسير المنار : ١١ / ٤١١ .

((هذه القواعد الرئيسية للعقيدة التي دار حولها سياق السورة كله، وسيقت القصص لإيضاحها، وضربت الأمثال لبيانها... ها هي ذي كلها تلخص في هذه الخاتمة))[1]،

يبدأ هذا المقطع بخطاب الرسول ﷺ بأن يعلن للناس بكل وضوح تسفيهًا لتشكيك المشككين، بأنه صادع بإيمانه وتوحيده وعبادته لله رب العالمين، ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [يونس: ١٠٤]، يقول الفخر الرازي مبينًا تناسب هذه الآية بما قبلها : ((واعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل على أقصى الغايات وأبلغ النهايات، أمر رسوله بإظهار دينه وبإظهار المباينة عن المشركين، لكي تزول الشكوك والشبهات في أمره))[2].

ثم يتغير مجرى السياق من الخبر إلى الأمر بالاستقامة على الدين الحنيف الذي لا اعوجاج فيه، مخلصًا عبادته لله، مائلًا عن معتقدات المشركين وأعمالهم[3]. ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [يونس: ١٠٥]، يقول سيد قطب : ((وهنا يتحول السياق من الحكاية إلى الأمر المباشر، كأن الرسول ﷺ يتلقاه في مشهد حاضر للجميع، وهذا أقوى وأعمق تأثيرًا ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ [يونس: ١٠٥] متوجهًا إليه خالصًا له، موقوفًا عليه ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [يونس: ١٠٥] زيادة في توكيد معنى الاستقامة للدين))[4].

ثم يتحول السياق إلى النهي المباشر للتأكيد على إفراد الله النافعِ الضارِّ بالعبادة والدعاء والاستعانة والتقرب إليه في قضاء الحوائج ، بدلا من التعلق بمعبودات لا تنفع ولا تضر، وإن فعلت ودعوت غير الله كنت من طغامة المشركين الظالمين أنفسهم، فميزان الله لا يحابي، وعدله لا يلين[5]، ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ

---

(١). في ظلال القرآن : ٣ / ١٨٢٥ .

(٢). مفاتيح الغيب : ١٧ / ١٧٩ .

(٣). ينظر : روح المعاني : ١١ / ١٩٨ .

(٤). في ظلال القرآن : ٣ / ١٨٢٥ .

(٥). ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٨٢٥ .

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [يونس: ١٠٦ – ١٠٧]، يقول محمّد رشيد رضا عن تناسب الآية (١٠٧) بما قبلها : ((هذه الآية مؤكدة لما قبلها داحضة لشبهة الذين يدعون غير الله بأنهم طالما استفادوا من دعائهم والاستغاثة بهم فشفيت أمراضهم، وكبتت أعداؤهم، وكشف الضر عنهم، وأسدي الخير إليهم، يقول تعالى لكل مخاطب بهذه الدعوة إلى توحيد الإسلام، بكلام الله وتبليغ محمّد عليه أفضل الصلاة والسلام : ﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ [يونس: ١٠٧]))[١].

ثم تختتم السورة بالكلمة الجامعة، والمفاصلة الكاملة، بأن مهمة الرسول ﷺ تبيين الحق وتبليغه كما جاء من ربكم، فمن تقبل هديه ففائدة هديه تعود عليه بالنفع في الدنيا والأخرى، ومن ضلَّ وأعرض عنه، فوبال ضلاله يعود عليه[٢]، ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يونس: ١٠٨]، يقول ابن عاشور في تناسب هذه الآية لكل ما ورد في السورة : ((استئناف ابتدائيّ هو كذيل لما مضى في السورة كلها وحوصلة لما جرى من الاستدلال والمجادلة والتخويف والترغيب، ولذلك جاء ما في هذه الجملة كلامًا جامعًا وموادعة قاطعة)).

ثم يكون تكملة البلاغ الأخير بأمر الرسول ﷺ باتِّباع الوحي علمًا وعملًا وتعليمًا[٣]، والصبر على ما يلقاه من العنت والأذى حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين[٤]، وهنا يرتدُّ العجز على الصدر في التحام تامٍّ وقويٍّ بالمقطع الأول، موضحًا مقصود السورة الذي يتمحور حول إثبات الوحي وثوابته، ومؤكدًا في الوقت نفسه على مدى التماسك النصيّ داخل السورة بين كل مقطع ومقطع آخر مما جعل النَّصَّ يبدو وكأنه قطعة فنية بيانية منقطعة النظير في وحدتها الموضوعية، يقول سيد قطب : ((وهو الختام المناسب الذي

---

(١). تفسير المنار : ١١ / ٤١٣ .

(٢). ينظر : الأساس في التفسير : ٥ / ٢٥٢٠ .

(٣). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٤١٥ .

(٤). البحر المحيط : ٥ / ١٩٧ .

يلتقي مع مطلع السورة، ويتناسق مع محتوياتها بجملتها على طريقة القرآن في التصوير والتنسيق..))[1].

تناسب الآية مع ما قبلها :

يعدُّ تناسب الآية مع ما قبلها أساسًا مهمًّا في تماسك النَّصِّ القرآنيِّ، بحيث تبدو فيه الآي مترابطة بعضُها ببعض، والآيات مُتَّسِقة، وكأنها كلمة واحدة، لوجود رابط أو أكثر يربطها بعضها[2]، وقد يكون هذا الارتباط ظاهرًا أو خفيًّا، قال السيوطي : ((وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذًا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء، فنقول ذكر الآية بعد الأخرى إما أن يكون ظاهر الارتباط لتعلق الكلم بعضه ببعض وعدم تمامه بالأولى فواضح ... وإما ألَّا يظهرَ الارتباطُ بل يظهر أنَّ كلَّ جملة مستقلة عن الأخرى وأنَّها خلاف النوع المبدوء به))[3].

وهذا النوع من التناسب كثير في القرآن الكريم، اعتنى به المفسرون في تفاسيرهم، قال ابن عاشور : ((وقد اهتممت في تفسيري هذا ببيان وجوه الإعجاز ونكت البلاغة العربية وأساليب الاستعمال، واهتممت أيضا ببيان تناسب اتصال الآي بعضها ببعض، وهو منزع جليل))[4].

وسأضرب أمثلة على هذا النوع من التناسب مما لم أتوسع في بيان مناسبته عند الحديث عن التناسب بين مقاطع السورة الكريمة، وهي كالآتي :

١. نجد مناسبة بين الآيتين في قوله ﷻ : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يونس: ١٧ – ١٨]، فبعدما قررت الآية

---

(١). في ظلال القرآن : ٣ / ١٨٢٦ .

(٢). ينظر : البيان في الإعجاز والتناسب في القرآن الكريم : ٣٠٩ .

(٣). الإتقان في علوم القرآن : ٥ / ١٨٤٠ .

(٤). التحرير والتنوير : ١ / ٨ .

الأولى أنَّ أشدَّ أنواع الظلم والإجرام البشري شيئان أحدهما : الافتراء على الله كذبًا، والآخر: التكذيب بآيات الله [1]، قَفَّت عليه الآيةُ الثانيةُ بذكر نوع من أنواع الافتراء، وهو عبادة ما لا يضرُّ ولا ينفعُ من دون الله، يقول ابن عاشور موضحًا ما بينهما من التناسب : ((يجوز أن تكون جملة : ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨] إلخ عطفًا على جملة ﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ [يونس: ١٧] فإن عبادتهم ما لا يضرهم ولا ينفعهم من الافتراء))[2].

٢. وحينما أشار الله ﷻ إلى ما كان عليه الكفار في مكة المكرمة من الشرك وعبادة ما لا يملك لهم نفعًا ولا يدفع عنهم ضرًّا، مدعين زورًا وبهتانًا أن آلهتهم وأصنامهم شفعاء وسطاء لهم عند الله، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٨ ﴾ [يونس: ١٨]، جاءت الآية الثانية لتتعقب فساد مذهب هؤلاء المشركين الذي هو خلاف المذهب السائد بين العرب قديمًا في اتفاقهم على التوحيد الخالص لله ﷻ، ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٩ ﴾ [يونس: ١٩]، ولأجل أن يؤكد ذلك جيء بأسلوب القصر ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ للمبالغة على أنَّ هذه الحقيقة ضاربة في أعماق التأريخ[3]، يقول الألوسي في بيان التناسب بين الآيتين : ((ووجه ارتباط الآية بما قبلها أنها كالتأكيد لما أشار إليه من أن التوحيد هو الدين الحق حيث أفادت أنه ملة قديمة اجتمعت عليها الأمم قاطبة، وأن الشرك وفروعه جهالات ابتدعها الغواة خلافًا للجمهور وشقًا لعصا الجماعة، وقيل : وجه ذلك أنه سبحانه بين فيما قبل فساد القوم بعبادة

---

(١). تفسير المنار : ١١ / ٢٧٦ .

(٢). التحرير والتنوير : ١١ / ١٢٥ .

(٣). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ١٢٧ .

الأصنام وبين في هذه أن هذا المذهب ليس مذهبًا للعرب من أول الأمر بل كانوا على الدِّين الحقِّ الخالي عن عبادة الأصنام، وإنما حدثت فيهم عبادتها بتسويل الشياطين))[1].

٣. حينما يقف المشركون وشركاؤهم على أرض المحشر موقف الخزي والعار، يدور بينهم حوار حادٌّ، يتبادلون فيه التُّهم، فالشركاء يتبرؤون من عبادة المشركين لهم، ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [يونس: ٢٨]، حتى يُفضي بهم النزاعُ فيما بينهم إلى أن يؤكد الشركاء كلامهم بالقسم لنفي التهمة عنهم بأنّا لا ندري شيئًا عن عبادتكم لنا، ﴿ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [يونس: ٢٩]، وتمَّ الربط بين الآيتين بواسطة الفاء، وفي ذلك يقول ابن عاشور : ((وجملة : ﴿ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [يونس: ٢٩] مؤكدة بالقسم ليثبتوا البراءة مما ألصق بهم، وجواب القسم ﴿ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [يونس: ٢٩]، وليس قولهم: ﴿ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [يونس: ٢٩] قسمًا على كلامهم المتقدم لأن شأن القسم أن يكون في صدر الجملة، وعطفت جملة القسم بالفاء للدلالة على أن القسم متفرع على الكلام المتقدم؛ لأن إخبارهم بنفي أن يكونوا يعبدونهم خبر غريب مخالف لما هو مشاهد فناسب أن يفرع عليه ما يحققه ويبينه مع تأكيد ذلك بالقسم))[2].

٤. وحينما نأتي إلى قوله ﷻ : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس: ٣١] نجده متناسبًا مع الآية التي قبلها ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [يونس: ٣٠]، مركز التناسب بين الآيتين في ﴿ مَوْلَاهُمُ ﴾ [يونس: ٣٠]، فالمولى في المعجمات اللغويّة تأتي بمعني : ((الْمَوْلَى الْوَلِيُّ الَّذِي يَلِي عَلَيْكَ أَمرك)) و ((الرب والمالك والسيد والمنعم))[3] .

---

(١). روح المعاني : ٩٠/١١، وينظر : نظم الدرر : ٩ / ٩٢-٩٣، والتحرير والتنوير :١٢٨/١١ .

(٢). التحرير والتنوير : ١١ / ١٥٢ .

(٣). لسان العرب : ٦ / ٤٩٢١ – ٤٩٢٢ (ولي) .

ففي ساحة المحشر حيث الحساب والجزاء، الكلُّ يرد إلى ربِّه وسيده ومولاه الحقّ، وهكذا حال المشركين في ذلك الموقف العصيب الذي تتخلى فيه المعبودات والأصنام عن من عبدوها[1]، فلم يبق لهم إلا مولاهم الحق ﷻ، وحينئذ لا مفرَّ لهم من الإقرار له بالربوبية الخالصة له بعدما أنكروا ذلك في الدنيا بعبادتهم هذه المعبودات من دونه ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [يونس: ٣٠]، يقول فخر الدين الرازي : ((وردوا إلى الله أي : جعلوا ملجَئِين إلى الإقرار بإلهيته، بعد أن كانوا في الدنيا يعبدون غير الله تعالى، ولذلك قال : ﴿ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ ﴾ أعني أعرضوا عن المولى الباطل ورجعوا إلى المولى الحق))[2]، وفي هذا تعريض للمشركين حتى يربؤوا بأنفسهم أن يقفوا هذا الموقف يوم القيامة، لات ساعة مندم، تأتي الآية التي بعدها في غاية التناسب للاستدلال على استحقاق مولاهم العبودية والربوبية، من خلال الحوار معهم، ينتهي بالاعتراف بالله ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣١﴾ [يونس: ٣١]، يقول ابن عاشور : ((وهذه الجملة تتنزل منزلة الاستدلال لقوله: ﴿مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ ﴾ [يونس: ٣٠]، لأنها برهان على أنه المستحق للولاية، فاحتجَّ على ذلك بمواهب الرزق الذي به قوام الحياة، وبموهبة الحواس، وبنظام التناسل والتوالد الذي به بقاء الأنواع، وبتدبير نظام العالم وتقدير المقدرات، فهذه كلها مواهب من الله وهم كانوا يعلمون أن جميع ما ذكر لا يفعله إلا الله إذ لم يكونوا ينسبون إلى أصنامهم هذه الأمور، فلا جرم أن كان المختص بها هو مستحق الولاية والإلهية .

---

(١). بدليل الآيتين اللتين قبلها : ﴿ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ٢٨ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ٢٩﴾ [يونس: ٢٨ – ٢٩] .

(٢). مفاتيح الغيب : ١٧ : ٨٩ – ٩٠.

والاستفهام تقديريٌّ، وجاء الاستدلال بطريق الاستفهام والجواب لأن ذلك في صورة الحوار، فيكون الدليل الحاصل به أوقع في نفوس السامعين، ولذلك كان من طرق التعليم ممّا يراد رسوخه من القواعد العلمية أن يؤتى به في صورة السؤال والجواب))[1].

٥. بعدما أدار السياق حوارًا مع المشركين لإثبات قدرة الله على الإيجاد والخلق والإماتة والهداية، كما في قوله ﷻ : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يونس: ٣٤ – ٣٦]، انتقل بهم إلى نفي شبهة عن القرآن الكريم بأسلوب بليغ، مما كان مستشريًا في أوساطهم، أن محمدًا يفترى القرآن، وينسبه إلى الله ﷻ، ولا سيما أنهم كانوا يتعجبون من الإيحاء بالقرآن إلى الرسول ﷺ ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾ [يونس: ٢]، وبلاغة هذا الأسلوب تكمن في أن النفي في الآية متوجه إلى الشأن، وليس متوجهًا إلى المصدر المؤول ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ٣٧]، وبهذا يدلُّ على أنَّ هذا القرآن ما كان شأنه أن يفترى، وليس من شأنه أصلًا أن يفترى؛ لأنه قرآن معجز فوق قدرة البشر[2]، يقول الزمخشري في إيضاح معنى هذا التركيب : ((ومعنى ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ ﴾ : وما صحّ وما استقام، وكان محالًا أن يكون مثله في علو أمره وإعجازه مفترى))[3]، ثم تتسلسل الآية في بيان صفاته، من كونه مُصدِّقا كلَّ الكتب السماوية التي قبله في أصول العقيدة، والدعوة إلى الخير، ومفصلًا للكتاب الواحد الذي جاء به الرسل جميعا، لتأكيد ذلك الدفع والنفي البليغ لشبهة الافتراء عن القرآن الكريم، وأن الرسول عاجز كلَّ العجز عن فعل ذلك ﴿ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [يونس: ٣٧]، ثم تأتي الآية اللاحقة

---

(١). التحرير والتنوير : ١١ / ١٥٥ .

(٢). مفاتيح الغيب :١٧ / ٩٩ .

(٣). الكشاف : ٣ / ١٣٧ .

لتطرح سؤالًا استنكاريًا ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) ﴾ [يونس: ٣٨]؛ أيقولون افتراه بعد كلِّ هذه الدلائل على براءته ﷺ من الافتراء ؟، ليشمئزَ السامعُ وينفرَ القارئُ من مقالة المشركين المشككة في هذا الكتاب العزيز، وتسقط التهمة تمامًا عن الرسول ﷺ، يقول ابن عاشور: ((ومن بديع الأسلوب وبليغ الكلام أن قدم وصف القرآن بما يقتضي بعده عن الافتراء وبما فيه من أجل صفات الكتب، وبتشريف نسبة إلى الله تعالى ثم أعقب ذلك بالاستفهام عن دعوى المشركين افتراء ليتلقى السامع هذه الدعوى بمزيد الاشمئزاز والتعجب من حماقة أصحابها فلذلك جعلت دعواهم افتراءه في حيز الاستفهام الإنكاري التعجيبي))[١].

٦. وثمة بين قوله ﷻ : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) ﴾ [يونس: ٥٤ – ٥٥]، مناسبة واضحة، فالنفس الظالمة تحاول أن تفتدي نفسها بكلِّ ما في الأرض من خزائن نفيسة وممتلكات عظيمة ألّو كانت تملك ذلك عند معاينة العذاب، ولكن أنّى لها ذلك، فالله غنيٌّ عن فديتها؛ لأنَّه يملك كلَّ ما في السموات والأرض، قال فخر الدين الرازي : ((اعلم أن من الناس من قال إن تعلق هذه الآية بما قبلها هو أنه تعالى قال قبل هذه الآية : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ﴾ [يونس: ٥٤]، فلا جرم قال في هذه الآية ليس للظالم شيء يفتدى به فإن كل الأشياء ملك الله تعالى وملكه، واعلم أن هذا التوجيه حسن))[٢].

٧. ونلحظ في قوله ﷻ : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يونس: ٩٩] تناسبًا مع الآية ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) ﴾ [يونس: ١٠٠]، ويتمحور التناسب في أن الجملة ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ معطوفة على جملة ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ فالجملة المعطوفة عليها مصدرة بالاستفهام للدلالة على

---

(١). التحرير والتنوير : ١١ / ١٧٠ .

(٢). مفاتيح الغيب : ١٧ / ١١٨، وينظر : درة التنزيل : ٢ / ٧٤٣ – ٧٤٤، وفتح القدير : ٢ / ٦٣٥.

الإنكار على الرسول ﷺ ونهيه عن إكراه الناس على أن يكونوا مؤمنين، وذلك دليل حرصه على إيمانهم، أما الجملة المعطوفة فهي تتماهى دلاليًّا مع الجملة المعطوفة عليها، ومِنْ ثَمَّ يتأكد المعنى أنه ليس بمقدور الرسول ﷺ أن يجبر أحدًا على الإيمان؛ إذ ذلك من اختصاص الله ﷻ وحده، وليس من وظائف رسالته، يقول ابن عاشور : ((عطف على جملة : ﴿ **أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ** ﴾ [يونس: ٩٩] لتقرير مضمونها؛ لأن مضمونها إنكار أن يقدر النبي ﷺ على إلجاء الناس إلى الإيمان لأن الله هو الذي يقدر على ذلك))[١]، ويحتمل أن تكون الواو التي صدرت بها الآية الثانية حالية، فيكون المعنى كيف تكره الناس على الإيمان، والحال أنه لا يمكن أن تؤمن نفس إلا بإذن الله، وبهذا يتبين لنا أن التناسب بين الآيتين تم بواسطة الواو الحالية.

تناسب الآية الواحدة من حيث تناسب صدرها مع خاتمتها

من وجوه التناسب في النَّص القرآنيِّ ما يكون من تلاحم وترابط داخل الآية الواحدة بين صدر الآية وخاتمتها، وروعة هذا النوع من التناسب تكمن في أن الخاتمة أو التعقيبة[٢] تحمل معنًى جديدًا لما استعرضته الآية من معانٍ، فتزداد الآيةُ وضوحًا، وبيانًا أو تتضمن إشارة مضيئة إلى مركز الثقل في الآية، فتزداد إفهاما، ويتأكد المعنى ويقوى[٣]، يقول أحمد أبو زيد عن أسرار التعقيبات : بأنها ((تجمع بين وظائف معنوية لكونها تزيد معاني الآيات بيانا وإيضاحا))[٤].

ومن جمال هذا التناسب والتناسق أن يُرى في صدر الآية خاتمتها، فيتنبأ مَنْ رُزِقَ الفهمَ القرآنيَّ العميقَ بما ستكون عليه الخاتمة من تركيب، ومن ذلك ما يحكى عن الأصمعيّ أنه ((قال : كنت أقرأ السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله غفور رحيم ، وبجنبي أعرابيٌّ، فقال: كلام مَنْ هذا ؟ فقلت كلام الله قال : أَعِدْ، فأعدت،

---

(١). التحرير والتنوير : ١١ / ٢٩٤ .

(٢). التعقيبة أو التعقيب : هو ذلك الجزء أو المقطع الذي يأتي في خاتمتها، تذيل به الآية زيادة في البيان، ومحافظة على وحدة الإيقاع. (التناسب البياني في القرآن : ٩١) .

(٣). ينظر: الفاصلة في القرآن : ٢٧ .

(٤). التناسب البياني في القرآن ٩١ .

فقال: ليس هذا كلام الله فانتبهت فقرأت ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فقال أصبت هذا كلام الله فقلت : أتقرأ القرآن ؟ قال: لا، فقلت: فمن أين علمت ؟ فقال: يا هذا عزَّ فحكم فقطع، فلو غفر ورحم لما قطع))[1].

والتعقيبات التي تذيل بها كثير من الآيات في السور الطِّوال تأخذ غالبًا ثلاثة أشكال، كما أوردها الباحث أحمد أبوزيد[2]، وهي على النحو الآتي :

١. يؤكد التعقيب صفة أو صفتين من صفات الله ﷻ على وفق ما يتطلبه مضمون الآيـــة، كقولـــه ﷻ : ﴿ وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يـونس: ٦٥]، وقولـه : ﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [يونس: ١٠٧] .

٢. يرد التعقيب لزيادة البيان بتعليل المعنى أو الحكم الذي تضمنته الآية أو بتأكيده أو تقريره، كما في قوله ﷻ : ﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [يـونس: ١٧]، وقولـه : ﴿ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [يونس: ٨١] .

٣. يأتي التعقيب تنبيهًا أو تذكيرًا أو وعدًا أو وعيدًا، كما في قوله ﷻ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [يونس: ٦٧]، وقوله : ﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [يونس: ٢١] .

وسورة يونس ملآى بهذا النوع من التناسب، وسأعرض بعض الأمثلة فيما يأتي :

ففي قوله ﷻ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [يونس: ٥]، يتناسب التعقيب في الآية الكريمة مع صدرها تمام التناسب؛ فقد وردت هذه الآية في سياق تعداد

---

(١). الكشكول : ٢ / ١١٢ .

(٢). التناسب البياني في القرآن : ٩٩ .

الأدلة على استحقاق الله الربوبية والألوهية، والأدلة على قدرته على البعث والنشور، مفصلة ما أُجْمِل في الآية (٣) من خلق السموات والأرض، وتدبير أمور هذا الكون، وذلك بأن الله هو المتفرد المدبر الذي جعل الشمس مصدرًا لضياء الكون في النهار، والقمر نورًا لتبديد الظلمات في الليل، ثم فصلت منافعهما في معرفة حساب الأوقات والأزمان لضبط العبادات والمعاملات الدينية، والمالية والمدنية[١]، فلا غروَ أن تختتم الآية بعد ذلك كله بـ ﴿ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾، ولمّا كانت هذه الأمور التفصيلية تحتاج إلى علم ودراية، خصّ بها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾، و(العلم) في اللغة : ((العين واللام والميم أصل صحيح واحد، يدلّ على أثر بالشيء يتميز به عن غيره))[٢] ، فإذن خصّ هؤلاء لأنهم يتميزون عن غيرهم بمعرفة كُنْهِ منافع الشمس والقمر، وهو الذي يؤكده أبو حيان بقوله : ((وخصّ من يعلم بتفصيل الآيات لهم، لأنَّهم الذين ينتفعون بتفصيل الآيات، ويتدبرون بها في الاستدلال والنظر الصحيح، والآيات العلامات الدالة أو آيات القرآن))[٣].

وفي قوله ﷻ : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [يونس: ١٧]، يتركز تناسب صدر الآية مع خاتمتها، بين قوله : ﴿ أَظْلَمُ ﴾ و﴿ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾، أما : ﴿ أَظْلَمُ ﴾ فمشتق من الجذر (ظلم) الذي يدل على (التعدي ووضع الشيء في غير موضعه)، يقول ابن فارس : ((الظاء واللام والميم أصلانِ صحيحانِ، أحدهما خلافُ الضِّياء والنور، والآخَر وَضْع الشَّيءِ غيرَ موضعه تعدِّيًا))[٤]، فجعل أي شيء في غير موضعه يُعَدُّ ظلمًا وتعديًا، يقال : ((ظَلَمْتُ الأرضَ : حفرتها ولم تكن موضعا للحفر، وتلك الأرض يقال لها : المَظْلُومَةُ، والتّراب الّذي يخرج منها: ظَلِيمٌ))[٥]، فقد جاءت هذه الآية في مَعرِض الردِّ على المشركين حين طلبوا من الرسول ﷺ الإتيان بقرآن غير هذا القرآن أو تبديله، لتبين وتقرر أنَّ أشدَّ الظلم البشري هو

---

(١). تفسير المنار : ١١ / ٢٦١ .

(٢). مقاييس اللغة : ٤ / ١٠٩، (علم).

(٣). البحر المحيط : ٥ /١٣٠- ١٣١ .

(٤). مقاييس اللغة : ٣ / ٤٦٨، (ظلم) .

(٥). المفردات في غريب القرآن : ٢ / ٤١١، (ظلم) .

الاعتداء على القرآن الكريم بالافتراء والتكذيب وجعله في موضع التشكيك، بل هو اعتداء على الله ﷻ الذي أنزل هذا القرآن الكريم، يقول ابن عاشور : ((والظلم : هنا بمعنى الاعتداء، وإنَّما كان أحد الأمرين أشدّ الظلم لأنه اعتداء على الخالق بالكذب عليه وبتكذيب آياته))[١]، ولاسيما أن الاستفهام هنا إنكاريٌّ يحمل دلالة النفي.

وأما ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ فمشتق من الجذر (جرم) الدالّ على (الذنب و التَّعدِّي)، يقول الجوهريّ : (((الجُرْمُ) : الذَنْبُ، و (الجريمةُ) مثله، تقول منه : (جَرَمَ، وأَجْرَمَ، واجْتَرَمَ)))[٢]، ودائمًا ما يقترن هذا الفعل بالشيء السيء المكروه، يقول الراغب الأصفهاني : ((واستعير ذلك لكل اكتساب مكروه، ولا يكاد يقال في عامّة كلامهم للكيس المحمود))[٣]، كما أنه لا يبعد عن دلالة التَّعدِّي، يقول ابن منظور : ((و(الجُرْمُ) : التَّعدِّي، و(الجُرْمُ) : الذَّنْبُ، وَالْجَمْعُ (أَجْرامٌ وجُرُومٌ)، وَهُوَ (الجَرِيمَةُ)، وقد (جَرَمَ يَجْرِمُ جَرْماً واجْتَرَمَ وأَجْرَم)، فَهُوَ (مُجْرِم وجَرِيمٌ)))[٤] .

بعد كلِّ هذا التحرير اللغويِّ يتضح التلاحم الدلالي بين لفظتي ﴿ أَظْلَمُ ﴾ و﴿ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ في معنى (التَّعدِّي) إلى جانب الدلالات الأخرى التي كانت سببًا في تعانق خاتمة الآية بصدرها؛ فهؤلاء المجرمون المذنبون لا مثيل لهم في الظلم، ولا هم يفلحون ولا يفوزون بمطلوبهم الذي يتوسلون إليه بالكذب والزور[٥]؛ لأنَّهم ارتكبوا أشدَّ ظلم وأعظم جُرْمٍ في الوجود باعتدائهم السافر على الله ﷻ وعلى كتابه العزيز افتراءً وتكذيبًا، فإن التعقيب هنا يفيد توكيد صدر الآية، يقول فخر الدين الرازي : ((وأما قوله : إنه لا يفلح المجرمون فهو تأكيد لما سبق من هذين الكلامين، والله أعلم))[٦] .

---

(١). التحرير والتنوير : ١١ / ١٢٤ .

(٢). الصحاح : ٥ / ١٨٨٥، (جرم) .

(٣). المفردات في غريب القرآن : ١ / ١١٨، (جرم) .

(٤). لسان العرب : ١ / ٦٠٤، (جرم) .

(٥). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٢٧٦ .

(٦). مفاتيح الغيب : ١٧ / ٦٢ .

ونجد تناسبًا بين صدر الآية وخاتمتها في قوله ﷻ : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس: ٢٤]، فهذه الآية قد وردت عقب بيان أن الفساد في الأرض بسبب الاغترار بمتاع الحياة الدنيا ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [يونس: ٢٣]، ومن ثَمَّ جاءت هذه الآية لتفصل حقيقة هذا المتاع[١] بضرب مثل عن الحياة الدنيا في زينتها ونعيمها وسرعة تصرمها لأجل التنفير منها وعدم الوقوع في حبائلها التي تلهي عن الاستعداد للآخرة بالإيمان والعمل الصالح، ثم ختمت الآية بأن ما استعرضته الآية من تفصيل، يستعان به في تفصيل الآيات القرآنية في التوحيد والتشريع والعبر والمواعظ وكل ما فيه صلاح الناس[٢]، التي لا ينتفع بها إلا القوم الذين يعملون فكرهم وعقولهم، يقول الألوسي في ذلك : ((﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي : مثل ذلك التفصيل البديع ﴿ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أي : القرآنية التي من جملتها هذه الآية الجليلة الشأن المنبهة على أحوال الحياة الدنيا أي : نوضحها ونبينها ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في معانيها ويقفون على حقائقها، وتخصيصهم بالذكر لأنهم المنتفعون))[٣]، وزاد ابن عاشور في بيان علاقة خاتمة الآية بصدرها قائلًا : ((وجملة : ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ إلى آخرها تذييل جامع، أي : مثل هذا التفصيل نفصل أي : نبين الدلالات كلها الدالة على عموم العلم والقدرة وإتقان الصنع))[٤].

وفي قوله ﷻ : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [يونس: ٣٤]، يتجلى تناسب صدر الآية مع خاتمتها في دلالة الفعل ﴿

---

(١). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ١٤١ .

(٢). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٢٩٧ .

(٣). روح المعاني : ١١ / ١٠٢ .

(٤). التحرير والتنوير : ١١ / ١٤٤ .

﴿ تُؤۡفَكُونَ ﴾ المشتق من الجذر (أَفِكَ) الدال على : (الكذب المتعمَّد وصرف الشيء عن وجهته)، يقول ابن فارس : ((الهمزة والفاء والكاف أصل واحد، يدلُّ على قلب الشيء وصرْفِه عن جِهَته . يقال : (أُفِكَ الشَّيءُ)، و(أَفِكَ الرّجُلُ)، إذا كذَب، و(الإفك) الكذِب، و(أفكتُ الرّجُلَ عن الشيء)، إذا صرفتَه عنه، قال الله تعالى : ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا ﴾ [الأحقاف: ٢٢]))[1]. فهذه الآية تجيء في معرض الاحتجاج على المشركين أنَّ أصنامهم مسلوبة من أي شيء من صفات الكمال والألوهية التي يتصف بها الله مثل انفراده ﷻ بالرزق، وخلق الحواس، وخلق الأجناس، وتدبير الأمور، على خلاف ما يدعيه هؤلاء المشركون الذين يكذبون بقصد وإصرار بأنها آلهة تستحق العبادة[2] ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣١ ﴾ [يونس: ٣١]، تأتي هذه الآية لتستكمل هذا الاحتجاج بطرح قضية بدء الخلق وإعادته عليهم على سبيل الاستفهام الإنكاريِّ، مع أنها قضية واضحة في غاية الوضوح بأن الله وحده هو المنفرد بذلك؛ لأن السؤال في مثل هذه السياقات له تأثيره ووقعه على قلوبهم، فما كان من هؤلاء إلا أنَّهم مع وضوح الحقيقة ازدادوا تعنتًا وتكبرًا وعنادًا وإنكارًا للبعث والنشور، فلم يجيبوا ولم يقروا بالحقيقة بل صمتوا، وصمتهم هذا ليس لأن آلهتهم لها القدرة على فعل ذلك، ولكنه بهدف الانصراف عن سماع صوت الحق، وقلب الحقائق الساطعة عن وجهتها، وأمام هذا التهرب عن الإذعان لهذه الحقيقة يلقن الرسول ﷺ الجواب ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ تأكيدًا[3] على سطوع هذه الحقيقة، يقول الشوكاني في ذلك : ((وهذا القول الذى قاله النبي ﷺ عن أمر الله سبحانه له هو نيابة عن المشركين في الجواب إما لكون هذا المعنى قد بلغ في الوضوح إلى غاية لا يحتاج معها إلى إقرار الخصم ومعرفة ما لديه، وإما لكون المشركين لا ينطقون بما هو الصواب في هذا

---

(١). مقاييس اللغة : ١ / ١١٨، (أفك) .

(٢). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ١٦٠ – ١٦١ .

(٣). ينظر : اللباب في علوم الكتاب : ١٠ / ٣٢٣ .

الجواب فرارًا منهم عن أن تلزمهم الحجة أو يسجل عليهم بالعناد والمكابرة إن حادوا عن الحق))[1].

وهنا تبرز مناسبة خاتمة الآية مع صدرها من خلال أداة الاستفهام ﴿ فَأَنَّىٰ ﴾ الدّالة على مكان مجازيّ شبهت به الحقائق في رسوخها وثباتها[2]، ومن ثمَّ يتجسد لنا مشهدُ المشركين العجيب، وهم يحاولون الانصراف إلى باطلهم وإفكهم من كلِّ حدب وصوب عن هذه الحقائق الساطعة بعدما أثبتتْ فساد رأيهم في الاعتقاد، وكأنَّ الآية تصرخ في وجوههم، وتقرع أسماعهم ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾، إلى أين تصرفون وتنقلبون ، يقول الفخر الرازي : ((المراد التعجب منهم في الذهاب عن هذا الأمر الواضح الذي دعاهم الهوى والتقليد أو الشبهة الضعيفة إلى مخالفته، لأن الإخبار عن كون الأوثان آلهة كذب وإفك، والاشتغال بعبادتها مع أنها لا تستحق هذه العبادة يشبه الإفك))[3].

---

(١). فتح القدير : ٢ / ٦٢٣ .

(٢). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ١٦١ .

(٣). مفاتيح الغيب : ١٧ / ٩٣ .

المبحث الثاني

التناسب القصصي

❖ أهمية القصص القرآني

يمثل القصص ركيزة مهمة من ركائز النظام القرآني، فهي تشدُّ من عضد التناسب الموضوعيِّ في السور القرآنية وتحقق مقاصدها؛ لما لها من قدرة فائقة على تجسيد الأحداث بريشة التصوير المبدعة، فضلًا عن ذلك تمتعها برونق الأسلوب وبديع النظم وجمال الصورة، فلا غروَ إذن أن يتناولها الباحثون بالدرس والنقاش.

فـ (**القَصَصُ**) **في اللغة** : التَّتَبُع والتساوي ، قال ابن فارس : ((القاف والصاد أصلٌ صحيح يدلُّ على تتبُّع الشَّيء . من ذلك قولهم : اقتصَصْتُ الأثَر، إذا تتبَّعتَه))[١]، ومنه قوله ﷻ : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾ [القصص: ١١]، ومنه قوله ﷻ : ﴿ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ [الكهف: ٦٤]، ويزيد ابن فارس معنًى آخر إلى هذا الجذر، وهو (التساوي)، ((ومن الباب : قَصَصت الشّعر، وذلك أنَّك إذا قَصَصْتَه فقد سوَّيتَ بينَ كلِّ شعرةٍ وأُخْتِها، فصارت الواحدةُ كأنَّها تابعةٌ للأخرى مُسَاويةٌ لها في طريقها))[٢]، ويقول أبو البقاء الكفوي : ((قصصت الحديث : رويته على وجهته))[٣]، وجاء عند الراغب الأصفهاني أنَّ : (((القصص) : الأخبار المُتَتَبَّعة، قال: ﴿ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ ﴾ [القصص: ٢٥] ﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ [يوسف: ٣]))[٤].

ونستخلص من كلِّ هذا العرض اللغوي، أنَّ القصص في اللغة هو تتبع الخبر تتبعًا متساويًا ومتطابقًا مع الواقع دون زيادة أو نقصان[٥].

---

(١). مقاييس اللغة : ٥/١١، (قصّ) .

(٢). مقاييس اللغة : ٥/١١، (قصّ) .

(٣). الكليات لأبي البقاء الكفوي : ٧٣٤ .

(٤). المفردات في غريب القرآن : ٢ / ٥٢٣، (قصّ) .

(٥). ينظر : القصص القرآني : ١ / ٢٠ – ٢١ .

ويعرف عبد الكريم الخطيب القصص القرآني بأنها : ((أنباء وأحداث تاريخية لم تتلبس بشيء من الخيال، ولم يدخل عليها شيء غير الواقع، ومع ذلك فقد اشتمل على ما لم يشتمل عليه غيره من القصص من الإثارة والتشويق مع قيامه على الحقائق المطلقة))[1]، ويرى الدكتور بلبول أن القصص القرآني : ((إخبار الله عما حدث للأمم السابقة مع رسلهم، وما حدث بينهم وبين بعضهم، أو بينهم وبين غيرهم أفرادا وجماعات من كائنات بشرية أو غير بشرية، بهدف الهداية والعبرة))[2]، وقريب من هذا التعريف ما يذهب إليه الدكتور محمد حجازي : ((والاشتقاق اللغوي للقصة يفيد أنها كشف عن آثار مضت وتنقيب عن أحداث نسيها الناس أو غفلوا عنها، وغاية ما يراد من ذلك هو إعادة عرضها من جديد، لتذكير الناس بها، ولفتهم إليها، لتكون العبرة والعظة))[3]، ومن هذين التعريفين الأخيرين تتجلى لنا أهمية القصص القرآني في أن لها مراميَ سامقة مثل الهداية والعبرة، والعبرة تتمثل في الاستفادة والتفكير فيما جرى للسابقين والأمم الغابرة، وهذا الهدف الأسمى لا ينتفع به إلا أصحاب العقول الفاهمة الواعية والبصائر المستنيرة، الذين يهفون إلى الاهتداء والاتِّعاظ، قال ﷻ : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف: ١١١]، ونلحظ الإشارة إلى هذا الهدف أيضًا في قصة ذلك الشقي التعيس الذي أتته آيات الله فانسلخ منها، فتنكب الصراط المستقيم واتبع الشيطان الرجيم، وكان من الغاوين، وصار حاله، وهو يلهث وراء ملهيات الدنيا كحال الكلب الذي يلهث دون انقطاع، فالعاقل هو الذي يتفكر في هذه الحال المزرية، والعياذ بالله، ويشحذ عقله حتى يرقى بنفسه إلى مصافِّ الطائعين العابدين الله حق العبادة، يقول ﷻ : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن

---

(١). القصص القرآني في منطوقه ومفهومه : ٤٩ .

(٢). القصص القرآني : ٣٩، نقلا عن رسالة دكتوراه : اتجاهات التاليف ومناهجه في القصص القرآني : ٣٣ .

(٣). الوحدة الموضوعية في القرآن :٢٨٩، نقلا عن رسالة دكتوراه :اتجاهات التاليف ومناهجه في القصص القرآني : ٣٢ .

﴿ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٥ – ١٧٧]، يقول الدكتور صلاح الخالدي عن أهمية هذا الهدف : ((التفكير واجب قرآني، وفريضة إسلامية، لا يجوز تعطيلها، ومن لم يتفكر ويتعظ ما جرى للسابقين، فهو أعمى القلب والعقل والبصيرة . قال تعالى : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج: ٤٥ – ٤٦]))[١].

هذا إلى جانب تسلية الرسول ﷺ وأصحابه وأمته؛ لتثبيت أفئدتهم على طريق الحق والدعوة، من خلال عرض صور لما عاناه الأنبياء السابقون وأتباعهم من أذى وتعذيب أقوامهم، وكيف صبروا على ما أوذوا[٢]، يقول الله ﷻ : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [هود: ١٢٠]، يقول الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس : ((القصة القرآنية قصة هادفة، فهي ليس حلية للنَّصِّ القرآنيِّ أو ترفًا فنيًّا أو تأريخيًّا لمجرد التأريخ أو سردًا لمجرد التسلية والمتعة الفنية، وهي وإن كانت ذات خصائص فنية راقية وتأثير فذٍّ في المتلقي، فإنَّها صدق لا خيال فيه وحق لا زيف فيه، وبما أن مصدر القصة القرآنية هو مصدر القرآن نفسه، وهو الوحي الإلهي، فالأهداف المتوخّاة منها هي الأهداف ذاتها المتوخاة من أشكال التعبير الأخرى في القرآن الكريم، غير أن للقصة تأثيرًا نفسيًّا ووجدانيًّا ذا طابع خاصّ لما فيها من عرض حيّ للفكرة والغرض مجسّم في أشخاص يتحركون ويتكلمون ويتحاورون، وفي أحداث تُبثّ فيها الحياة، فتعرض أمام المتلقي كما لو كانت ماثلة أمامه وإن كانت لأقوام مضوا))[٣].

---

(١). القصص القرآني : ١ / ٣٣ .

(٢). ينظر : قصص القرآن الكريم : ٤٤ .

(٣). قصص القرآن الكريم : ٤٣ .

وتبرز أهمية القصص في أن الله بذاته العلية يتولى قصّ القصص على رسوله المصطفى محمّد ﷺ، يقول الله ﷻ : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [يوسف: ٣]، وقوله : ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ ﴾ [الكهف: ١٣]، ناهيك أنَّ ما في القصص من أحداث تأريخية، وموضوعات دعوية، و ملامح تشريعية أو توجيهية تعدّ صحيحةً لا يشوبها خطأ ولا زيف ولا زيادة ولا نقصان ولا مجال فيها للخيال والخرافات والأساطير، قال ﷻ : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٢]، يقول الدكتور صلاح الخالدي : ((قصص القرآن هو القصص الحقّ، والحق هنا معناه الصدق والصحة والصواب، من حيث المعنى والمضمون والمحتوى، فكل ما ورد في القرآن من القصص فهو حقّ ، سواء كان موضوعه عقيدة أو دعوة أو تشريعًا أو توجيهًا))[١]، وفي ذلك يزيد أيضًا أ.د. فضل حسن عبّاس : ((فالحقائق التي ترد في القصة القرآنية عن الكون وعن طبائع النفس البشرية عمومًا، وعن قصص أقوام وأشخاص بأعيانهم هي كلها حقائق ثابتة علميًّا وتاريخيًّا، وإن لم تقصد القصة القرآنية إلى التأريخ المجرد بل اتَّخذت من حقائق التاريخ مجالًا للموعظة والاعتبار والتأسّي ودروسًا واقعية يتأملها المتلقي ويتعلم منها))[٢].

❖ طرائق عرضه

من الخصائص الفنية التي تتميز بها القصة القرآنية أنها ترد بطرائق شتى بما يتناسق ومقصود السورة وأهدافها، مستعينًا بالوسائل البيانية التي تحقق التكامل بين طريقة العرض والهدف المنشود من القصة على وفق مقصود السورة كالتهذيب والوعظ والإرشاد، وقد عرضت القصص في سورة يونس على ثلاث طرائق، هي :

الطريقة الأولى :

---

(١). القصص القرآني : ١ / ٣٠ .

(٢). قصص القرآن الكريم : ٤٦ .

عرضت قصة نوح ويونس عليهما السلام تلميحًا يستغنى به عن الإطالة، اعتمادًا على أنَّ هذه القصة معروفة بهدف الإيجاز، قال ﷻ عن قصة نوح عليه السلام : ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس: ٧١ – ٧٣]، وأما قصة يونس عليه السلام فقال ﷻ : ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: ٩٨] .

الطريقة الثانية :

بينما وردت قصة موسى عليه السلام بدون مقدمات ولا تمهيد، مكتفية فيها بالإيحاء إلى مقصود السورة، وهو إنكار الوحي والنبوة ، قال ﷻ : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يونس: ٧٥ – ٧٦] .

الطريقة الثالثة :

وردت قصص الأقوام الذين جاؤوا ما بين نوح عليه السلام وموسى عليه السلام مجملة بدون أدنى تفصيل، قال ﷻ : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [يونس: ٧٤] .

❖ تناسب تسلسل القصصي

نزل القرآن الكريم موزعًا ومُفرَّقًا بحسب حكمة الله ﷻ، لينسجم مع الأحداث والوقائع، وهكذا كان القصص القرآنيُّ يتنزل ليواكب أحداث الحياة، ويُسهم في تربية الفرد المسلم والجماعة المسلمة بما يعرضه من نماذج بشرية تعددت حالاتها واختلفت أحوالها[١]، يقول سيد قطب : ((وهكذا نجد القصص في القرآن يواجه مقتضيات الحركة والمعركة مع الجاهلية في مراحلها المختلفة مواجهة حيّة فاعلة، شأنه شأن بقية السورة التي يجيء فيها، ونجده في الوقت ذاته متناسقًا مع سياق السورة وجوِّها وموضوعِها، متوافيًا مع أهدافها، مصدقًا في عالم الواقع لما تقرره من توجيهات وأحكام وإيحاءات تقريرية))[٢]، ويقول أيضًا : ((وقد كان القرآن، ولا يزال، يربي المؤمنين بهذا النموذج وذاك، وفق الحالات والملابسات، ويعدُّ نفوس المؤمنين لهذا وذاك على السواء؛ لتطمئن على الحالين، وتتوقع الأمرين، وتكل كلَّ شيء لقدر الله يجريه كما يشاء))[٣] .

ويشغل القصص القرآنيُّ مساحات واسعة من القرآن مكيِّه ومدنيِّه، تبلغ مساحة الربع تقريبًا أي: ما يزيد على ١٥٠٠ آية[٤]، وإن كانت نصيبها في السور المكيَّة أكثر منها في السور المدنيّة، فبعض السور تستغرق القصصُ آياتِها مثل سورة القصص وسورة يوسف، وبعضها ذكرت فيها عدة قصص مثل سورة يونس، وبعضها الآخر لم يذكر فيها شيء من القصص[٥].

وينتظم القصص القرآني داخل مساحة كلِّ سورة في تسلسلٍ فريدٍ وترتيبٍ بديعٍ على وفق سياق هذه السورة وموضوعاتها وأهدافها، لِيُنْبِئ عن دلالات عظيمة على إعجاز القرآن وسمو نظمه، فعلى سبيل المثال تتسلسل قصص السور المكية ؛ لتؤكد على عبادة الله وحده،

---

(١). ينظر : اتجاهات التأليف ومناهجه في القصص القرآنيّ : ٢٠١ .

(٢). في ظلال القرآن : ٤ / ١٨٤٣ .

(٣). في ظلال القرآن : ٦ / ٣٩٠٤ .

(٤). ينظر : اتجاهات التأليف ومناهجه في القصص القرآنيّ : ٢٠٠ .

(٥). ينظر : قصص القرآن الكريم : ٨٣، و القصص القرآنيّ : ١ / ٢٧ .

وترك عبادة الشركاء من دونه، ويتجلى ذلك مثلًا في سورة هود[1] التي تستعرض حركة العقيدة الإسلامية في التاريخ البشريّ، من لدن نوح عليه السلام إلى عهد محمّد ﷺ، فكلهم دعوا إلى عبادة الله وحده، في إشارة واضحة إلى أن دعوة سيدنا محمّد ﷺ : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ ﴾ [هود: ٢] ليست بدعًا من القول، فقد قالها من قبلُ نوحٌ عليه السلام : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٥ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ۝٢٦ ﴾ [هود: ٢٥ – ٢٦]، وقالها هود عليه السلام : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝٥٠ ﴾ [هود: ٥٠]، وقالها صالح عليه السلام : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۝٦١ ﴾ [هود: ٦١]، ودعا شعيب بها قومه : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [هود: ٨٤]، يقول سيد قطب في التشابه اللفظيِّ في نصِّ دعوة الأنبياء التي استعرضتها أعلاه : ((إنَّها تكاد تكون الألفاظ ذاتها التي أرسل بها محمّد ﷺ والتي تضمنها الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، وهذه المقاربة في ألفاظ التعبير عن المعنى الرئيسي الواحد مقصودة في السياق لتقرير وحدة الرسالة ووحدة العقيدة، حتى لتتوحد ألفاظ التعبير عن معانيها))[2].

وليست بعيدةً عن ذلك الانتظام القصصيِّ سورةُ يونسَ، فقد انتظم في فلكها نوع واحد من أنواع القصص، وهو قصص الأنبياء، وهي قصة : (نوح، وموسى، ويونس عليهم السلام)، فضلًا عن إشارة مجملة للرسل الذين كانوا بين نوح وموسى عليهما السلام، وكلُّ هذه القصص تحمل في طياتها مشاهدَ جديدةً وزيادات لم ترد في مواضع أخرى، بما يشكل بينها وشائج ومناسبات، تدعونا لتبيانها، وإيضاح ملامحها.

أول هذه المناسبات بين هذه القصص اشتراك كلِّ قصة في عرض الدعوة إلى الله، مدعومةً بالوحي والبينات والبراهين، فلا غروَ أن تتكرر مفردة الإسلام ومشتقاتها في ثلاثة

---

(١). ينظر : في ظلال القرآن : ٤ / ١٨٤١ .

(٢). في ظلال القرآن : ٤ / ١٨٧١ .

مواضع[1]، بالإضافة إلى تكرار مفردة البينات والآيات[2] التي تقوي من أزر هذا العرض الدعوي الذي يشي بوحدة الدعوة إلى الله ﷻ، وكأن هؤلاء الأنبياء في محفلٍ واحدٍ، مجتمعين لهدف واحد وغاية واحدة، يدعون أقوامهم إلى الإسلام والتمسك بمبادئ الوحي؛ فهذا نوح عليه السلام يدعو قومه بما عنده من الوحي والبراهين والبينات التي تؤكد صدق رسالته، فكان منهم من آمن بنوح عليه السلام، ومنهم من استثقل سماع دعوته، بل كبر عليهم إقامته بينهم وتذكيره لهم، ولكن نوحًا عليه السلام لم يأبه بعنادهم وتهديدهم، فهو متوكل على ربه، ثابت على مبادئه ودعوته، مُسْتَقْوٍ بإيمانه، ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يونس: ٧١ – ٧٢]، فكانت عاقبة المؤمنين النجاة، وعاقبة المكذبين الغرق، ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [يونس: ٧٣] .

وكذا الحال مع أقوام الأنبياء الذين طويت قصصهم في السورة، لم يؤمنوا على الرَّغم من وضوح الحجج على صحة دعوة أنبيائهم؛ لأنهم أصحاب طبيعة واحدة في نكران هذا الحقّ الواضح، فهم كما يقول الزمخشري : ((كانوا قبل بعثة الرسل أهل جاهلية مكذبين بالحق، فما وقع فصل بين حالتيهم بعد بعثة الرسل وقبلها))[3]، وكانت خاتمتهم أن طُبِعَ على قلوبهم، فَحالَ دون أن تتأثر بالبينات الواضحة، ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [يونس: ٧٤].

---

(١). الآيات : (٧٢، ٨٤، ٩٠) .

(٢). تكررت مفردة الآيات في ١٣ موضعًا، وهي : (١، ٥، ٦، ٧، ١٥، ١٧، ٢١، ٢٤، ٦٧، ٧١، ٧٥، ٩٥، ١٠١)، وتكررت مفردة البينات في موضعين : (١٣، ٧٤) .

(٣). الكشاف : ٣ / ١٦٢ .

والمشهد نفسه يتكرر مع موسى عليه السلام الذي أرسل إلى فرعون وملئه معززًا بالآيات والبراهين، ولكنهم تعاملوا مع الوحي بغطرسة واستكبار لما جاءهم من عند ربهم، متهمين الرسول بالسحر والتعدي على المعتقدات الموروثة، ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [يونس: ٧٥ – ٧٨]، وفي المقابل هناك فئة الشباب الذين آمنوا بموسى وهارون عليهما السلام، واهتدوا بنور هذا الوحي الذي فيها صلاح حياتهم، ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يونس: ٨٣]، وتختتم القصة ببيان الخاتمة؛ فقد غرق فرعون وجنوده، في حين نجا موسى ومن معه، وتمكنوا من مجاوزة البحر بسلام، ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يونس: ٩٠] كما أنه لم يختلف الأمر في بدايته، مع قوم يونس عليه السلام فقد تمنَّعوا وجحدوا الآيات والبراهين على صدق رسالته حتّى رأوا أمارات العذاب تلوح في الأفق، ساعتها آمنوا كلهم برسالة نبيهم، فمتعهم ربهم إلى حين، فكانت عاقبتهم عاقبة خير ورحمة لهم، ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ [يونس: ٩٨] .

تأتي هذه القصص مُجْتمِعَة متناسبة مع ما أجملته الآيات (١٣، ١٤، ٤٧) ، لتفصل كيف تحققت عاقبة التكذيب في الأمم الغابرة بعدما جاءتهم رسلهم بالوحي والبينات، وكيف تحقق القضاء في أمرها بعدما جاء رسولها[1]، قال ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [يونس: ١٣ – ١٤]، وقال

(١). ينظر : في ظلال القرآن : ٣/١٨١٠ .

ﷻ : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [يونس: ٤٧]، وهذا ما رأيناه في سرد هذه القصص، فقد ركزت وأكدت منحى العاقبة والقضاء في أمر هؤلاء الأقوام ورسلهم، ومن اللافت للنظر ذلك التناسب والتشابه في العاقبة السلبية لقوم نوح وفرعون وجنوده؛ فقد كانت غرقًا، يقول البقاعي : ((هذا إلى ما ينظم إليه من مناسبة ما بين إهلاك القبط وقوم نوح بآية الغرق، وأنه لم ينفع أحدًا من الفريقين معاينة الآيات ومشاهدة الدلالات البينات))، ويبدو لي أن التناسب بين هذه القصص في منحى العاقبة والقضاء لا يقتصر على العاقبة السلبية بل يتعداه إلى العاقبة الإيجابية لمن آمن من هؤلاء الأقوام؛ فالقضاء مثلًا في أمر مَنْ آمن مِنْ قوم نوح وقوم يونس كان النجاة من الغرق، والاستخلاف والتمتيع إلى حين، قال ﷻ : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ ﴾ [يونس: ٧٣] و قال ﷻ : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ [يونس: ٩٨] أما القضاء في مَنْ آمن مِنْ قوم موسى فهو التبشير بالنصر والتمكين ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يونس: ٨٧] الذي يتوافق مع العاقبة الإيجابية للمؤمنين، كما يفهم من قوله ﷻ في خطابه للرسول ﷺ : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾ [يونس: ٢] .

وهذا يقودنا بدوره إلى سرِّ تكرار هذه القصص في هذه السورة، ومناسبة ورودها فيها، فإنها وردت لتواكب ركب الدعوة المحمّدية ﷺ وتشد من أزرها معنويًّا، وتقوي عزيمة نبيِّها ومعنويات أصحابه نفسيًّا في مواجهة لأواء أذى المشركين، وضنك عداوتهم لهذه الدعوة، وفي هذا يقول التهامي نقرة : ((أن القرآن لم يكرِّر من القصص أو من حلقاتها إلا ما كان أشدّ تجاوبا مع بيئة الدعوة، وأكثر استجابة لأهدافها، وخدمة لأغراضها ... كما أنه لم يكرِّر بل لم يذكر من قصص الأنبياء إلا ما يقوِّي عزيمة الرسول وأصحابه، ويثبِّت قلوبهم، وينير سبيلهم))[1]، تأتي هذه القصص في ظرف عصيب على الدعوة، وحقبة قاسية على الرسول

(١). سيكولوجية القصة في القرآن : ١١٨ .

ﷺ سماها سيد قطب (الفترة الحرجة)، وهي الواقعة ما بين حصار المسلمين في شِعْب أبي طالب إلى بيعة العقبة الأولى ثم الثانية[١]، يقول الدكتور صلاح الخالدي : ((ففي هذه الفترة الحرجة ازداد إيذاء قريش للرسول ﷺ والمسلمين، وازداد حربهم للدعوة، وأصبحت حركة الدعوة شبه متجمدة، ومرت مشاعر وأعصاب المسلمين بكرب وضغط وضيق وانفعال، وصاروا يتساءلون : هل من مَخْرَج من هذه المحنة ؟ وهل من زوالٍ لهذا الكَرْب ؟ ومتى يأتي الفرج ؟))[٢]، كلُّ ذلك بسبب موت عمه أبي طالب الذي كان يذود عنه وينافح، وفقدان النصير الذي يخفف عنه الهموم في البيت زوجه خديجة بنت خويلد، فنزلت في هذا الجوّ المكروب سورٌ من القرآن المكي : (الأنعام، وهود، ويوسف، وإبراهيم، والحجر)، ومن هذه السور سورة يونس بما فيها من قصص لتهديد[٣] المشركين بأن العذاب مصيبُهم كما أصاب قوم نوح وفرعون وملأه وجنوده والأقوام الذين كانوا قبل موسى، مِصداقًا لقوله ﷻ : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [يونس: ٣٩]، يقول محمد رشيد رضا متحدثًا عن مقطع القصص في هذه السورة : ((هذا سياق جديد متصل بما سبق من مقاصد هذه السورة أتمَّ الاتصال، بتفصيله لبعض ما فيها من إجمال، وهو الاحتجاج على مشركي مكة وما حولها وسائر من تبلغهم الدعوة من المكذبين، بأنَّ الله تعالى سيخذلهم وينصر رسوله عليهم كما نصر من قبله من الرسل على أقوامهم المجرمين، فأهلكهم وأنجى المؤمنين))[٤]، وفي الوقت نفسه فيها تسلية للرسول المصطفى ﷺ وأصحابه ﷺ بأن الله ناصرهم على المشركين ولو بعد حين، كما نصر الأنبياء من قبلُ كنوح وموسى عليهما السلام على المكذبين المعاندين، وفيها أيضًا ما يجعلُ الأملَ يتَّقِدُ في القلوب المكروبة بإيمان قومه ﷺ كما آمن قوم يونس عليه السلام، ويضيف الفخر الرازي جانبًا آخر من جوانب التسلية قوله : ((ثم إنه تعالى بين أنَّهم مع مشاهدة المعجزات العظيمة ما آمن به منهم إلا ذرية من قومه، وإنَّما ذكر تعالى ذلك تسلية لمحمّد ﷺ؛ لأنه

---

(١). ينظر : في ظلال القرآن : ٤ / ١٩٤٩ .

(٢). القصص القرآني : ٢ / ٧٦ .

(٣). ينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ / ١٤٢ .

(٤). تفسير المنار : ١١ / ٣٨٧ .

كان يغتم بسبب إعراض القوم عنه واستمرارهم على الكفر، فبين أن له في هذا الباب بسائر الأنبياء أسوة، لأن الذي ظهر من موسى عليه السلام كان في الإعجاز في مرأى العين أعظم، ومع ذلك فما آمن به منهم إلا ذرية))[1]، ومِنْ ثَمَّ تتناسب هذه القصص واسم السورة (يونس) الذي يحمل دلالة الإيناس والأنس[2]، ولكي يبلغ الإيناسُ مبتغاه في نفسية الرسول المكلوم ﷺ جاءت القصص متنوعة في أسلوب ذكر أحداثها؛ فتارة تتبع أسلوب السرد كما في قصة نوح ويونس عليهما السلام، بينما في قصة موسى عليه السلام تُراوِحُ بين السرد والحوار، فضلًا عن التنوع في ورودها مجملةً مثل قصة نوح ويونس عليهما السلام، ومفصلة بعض الشيء مثل قصة موسى عليه السلام، كلُّ ذلك ليتجانس مع نفسية الرسول ﷺ التي تستدعي الإضمار القصصي والإيجاز، يقول الدكتور عبدالله محمّد الجيوسي : ((أن النفس في العادة لا تسمع للكلام الطويل))[3] .

كما إنَّ لمقصود السورة الذي يتمحور حول قضية الوحي مناسبةً مع هذه القصص، فكل مشاهدها تصور لنا مدى العجب والرفض للرسالة والوحي الذي جاء به الرسل؛ فهذا نوح عليه السلام يُواجَه بالرفض لدرجة أنه استثقل شخصه وكبر عليهم سماع الحق منه، وذاك موسى عليه السلام يتهم بالسحر، وهي التهمة نفسها التي قيلت للرسول الأكرم ﷺ، ولا تختلف ردة فعل الأقوام الذين كانوا قبل موسى عليه السلام، التي لخصها التعبير القرآني في قوله ﷻ : ﴿ **فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ** ﴾ [يونس: ٧٤]، يقول الألوسي : ((بيان لاستمرار عدم إيمانهم في الزمان الماضي أي: فما صحّ ولا استقام لهم في وقت من الأوقات أن يؤمنوا لشدة شكيمتهم ومزيد عنادهم))[4]، وهذا ما يشير إليه سعيد حوى بقوله : ((إنَّ كلَّ مكان ترد فيه (يعنى القصة) فإنها تخدم سياق السورة التي وردت فيها موضوعها ومحلها في الترتيب القرآني، وقد لاحظنا هنا أنَّ قصة نوح خدمت السياق العام لسورة يونس، وهو نفي العجب، وجدية الإنذار كجزء من معالجة الشك في القرآن))[5].

---

(١). مفاتيح الغيب : ١٧ / ١٥٠ .

(٢). راجع موضوع : تناسب اسم السورة مع مقصودها : ٥٥ .

(٣). التعبير القرآني والدلالة النفسية : ٤٨٩ .

(٤). روح المعاني : ١١ / ١٦٢ .

(٥). الأساس في التفسير : ٥ / ٢٤٩٣ .

وتبرز المناسبة من ناحية أخرى بين هذه القصص، أنها بدئت بقصة نوح عليه السلام كما هو الحال في سورة التوبة وسورة هود، وهذا يتماهى ويتجاوب مع التناسب بين موضوعات هذه السور أيضًا، وهو ما بينته سابقًا في موضوع (التناسب بين موضوعات سور (التوبة، ويونس، وهود) وقصصها)[1].

وأخيرًا ثمة تناسب آخر على يبدو لي بين هذه القصص، يتمثل في تسلسلها التأريخي، وهذا يجعل المتلقي مشاركًا أصحابها في التنقل مع أحداثها ومواقفها، بدءًا من قصة نوح، مرورًا بالأقوام الذين كانوا بعد نوح، ثم بموسى وانتهاء بيونس عليهم السلام، وهذا يتضح من التعبير بالظرف ﴿ مِنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾ في قوله ﷻ : ﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٧٤ ﴾ [يونس: ٧٤]، أي: من بعد نوح عليه السلام، وكذا الحال في قصة موسى وهارون عليهما السلام التي كانت بعد الأقوام الذين أجملت قصصهم، بدليل ظرف البعدية : ﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ٧٥ ﴾ [يونس: ٧٥] .

وبالمُجْمل قدّم السياق لوحة قصصية، قوامها أربعة قصص، اثنتان منهما؛ في كلِّ واحدةٍ فئتان متقابلتان؛ فئة مؤمنة وأخرى كافرة مثل (قصة نوح، وموسى عليهما السلام)، وأما الاثنتان الأخريان؛ ففي كلِّ واحدةٍ منهما فئةٌ واحدةٌ؛ إمّا فئة مؤمنة فقط مثل (قوم يونس)، وإما فئة كافرة مثل (الأقوام ما بين نوح وموسى عليهما السلام) .

هذه هي جوانب التناسب بين القصص في سورة يونس على وجه العموم، وسأنتقل إلى الحديث عن التناسب الداخلي لكلِّ قصة من هذه القصص.

---

(١). راجع موضوع : التناسب بين موضوعات سور (التوبة، ويونس، وهود) وقصصها .

❖ **تناسب القصة مع مقصود السورة**

١. قصة نوح عليه السلام

وردت قصة نوح عليه السلام في عشر سور[١] من القرآن الكريم بمشاهد مختلفة ولقطات متعددة، بالمقدار الذي يتفق مع موضوع السورة وسياقها وجوّها النَّصي وشخصيتها والعبرة المقصودة منها في كل سورة[٢]، وهناك إشارات أخرى لقصة نوح عليه السلام ذكرت في مَعرِض الحديث عن الأقوام المكذبين أو في أثناء الحديث عن الأنبياء المؤيدين بنصر الله[٣] .

ولكن ورودها في سورة يونس يأتي ليضيف مشهدًا جديدًا لم يذكر من قبل؛ بهدف تثْبيتِ فؤادِ النبي ﷺ، فالقصة هنا تنفرد عن غيرها من المواضع بذكر مشهد التحدي الصريح من نوح عليه السلام لقومه، بأنه ماضٍ على طريق الدعوة، لا يَكِلُّ ولا يَمَلُّ رغم تكذيبهم المستمرّ، ولا يلتفت إلى شيء من تهديداتهم ، متوكلًا على مولاه، مستمدًا ذلك من ثقته بربه ﷻ، راغبًا فيما عند الله من الأجر، لا فيما عندهم، وهي بهذا تحكي واقعًا مشابهًا لما كان عليه ﷺ آنذاك من ضيقٍ نفسيٍّ ورفضٍ قريشيٍّ مُطْبِقٍ لدعوته، متعجبين من إنزال الوحي عليه، يقول ﷻ : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾ [يونس: ٢]، يقول التهامي نقرة : ((ومن هنا يتَّضح مقصد القرآن من اختياره في قصصه لأحداث بعينها من تاريخ بعض الرسل ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [هود: ١٢٠]، ففي سورة يونس مثلًا، عرضت قصة نوح مع قومه، وهي شبيهة بحال محمّد مع قومه، وكانت الفترة التي نزلت فيها السورة شديدةً عليه، لموتِ المدافعِ عنه عمه أبي طالب، وفقدِ النصير له المواسي في البيت زوجته خديجة، وتألّبِ المشركين عليه، وإمعانهم في إيذائه فنزلت عليه هذه الآيات : ﴿ وَاتْلُ

---

(١). في السور المكية الآتية : (الأعراف، ويونس، وهود، والأنبياء، والمؤمنون، والشعراء، والعنكبوت، والصافات، والقمر، ونوح) .

(٢). ينظر : القصص القرآني : ١ / ١٥١ – ١٥٢ .

(٣). ينظر : في آيات السور الآتية : الفرقان (٣٧)، سورة النجم (٥٢)، سورة ص (١٢)، سورة (٤٦)، الذاريات (٤٦)، ينظر : قصص القرآن الكريم : ١٧٦ .

عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [يونس: ٧١ – ٧٣]))[١].

وهنا نلحظ أنَّ القصة لم تتطرق إلى ذكر السفينة وركابها، ولم تأت على ذكر الطوفان؛ لأنَّ الهدف من إيراد هذه اللقطة من القصة في هذا الموضع هو التركيز على ذكر عاقبة المؤمنين بالوحي، وعاقبة المكذبين به، بما يتوافق مع مقصود السورة، ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴾ [يونس: ٧٣]، يقول سيد قطب : ((لذلك يختصر السياق هنا تفصيلات القصة إلى حلقة واحدة، ويختصر تفصيلات الحلقة الواحدة إلى نتائجها الأخيرة؛ لأن هذا هو مقتضى السياق في هذا الموضع))[٢] .

ويذهب النَّصُّ القرآنيُّ إلى ما هو أبعد من ذلك في تركيزه على جانب العاقبة، وهو تقديم التنجية على الإغراق؛ لأجل مراعاة الجانب النفسيِّ بتعجيل المسرَّة للرسول وأصحابه[٣]، ومن جهة أخرى نلحظ ربط الإغراق بالتكذيب بواسطة الاسم الموصول (الذين) للإيماء إلى سبب تعذيبهم[٤]، وفي ذلك رسالة إنذار واضحة للمشركين[٥] أن يكفوا عن تكذيب الوحي، وإلا كان مصيرهم كمصير قوم نوح، ولذلك ذيل هذا الإنذار بقوله ﷻ : ﴿ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴾ [يونس: ٧٣]، ليربط على ما يبدو لي بين عاقبتين؛ عاقبة

---

(١). سيكولوجية القصة في القرآن : ٣١٥ .

(٢). في ظلال القرآن : ٣ / ١٨١٠ .

(٣). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ٢٤٣ .

(٤). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ٢٤٣ .

(٥). البحر المحيط : ٥ / ١٧٩ .

المنذرين من قوم نوح السابقة الذكر، وعاقبة المنذرين من القصة الآتية، في براعة تخلص قلَّ نظيرُها .

٢. القصص المجملة : قصص الأقوام الذين كانوا بين نوح وموسى عليهما السلام

ينتقل بنا السياقُ إلى قصص أقوام، هم أعجبُ حالًا من قصة قوم نوح عليه السلام؛ لأنَّ قوم نوح كانَ منهم المؤمنُ، ومنهم الكافرُ، أمّا هؤلاء فهم قد اجتمعوا على كلمة الكفر جملةً واحدةً، على الرّغم من مجيء رسلهم إليهم بالبينات الصادقة الواضحة، والخوارق المؤيدة بالوحي، ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ [يونس: ٧٤]، ولهذا عُطِفَتْ قصة هؤلاء على قصة نوح بحرف العطف (ثُمَّ) لبيان التراخي بين القصتين في الغرابة والعجب، يقول ابن عاشور : ((ثم للتراخي الرتبي، لأن بعثة رسل كثيرين إلى أمم تلقوهم بمثل ما تلقى به نوحًا قومه أعجب من شأن قوم نوح حيث تمالأت تلك الأمم على طريقة واحدة من الكفر))[١]، ولعل اتفاقَهم على الكفر حتى صاروا جماعة واحدة على اختلاف أجيالهم[٢] سببٌ على ما يبدو لي لإجمال ذكر تفاصيل قصصهم وأسمائهم، وهذا ما يفهم من النصّ القرآنيِّ نفسِه، الذي أكَّدَ جحودَهم بلام الجحود بعد (كان) المنفية ﴿ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ﴾ [يونس: ٧٤]، يقول أبو حيان : ((وجاء النفي مصحوباً بلام الجحود ليدل على أنّ إيمانهم في حيز الاستحالة والامتناع))[٣]، ويقول أبو السعود في تفسير هذه الجملة : ((بيانٌ لاستمرار عدم إيمانهم في الزمان الماضي لا لعدم استمرارِ إيمانِهم ... أي : فما صح وما استقام لقوم من أولئك الأقوامِ في وقتٍ من الأوقاتِ أن يؤمنوا بل كان ذلك ممتنعًا منهم لشدة شكيمتِهم في الكفر والعناد))[٤] .

ويذكر البقاعيُّ سببًا آخر لإجمال قصصهم، وهو أن هؤلاء تشابهوا مع قوم نوح في عدم الانتفاع بالآيات التي رأوها ممن أريدت شقاوته منهم، فاكْتُفِيَ بذكر قوم نوح، وطُوِيَ ذكر أسماء هؤلاء الأقوام : ((ولمّا لم يكن في قصص من بينه وبين موسى – عليهم السلام

---

(١). التحرير والتنوير : ١١ / ٢٤٤ .

(٢). ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٨١٢ .

(٣). البحر المحيط : ٥ / ١٧٩ .

(٤). تفسير أبي السعود : ٢ / ٦٩٤ .

– مما يناسب مقصود هذه السورة إلا ما شاركوا فيه قوم نوح من أنهم لم تنفع الآيات من أريدت شقاوته منهم، ذكره سبحانه طاويًا لما عداه))[1] .

ولكِنَّني أخالف البقاعيَّ في أنه ثمة تناسب آخر بين هذه القصص المجملة يتماشى مع مقصود السورة غير ما ذكره، وهو ختمها بذكر عاقبة تكذيب الوحي التي تشترك فيه كلُّ القصص في السورة وإن اختلفت أشكالها، وكانت عاقبة هؤلاء أن طبع الله على قلوبهم وختم عليها، فلم تَعُدْ صالحة للتأثر بالمواعظ والهدى؛ بسبب اعتدائهم المستمر على الوحي بالتكذيب والجحود الذي أدى بهم إلى تعطيل مداركهم، كما هي سنة الله في طبعه على قلوب المعتدين[2]، ﴿ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [يونس: ٧٤] .

٣. قصة موسى عليه السلام

تُعَدُّ قصة موسى عليه السلام من أكثر القصص ذكرًا في القرآن الكريم، بحسب ما ينتقيه السياقُ في كلِّ موضع من حلقات معينة، ومشاهد مطلوبة بما يتناسب ومقصودَ السورةِ وجوَّها العامَّ، ولا شكّ أنَّ هذا التكرار يقتضيه السياقُ الزمنيُّ الذي تمرُّ به الدعوة المحمّدية على صاحبها ﷺ من ظروف عصيبة كما بينت ذلك في أكثر من موضع، فالشبهُ كبيرٌ بين ما لاقاه موسى عليه السلام من قومه، وما عاناه الرسول ﷺ من قومه المشركين، وقد قيل سابقا : التأريخ يعيد نفسه، فها هم قوم موسى يتآمرون عليه ليقتلوه : ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [القصص: ٢٠]، وذاك محمّد ﷺ قد تآمر عليه المشركون ليقتلوه : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ويبدو هذا الشبه واضحًا أيضًا بين ما واجهه المؤمنون على يد فرعون المتغطرس؛ فقد هدد مرةً السحرةَ لمّا آمنوا لموسى عليه السلام بالعذاب والصلب إن لم يرجعوا عن إيمانهم، ولكنَّهم ثبتوا على إيمانهم

---

(١). نظم الدرر : ٩ / ١٦٦ – ١٦٧ .

(٢). ينظر : الأساس في التفسير : ٥ / ٢٤٩٥ – ٢٤٩٦ .

ثبات الجبال، يرجون مرضاة الله ومغفرته غير مبالين بتهديداته : ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشعراء: ٤٩ – ٥٠]، وهو الحال نفسه يتكرر مع صحابة الرسول ﷺ، فقد روى أحمد عن ابن مسعود قال : (كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ سَبْعَةٌ : رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ، وَعَمَّارٌ، وَأُمُّهُ سُمَيَّةُ، وَصُهَيْبٌ، وَبِلَالٌ، وَالْمِقْدَادُ، فَأَمَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَمَنَعَهُ اللَّهُ بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَمَنَعَهُ اللَّهُ بِقَوْمِهِ، وَأَمَّا سَائِرُهُمْ فَأَخَذَهُمُ الْمُشْرِكُونَ، وَأَلْبَسُوهُمْ أَدْرُعَ الْحَدِيدِ، وَصَهَرُوهُمْ فِي الشَّمْسِ ...)[1]، فتأتي هذه القصة بمثابة المخفف والمواسي ليتحمل الرسول ﷺ وأصحابه هذه الفترة الشديدة، يقول التهامي نقرة : ((فكانت قصة موسى مع فرعون وبني إسرائيل قصة حافلة بالعظات التي لا يستغني عنها الرسول ﷺ في اقتحام العقبات، والتعود على الصبر، والصمود أمام القوى الغاشمة، ليجعل من الإسلام طلائع النور في أمة طال عليها الليل، كما طال الأمد على بني إسرائيل فقسمت قلوبهم))[2] .

ومن جهة أخرى نلحظ أنَّ القرآن الكريم يستشرف مستقبل الدعوة التي ستؤول إليه في المدينة المنورة من صراع طويل مع اليهود، فيضخُ كثيرًا من قصص بني إسرائيل استعدادًا لمواجهتهم على بينة من أمرهم، وفي هذا يقول الدكتور عبدالله محمّد الجيوسي : ((إنَّ طبيعة الصراع الذي تعيشه الدعوة الجديدة سيكون في أغلبه مع اليهود، وسيبقى مستمرًا إلى يوم الدين، فكان في الإكثار من قصص بني إسرائيل كشفٌ لحقيقة ما هم فيه، وبيان نفسيتهم وطريقتهم، والأساليب التي يستخدمونها في محاربة هذا الدين، خاصة تلك الأسلحة المعنوية من : إشاعات، ودسّ شبهات، وحرب نفسية يستخدمونها ضدّ أهل الإيمان، فكان في كثرة القصص الوارد في حقهم إبراز لهذه الجوانب، وبيان لهذه الطبيعة))[3] .

---

(١). فضائل الصحابة : ١ / ١٨٢ .

(٢). سيكولوجية القصة في القرآن : ١٢٦ .

(٣). التعبير القرآني والدلالة النفسية : ٥١٩ .

وردت القصة في هذا الموضع مُكثفةً في أحداثها، تتنقل من حدث إلى آخر في إجمال مقصود، وتفصل أحداثًا أخرى بما يتناسق مع سياق السورة نفسها ومع شخصيتها[1]، تراوح في طريقة عرضها بين السرد والحوار .

تتوزع القصة على خمسة مشاهد[2]، سأستعرضها على النحو الآتي :

المشهد الأول : مشهد التحدي والتكذيب

يبدأ السياق بملخصٍ سريعٍ لمجمل القصة لإبراز ملامح التكذيب والإنكار الذي يتصف به فرعون وملؤه حتى بلغ بهم الأمر أن يتكبروا على الآيات والوحي في صلفٍ واضحٍ يشي به التعبير الذي يحمل دلالة المبالغة في الفعل ﴿ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾، ودلالة كينونة الإجرام المُسْتَكِنَّة في نفسيتهم : ﴿ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [يونس: ٧٥]، فلا غروَ إذن أن تعطف هذه القصة بـ (ثُمَّ) على القصص السابقة؛ بسبب هذا الترقي في التحدي والتكبر على الحقِّ أكثر ممّا كان عليه قوم نوح والأقوام الذين كانوا بعده، بل لم يقف الأمر بفرعون وملئه عند حدّ الإنكار فحسب، بل امعنوا في تحديهم وتكذيبهم بوصفهم الوحي بالسّحر، وذلك لمّا رأوا قوة الحجة وسطوع البراهين على صدق ما جاء به موسى ، يقول ابن عاشور : ((لمّا رأوا المعجزات التي هي حقٌّ ثابت وليست بتخيلات وتمويهات، وعلموا أنَّ موسى صادق فيما ادعاه، تدرجوا من مجرد الإباء المنبعث عن الاستكبار إلى البهتان المنبعث عن الشعور بالمغلوبية))[3]، وهنا يبدأ الصراع يتنامى شيئًا فشيئًا من خلال ما يبرزه الحوار الذي يصوره لنا القرآن بريشته التصويرية ممّا يعكس شناعة جريمتهم، ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا ﴾ [يونس: ٧٦]، هكذا بهذا التحديد ﴿ مِنْ عِندِنَا ﴾ حينها قالوا قولتهم العظيمة في حق الوحي : ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [يونس: ٧٦]، بهذا التوكيد المتبجح الذي يعكس الطبيعة المتغطرسة في فرعون وملئه، والذي يبين لنا الشبه بين قصة محمّد وموسى عليهما السلام في الدعوة؛ فالتُّهمة واحدة، ممّا يدلُ على أنَّ هذا الرفض هو ديدن المتكبرين في كل زمان ومكان، فرسول الله ﷺ قيل له ذلك أيضًا كما في الآية (٢) في بداية السورة ﴿ أَكَانَ

---

(١). ينظر : قصص القرآن الكريم : ٥٣٨ .

(٢). أفدت في هذا التقسيم ممّا جاء في كتاب : في ظلال القرآن : ٣ / ١٨١٣ .

(٣). التحرير والتنوير : ١١ / ٢٤٨ .

لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾ [يونس: ٢]، ويربط سعيد حوى هذا التشابه في التُّهمة بما يخدم السياق ومقصود السورة، فيقول : ((نلاحظ كيف أن القصة هنا تؤدي دورها في السياق العام لسورة يونس، فلو تذكرنا بداية سورة يونس فإننا نجد ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾ [يونس: ٢] فكما اتُّهِم محمّد ﷺ بالسحر بأبلغ صيغ التأكيد في الاتِّهام، اتُّهم موسى من قبلُ، فقصة موسى هنا تأتي لتؤدي دورها في نفي العجب من الإرسال، وفي تبيان المواقف الخاطئة من الرسل، ولتبين نهايات المكذبين الغابرين، لِيَحْذَر المكذبون الجدد))[1]، ونتيجة لهذا الاتِّهام يستمر الحوار بوتيرة متصاعدة، في إشارةٍ إلى اشتداد الصراع أكثر ممّا كان عليه قبلُ ليواكب التصعيد الفرعونيَّ، فيبين السياق استنكار موسى عليه السلام على فرعون وملئه هذه التُّهمة وهذه المقالة المستهجنة، فالساحر بسحره يزيف الحقيقة، ولا يستهدف هداية الناس، ولعظم هذه التُّهمة في حقّ الوحي يحذف السياق كلمة (السحر) عند إعادة مقالتهم، لوجود ما يدلُّ عليه قبله وبعده، ويضيف الألوسيُّ سببًا آخر للحذف، فيقول : ((والمقول محذوف ثقةً إيذانًا بأنَّه ممّا لا ينبغي أن يتفوه به ولو على نهج الحكاية))[2] ﴿ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [يونس: ٧٧]، ليكشف لنا بعد ذلك أنَّ هذه التُّهمة ليس لها أساس من الصحة في شيء، بل لها أغراض دنيوية وسياسية خوفًا على عروشهم ومكتسباتهم القائمة على معتقدات موروثة متهافتة[3]، ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ ﴾ [يونس: ٧٨]، وهذا الخوف نفسه الذي جعل مشركي مكة يرفضون الرسالة المحمّدية في تشابه مستمر بين النبيين الكريمين عليهما السلام، ثم يختتم المشهد بذلك الردّ السافر القاطع بعدم الإيمان بالله : ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [يونس: ٧٨] .

---

(١). الأساس في التفسير : ٥ / ٢٤٩٦ .

(٢). روح المعاني : ١١ / ١٦٤ .

(٣). ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٨١٤ .

المشهد الثاني : مشهد المباراة بين موسى عليه السلام والسحرة

لا يقف الصلف والغطرسة عند حدّ عدم الإيمان الشخصيّ بل يتعداه إلى منع أن يتسرب نور الإيمان إلى الرعية، فيطلب فرعون التحضير للمباراة بين موسى والسحرة؛ التي حُضِّرَ لها على جهة السرعة؛ لإيهام الناس أنَّ موسى ساحر مُزَيِّف للحقائق يدعي النبوة، ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يونس: ٧٩]، ولكن موسى عليه السلام يواجه هذا التهويل بكلِّ تحدٍّ وثبات ويقين بالنصر المؤزر بالوحي الذي لا يقف أمامه سحرُ سحرةِ فرعونَ؛ لأنَّ سحر هؤلاء زيف وتخييل، فمآله البطلان، ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يونس: ٨٠ – ٨٢]، فهذا التحدي من موسى لفرعون ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [يونس: ٨١] يشابه ذلك التحدي من نوح لقومه : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ ﴾ [يونس: ٧١]، ومن جهة أخرى يتبين لنا مدى التشابه أيضًا في السبب المانع من إيمان فرعون وملئه، وإيمان مشركي مكة بالوحي، فمنشأ ذلك هو راجع إلى الفساد، يقول ﷻ : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يونس: ٤٠] .

وفي هذا المشهد يتضح جليًّا قوة الحقِّ التي تتضاءل دونها كلُّ القوى، فلا التضليلُ ولا التزييفُ يحجب نور الوحي وسطوع براهينه ؛ فقد عرف الناس حقيقة الوحي الذي جاء به موسى عليه السلام، ونلحظ هنا أنَّ السياق يمضي دون أي تفاصيل (كمثل إيمان السحرة وتهديدهم بالصلب)؛ لأن السياق لا يقتضي ذلك في هذه السورة .

المشهد الثالث : إيمان الشباب الإسرائيلي

وبعد مشهد المباراة التي تغلب فيها الحقُّ على الباطل، يشتدُّ الصراعُ فتزداد العجرفة الفرعونية لتمنع الرعية بقوة التهديد والتعذيب من الإيمان بموسى عليه السلام، ولهذا لم يؤمن بموسى أحدٌ إلا الشباب الإسرائيلي في سرّ وخفاء خوفًا من بطش فرعون وملئهم من بني إسرائيل

الذين استمرأوا الذلَّ والمهانة أن يردعوهم عن الاتِّباع بموسى، ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يونس: ٨٣]، وأمام هذا الخوف من البطش الفرعونيِّ وملئهم، فلابدّ من تطمين القلوب وإزالة المخاوف بقوة الإيمان والتوكل عليه والاستسلام لأمره ﷻ ممّا يجعل المؤمن يستأنس به، فيقوى ويحْتَمل الأذى، ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [يونس: ٨٤ – ٨٥]، ثم يأمر الله نبيه موسى وأخاه هارون باتِّخاذ بيوت سرية للعبادة وإقامة الصلاة والتدريب والتنظيم، وهنا تبرز أهمية التعبئة الروحية في تربية الشباب على مبادئ الوحي والعقيدة، إلى جانب التعبئة النظامية؛ للثبات على الحقّ ومواجهة قوى الطغيان استعدادًا للخروج من مصر، مستأنسين ببشارة الله لهم بالنصر، ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّـَٔا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يونس: ٨٧]، يقول سيد قطب : ((وتلك هي التعبئة الروحية إلى جوار التعبئة النظامية، وهما معًا ضروريتان للأفراد والجماعات، وبخاصة قبيل المعارك والمشقات، ولقد يستهين قوم بهذه التعبئة الروحية، ولكن التجارب ما تزال إلى هذه اللحظة تنبئ بأن العقيدة هي السلاح الأول في المعركة، وأن الأداة الحربية في يد الجندي الخائر العقيدة لا تساوي شيئًا كثيرًا في ساعة الشدة))[1].

المشهد الرابع : دعاء موسى على فرعون

ولمّا كانت الأموال والمكتسبات الدنيوية وما ينتجانه من تعالٍ وغرورٍ سببًا مانِعًا، يستعمل في ترهيب الناس والرعية عن الإيمان بالله، كان لزامًا أن تُجرد هذه القوى الظالمة من وسائل إضلالها، ولهذا أخذ موسى يدعو ربه أن يُدَمِّر هذه الأموال، وأن يختم على قلوب هؤلاء، بحيث لا يؤمنون حتى يأتيهم العذاب، فاستجاب الله دعاءه، ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [يونس: ٨٨]، وعدم الإيمان حتى يروا

---

(١). في ظلال القرآن : ٣ / ١٨١٦ .

العذاب هي عقوبة في حدّ ذاتها، فلو رأى ما رأى من آيات الله، فإن قلبه لن يلين ولن يستجيب لنور الإيمان بسبب ما عليه من طمس وختم، وهذا ما تحقق فعلًا لفرعون، فقد أنزل الله آيات كثيرة على فرعون وقومه مثل (إرسال الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم)، ولكنَّهم في كلِّ مرة لا يؤمنون، ولكن هذه التفاصيل لا تُذكر هنا اختصارًا؛ لأجل الإسراع للوصول إلى العاقبة التي يركز عليها السياق في هذه السورة .

ولأهمية الاستقامة على هدى الوحي، طلب الله من موسى وهارون عليهما السلام عدم الاشتغال بإنجاز الوعد بإهلاك فرعون، فهو ناجزٌ ونافذٌ لا محالة، لأنَّ التفكير بذلك يؤدي إلى تثبط عزائمهم عن مواصلة الإعداد والتخطيط للخروج من مصر، ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [يونس: ٨٩]، يقول المراغي : ((أي: قال لهما عزَّ اسمُه قد قبلت دعوتكما في فرعون وملئه وأموالهم، فامضيا لأمرى واثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة إلى الحقِّ، ومن إعداد شعبكما للكفاح والجلاد والخروج من مصر، ولا تسلكا سبيل الذين لا يعلمون سنتي في خلقي، فيستعجلا الأمر قبل ميقاته، ويستبطئا وقوعه في حينه))[1].

المشهد الخامس: مشهد التنفيذ : غرق فرعون

وهنا ينقلنا السياقُ إلى المشهد الختاميِّ الذي استفردت به سورة يونس[2]، مشهد يتجلى فيه انتصار الحقّ على الباطل، في تصوير عجيب موجز للعاقبة الوخيمة التي تنتظر فرعون وجنوده، فلا مناص من إنفاذ سنته ﷻ في المكذبين، فلا القوة تنفع في هذه اللحظة، ولا التمتمة بالإيمان تُجدي شيئًا، مصداقًا لقوله ﷻ : ﴿ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٨٨]، فيبدأ المشهد باتِّباع فرعونَ نبي الله موسى ومن معه، وهو في كامل غطرسته وعدوانه وغيه، نحو مصيره المرسوم له، ولهذا عبر بالمصدرين اللذين يعربان حالا[3] ﴿ بَغْيًا وَعَدْوًا ﴾ للدلالة على تأكيد استحقاق فرعون وجنوده العقوبة، وهم متلبسون بالبغي والعدوان،

---

(١). تفسير المراغي : ١١ / ١٤٩ .

(٢). وردت إشارة مبهمة إلى خبر غرق فرعون في سورة طه، الآية : (٧٨) .

(٣). ينظر : روح المعاني : ١١ / ١٨١ .

فلما أحاطت به المياه من كلِّ حدبٍ وصوبٍ وأدرك أنه غارق لا محالة، سارع إلى الإيمان بالله، والاستسلام لربه، لكن أنّى له أن تقبل توبته، يقول ﷻ :﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠ ﴾ [يونس: ٩٠]، وهنا السياق بإبداعه الفنيّ يرتقي في تصويره مشهد الخطاب الموجه لفرعون، وقد فاته ساعة النجاة، يصوره وكأن الحدث حاضر أمامنا نشاهده بأم أعيننا مستعملًا الظرف ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ ﴾، حتى تصلَ العبرةُ إلى القلوب بأسهل طريق، ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١ ﴾ [يونس: ٩١]، هكذا تنفذ المشيئة الربانية في فرعون وجنوده، ولكي تكون العبرةُ حاضرةً أكثر في قلوب الناس نجّى الله جثة فرعون ليرتدع من بقي من الطواغيت في ذلك الزمان، ومن يأتي بعده على مدار الأزمان والدهور، ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ ﴾ [يونس: ٩٢]، وفي ذلك إشارة تعريض لمشركي مكة ليؤمنوا حتى لا يكون حالهم كحال فرعون حينما نتكبر وتعالى على الحقّ، يقول المراغي : ((ووجه العبرة في ذلك أنه يكون شاهدا على صدق وعد الله لرسله، ووعيده لأعدائهم كطغاة مكة التي أنزلت هذه الآيات لإقامة حجج الله عليهم قبل غيرهم))[1].

ولأهمية هذه العاقبة الخطرة التي وقع فيها هؤلاء المتغطرسون، يعقب الله تحذيرًا لكلِّ من تسول له نفسه أن يتعالى على الحق، ويترفع على الإيمان، وتعريضًا من خطورة الغفلة عن ذلك، ففرعون غفل عن الإيمان بما عنده من قوة وزينة، يقول ﷻ : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ [يونس: ٩٢] .

يتبين لنا من كلِّ هذه المشاهد الخمسة خطورة الغطرسة والاستقواء على الحقِّ، فكلُّ ذلك مآله إلى الخسران وسوء العاقبة، ولنا فيما حدث لفرعون وجنوده مثالٌ حيٌّ، وفي هذا يقول المراغي : ((أفردت قصة موسى وهارون مع فرعون وملئه وفصلت تفصيلًا وافيًا لما لها من شديد الخطر وعظيم الأثر، إذ فيها من العبرة أنَّ قوة الحق تثلّ العروش وتهدّ أركان

---

(١). تفسير المراغي : ١١ / ١٥١ .

الباطل وإن علا أصحابه، فقد كان الفلج والظفر لموسى على ذلك الطاغية الذي قال أنا ربكم الأعلى، وانتهى أمره بالغرق وصار مثلًا للآخرين))[1] .

ولمّا كانت هذه القصص مترابطة فيما بينها في بيان عاقبة التكذيب بالوحي، كان ما حدث لفرعون من طمس على قلبه وختم على فؤاده يشبه ما حدث للأقوام الذين كانوا بين موسى ونوح عليهما السلام حيث طبع على قلوبهم أيضًا، فلا غرابة إذن أن تأتي قصة موسى بعد قصة أولئك الأقوام، وفي هذا يقول البقاعيّ مبينًا هذا التناسب : ((﴿ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [يونس: ٧٤] في كلِّ زمن لكلِّ من تعمد العدو فيما لا يحل له، وهذا كما أتى موسى عليه السلام إلى فرعون فدعاه إلى الله فكذبه فأخبره أن معه آية تصدقه فقال له : ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٠٦]، فلما أتاه بها استمرَّ على تكذيبه، وكان كلما رأى آية ازداد تكذيبًا، وكان فرعون قد قوي ملكه وعظم سلطانه وعلا في كبريائه وطال تجبره على الضعفاء، فطمست أمواله وآثاره، وبقيت أحاديثه وأخباره، ولهذا أفصح سبحانه بقصته فقال : دالاً على الطبع : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَـٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [يـــونس: ٧٥]))[2].

ومن كلِّ ما سبق يتأكد لنا كيف تكون عناية الله لأوليائه المؤمنين وحمايته لهم على الرغم من قلتهم وضعفهم.

وقبل أن يسدل الستار على القصة بأكملها بعد تلك العاقبة المُخْزية لفرعون، يُلِمُّ السياق في إيجازٍ شديدٍ بحال بني إسرائيل الذين تنعموا بالإقامة الكريمة الآمنة وبالطيبات من الرزق بسبب إيمانهم بالوحي، ولكنَّ ذلك لم يَدُمْ بسبب فسقهم واختلافهم في دينهم ودنياهم، وبُعْدهم عن هدي الوحي، فالبُعد عن تعاليم الوحي مَهْلَكة كما حدث قبل قليل مع فرعون وجنوده، ولكن أين المعتبِر؟؟ ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [يـــونس: ٩٣]،

---

(١). تفسير المراغي : ١١ / ١٤٠ – ١٤١ .

(٢). نظم الدرر : ٩ / ١٦٨ .

يقول سعيد حوى معلقًا على تناسب القصص السابقة بمقصود السورة : ((في ذكر قصة موسى وفرعون في هذا المقطع تقرير لكون بعثة الرسل ليست عجبًا، وتحذير لمن يعاند الرسل، وتبشير لمن يسير على طريقهم بحسن المآل وحسن العاقبة، فإذا تذكرنا أنَّ هذا المقطع بدأ بقصة نوح عليه السلام، ثم بالإشارة إلى الرسل بعده، ثم بقصة موسى وهارون مع فرعون، يجتمع لنا في هذا المقطع مجموعة معان يتقرر فيها من خلال العرض القصصيّ أن من سنة الله إرسال الرسل، وأن من سنته عقوبة المكذبين، وأنْ يجعل العاقبة للمؤمنين، وفي ذلك إقامة حجة ودروس لأهل الإيمان))[1].

٤. قصة قوم يونس عليه السلام

وردت قصة يونس عليه السلام مع قومه في أربع سور[2]، وهي في هذا الموضع من سورة يونس تأتي في سياق زمنيّ مشحون بالهموم، وظرف عصيب على الدعوة كما بينا ذلك في أكثر من موضع لتخفف وتسري عن رسول الله ﷺ الذي يرى إعراض قومه عن الحقّ، وتبين له أن هذا الإعراض كائن ممن لم يأخذوا بأسباب الهدى، فختم على قلوبهم، ولهذا هم لن يؤمنوا، ولو رأوا ما رأوا من الآيات الباهرة حتي يروا العذاب الأليم، وقد رأينا منذ قليل ما حدث مع فرعون وجنوده ورأينا ما حدث قبلهم للأقوام الذين كانوا قبل موسى عليه السلام فكلهم لم يهتدوا بسبب أنهم حقت عليهم كلمة العذاب والهلاك، وفي هذا تأكيد لخطورة البُعد عن الوحي، فإن القلب يقسو ويصاب بالران الذي يحول دون الاهتداء والاعتبار يقول ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [يونس: ٩٦ – ٩٧]، وفي ذلك يقول سيد قطب : ((فلا ينفعهم الإيمان حينئذ لأنه لم يجئ عن اختيار، ولم تعد هنالك فرصة لتحقيق مدلوله في الحياة، ومنذ هنيهة كان أمامنا مشهد يصدق هذا، مشهد فرعون حين أدركه الغرق يقول : ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٩٠] ... فيقال له : ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ

---

(١). الأساس في التفسير : ٥ / ٢٥١٠ .

(٢). آيات السور الأربع هي : (يونس (٩٨)، والأنبياء (٨٧ – ٨٨)، والصافات (١٣٩ – ١٤٨)، والقلم (٤٨ – ٥٠)) .

﴿ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ ؟! [يونس: ٩١]))[1]، ولكن بارقة الأمل تعلو في سماء من اِنْفتحَ قلبُه للإيمان، وطلب الحقّ من جديد، كما حدث مع قوم يونس حينما رأوا أمارات العذاب، وعلامات الهلاك في الأفق، فتحوا قلوبهم للإيمان، فلامس شغاف أفئدتهم، فكُشِف عنهم العذاب المخزي الذي كان سَيَحِيْقُ بهم، ومتعهم الله في حياتهم إلى حين وفاتهم، هكذا هي الخاتمة الإيجابية حين يؤمن الإنسان بالوحي، يقول ﷻ : ﴿ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴾ [يونس: ٩٨]، ولعظيم هذا الموقف من قوم يونس عليه السلام يستعمل السياق أداة التحضيض (لولا) إهابة بالمكذبين ولا سيما مشركو مكة أن يراجعوا حساباتهم ويتعلقوا بخيوط النجاة، مقتدين بقوم يونس في المسارعة إلى التوبة في الوقت المناسب قبل حلول العذاب، ويرى سيد قطب أنَّ هذا هو الغرض المباشر من سياقة القصة هذا المساق[2]، فلا غرابة إذن أن يذكر اسم قوم يونس في القصة، بل لا غرابة أن تسمى السورة باسم نبيهم إكرامًا لهم على مسارعتهم في الإيمان، في حين نجد أنَّ أولئك الأقوام الذين كانوا بين نوح وموسى عليهما السلام طويت أسماؤهم بسبب ما هم عليه من اللجاجة والاتفاق على الكفر.

وثمة فرق بين قبول توبة قوم يونس وعدم قبولها من فرعون، ففرعون قالها وقد أحاط به الماء من كل حدب وصوب، ولهذا لم تقبل، مصداقًا لقوله ﷻ : ﴿ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ [النساء: ١٨]، يقول ابن عاشور : ((وإنما لم ينفعه إيمانه؛ لأنه جاء به في وقت حصول الموت، وهو وقت لا يقبل فيه إيمان الكافر ولا توبة العاصي))[3] بخلاف الحال عند قوم يونس الذين تابوا قبل حلول العذاب عليهم .

---

(١). في ظلال القرآن : ٣/١٨٢٠ .

(٢). في ظلال القرآن : ٣ / ١٨٢١ .

(٣). التحرير والتنوير : ١١ / ٢٧٧ .

الفصل الثَّاني

تناسب الأُسلوب والمتشابه اللفظي

وفيه ...

- المبحث الأول : تناسب الأسلوب
- المبحث الثاني : تناسب المتشابه اللفظي

المبحث الأول

تناسب الأسلوب

الأسلوب في اللغة :

حينما نتصفح أسفار اللغة، ومعجماتها، بحثًا عن مفردة (الأسلوب)، نلحظ أن دلالات هذه المفردة تطورت خلال الاستعمال اللغوي، وممَّنْ جمع بين تلك الدلالات ابن منظور بقوله : ((وَيُقَالُ للسَّطْر مِنَ النَّخِيلِ: (أُسْلوبٌ)، وكلُّ طريقٍ ممتدٍّ، فَهُوَ أُسلوبٌ . قَالَ: و(الأُسْلوبُ) الطَّرِيقُ، والوجهُ، والمَذْهَبُ، يُقَالُ : (أَنتم فِي أُسْلُوبِ سُوءٍ)، ويُجمَعُ على (أَسالِيبَ) . و (الأُسْلُوبُ) : الطريقُ تأْخذ فِيهِ، و(الأُسْلوبُ)، بِالضَّمِّ: الفَنُّ؛ يُقَالُ : (أَخَذ فلانٌ فِي أَسالِيبَ مِنَ الْقَوْلِ) أَي أَفانِينَ مِنْهُ))[١].

فمن هذا العرض اللغويّ ندرك أن الأسلوب يطلق على :

١. الجانب الماديّ الحسيّ الذي يسبق اللفظ؛ كالسطر من النخيل أو الطريق المسلوك أو الممتدّ .

٢. الجانب الفنيّ المعنويّ : صياغة المعاني على طريقة معينة أو فن أو مذهب من المذاهب، كما نقول : سلكت أسلوب فلان؛ طريقته، وكلامه على أساليب حسنة[٢].

وأما الأسلوب اصطلاحا فلم يخرج عن المدلول اللغوي، إذ عرّفه الجرجاني بقوله : ((والأسلوب الضرب من النظم والطريقة))[٣]، فالصياغة الأسلوبية عند الجرجاني قائمة على مراعاة مقتضيات علم النحو من قوانينه وأصوله[٤]، على وفق رؤيته الآتية : ((لا يتصوّر أن تعرف للّفظ موضعا من غير أن تعرف معناه، ولا أن تتوخّى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيبا ونظما، وأنك تتوخّى الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك، فإذا تمّ لك ذلك أتبعتها الألفاظ وقفوت بها آثارها، وأنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك، لم تحتج إلى أن تستأنف فكرا في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتّب لك بحكم أنّها خدم للمعاني، وتابعة لها، ولاحقة بها، وأن العلم بمواقع المعاني في النفس، علم بمواقع الألفاظ الدالّة عليها في

---

(١). لسان العرب : ٣ / ٢٠٥٨، (سلب)، ينظر : الكليات : ٨٣، وتاج العروس : (سلب) : ٧١/٣.

(٢). ينظر : البلاغة والأسلوبية : ١٠، و الأسلوب : ٤١ .

(٣). دلائل الإعجاز : ٤٢٨ .

(٤). ينظر : دلائل الإعجاز : ١٢٧ .

النطق))[1]، فالأسلوب أو النظم ليس عنده هو سبك المفردات أو تتابعها في النطق، بل هو أعمق من ذلك بكثير، فهو قائم على تعانق الدلالات والمعاني حسب ترتيبها في النفس ترتيبا خاضعا لمعاني النحو، ومن ثم كانت الألفاظ عنده أوعية للمعاني، وتابعة لها في مواقعها، وبعبارة أوضح، الأسلوب عند الجرجاني يبدأ بطريقة التفكير ثم بالأداء اللفظي مع توخي معاني النحو الذي يزدان به الأسلوب تألقا[2].

وقريب من تعريف الجرجاني ما ذهب إليه ابن خلدون حين عرف الأسلوب : ((عبارة عن المنوال الذي تنسج فيه التراكيب أو القالب الذي ترصّ فيه، ... وإنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص. و تلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب و أشخاصها و يصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب و البيان فيرصها فيه رصا كما يفعله البناء في القالب أو النساج في المنوال حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي))[3]، فابن خلدون يرى أن الأسلوب ((الأداء اللفظي المطابق للصورة الذهنية لمفهوم الأسلوب الناجم عن قوة الملكة في اللسان العربي الذي هو ثمرة الاعتماد على الطبع والتمرس بالكلام البليغ))[4]، وحقيقة الأمر أنَّ كلا التعريفين السابقين متقارب، فهما يعنيان بالصور الذهنية التي تتخمر في العقل والنفس ليتم سبكها في قوالب لفظية.

ولو أردنا أن نجمل وجهتي نظر هذين العالمين الجرجاني وابن خلدون إلى الأسلوب، فالأسلوب عند الجرجاني يرتكز على الطريقة الخاصة في ترتيب المعاني، بما تحتويه هذه

---

(١). دلائل الإعجاز : ١٠٥ .

(٢). ينظر : خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية : ٤٢/١ .

(٣). المقدمة: ٣ / ٢٧٩ .

(٤). تاريخ الأدب في عصره الذهبي : ١٠٣ – ١٠٤، نقلا عن خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية : ١ / ٤٣ .

الطريقة من إمكانات نحوية[١]، بينما الأسلوب عند ابن خلدون هو صورة ذهنية كما تقتضيها التراكيب المنتظمة[٢].

ومن كل ما سبق يتبين أن الأسلوب لا يخرج عن عنصرين مهمين؛ هما الألفاظ، والمعاني، فبهما يتكون الأسلوب، ثم يضاف إليهما طريقة صياغتهما التي يتميز بها كل أديب أو شاعر أو عالم أو باحث من الآخر، وعليه فالأسلوب هو طريقة صياغة الألفاظ المنتقاة والتراكيب المنسجمة مع بعضها بعضا لتترجم المعاني المنطبعة في الذهن والنفس، بهدف الإفادة أو التأثير في المتلقي، مع مراعاة مقتضيات الذوق الفني، والتطبيق العملي لقواعد اللغة.

(١). ينظر : الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم : ٤١ .

(٢). ينظر : الأسلوب البلاغي في القرآن الكريم : ١٢ .

الأسلوب القرآني

يتميز القرآن الكريم بأسلوبه الذي ينسق بتوازن عجيب بين عناصره : (اللفظ، والمعنى، والإيقاع الموسيقي، والصور والظلال)، وهو ما كان يسعى إليه أساطين اللغة، وأقحاح العرب أن يوجدوه من علاقة توازن بين اللفظ والمعنى في نظمهم وأشعارهم وخطبهم، حتى لا يكون عرضة للانتقاد، فلهذا كان بعضهم ينقِّحُ قصيدته حولًا كاملًا حتى يكون له ما أراد من التوازن بين اللفظ والمعنى، ولكنهم مع ذلك السعي يُخِلُّون بالتوازن المطلوب، ومما يروى في ذلك على خلفية عدم التوازن بين عناصر أساليبهم، هو ما أنشده حسان بن ثابت – قبل البعثة المحمدية – مفتخرا[١] :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بني العنقاء وابنـــي محرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

ولما سمع النابغة الذبياني إنشاده قال له : إنك لشاعر، لولا أنك قلَّلْتَ جِفانك، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن وَلَدَك، وقلت : (يلمعن في الضحى)، ولو قلت : (يبرقن بالدجى) لكان أبلغ في المديح، لأن الضيف بالليل أكثر طروقًا، وقلت : (يقطرن من نجدة دما)، فدللت على قلة القتل، ولو قلت : (يجرين) لكان أكثر لانصباب الدم))[٢]، فإذا كانوا ينقدون بعضهم بعضا في حال انعدام التناسب بين اللفظ والمعنى، فإن الغرابة ليس لها مكان في العقول حين نرى عجز العرب دون أن يأتوا بمثل أسلوب القرآن الكريم، فأسلوب القرآن – كما يصفه سيد قطب – هو ذلك ((التنسيق الذي يسمح لكل لفظ بأن يُشِعَّ شحنته من الصور ومن الإيقاع، والذي يؤلف إيقاعا متناسقا بين الألفاظ، وظلالا متناسقة كذلك من ظلال الألفاظ))[٣] .

وهذا التنسيق المعجز بين عناصر الأسلوب القرآني يجري على نسق واحد في كل الآيات والسور مكيها ومدنيها، قصيرة كانت أم طويلة، لا يختلف في قوة النظم ولا في إحكام السبك، وفي ذلك يقول الجرجاني : ((أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص

---

(١). ينظر : ديوان حسان بن ثابت : ٢١٩ .

(٢). خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية : ١ / ٥٩ – ٦٠ .

(٣). النقد الأدبي وأصوله ومناهجه : ٥٠ .

صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آية ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها، وفي مضرب كل مثل، ومساق كل خبر، وصورة كل عظة وتنبيه، وإعلام وتذكير، وترغيب وترهيب، ومع كل حجّة وبرهان، وصفة وتبيان، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، وعشرا عشرا، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة ينكر شأنها، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أحرى وأخلق، بل وجدوا اتساقًا بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظامًا والتئامًا، وإتقانًا وإحكامًا، لم يدع في نفس بليغ منهم، ولو حكّ بيافوخه السماء، موضع طمع، حتى خرست الألسن عن أن تدّعي وتقول، وخذيت القروم فلم تملك أن تصول))[1] .

وللأسلوب القرآني عدَّة مظاهر، ترفد تناسب الآيات بما يتوافق مع سياق السورة التي وردت فيها، وهذا ما نراه جليًّا في سورة يونس، فقد شاع فيها كثير من الأساليب .

تناسب التوكيد :

يخدم أسلوب التوكيد مقصود السورة في الرد على شبهات الكفار حول الوحي والقرآن الكريم، في حقبة اشتدّ فيها الأذى على الرسول ﷺ وصحبه رضوان الله عليهم، فكانوا بحاجة إلى ما يُذهب عنهم حزنهم وكربهم، ويشدّ من أزرهم .

والتوكيد : ((لفظ يتبع الاسْم الْمُؤَكّد لرفع اللّبْس وَإِزَالَة الاتساع))[2]، وهو ((تمكين معنى القول عند السّامع، وهو قسمان : لفظيٌّ ومعنويّ، فـ (اللّفظيّ) : إعادة المؤكِّد بلفظه ...، وهذا يكون في الأسماء، والأفعال، والحُروف، والمفردات، والجُمل، و (المعنويّ) : هو إعادة الشّيء المؤكَّد بما يدلّ على معناه))[3].

فائدة التوكيد : ((وجَدْوَى التأكيدِ أنك إذا كرّرتَ؛ فقد قررتَ المؤكَّدَ، وما عُلق به في نفسِ السامع، ومكّنتَه في قلبه، وأمطتَ شُبْهةً، رُبَّما خالجته، أو توهمتَ غَفْلةٌ وذَهابًا عمّا أنت بصَدده، فأزلتَه))[4].

---

(١). دلائل الإعجاز : ٩٤ .

(٢). اللمع في العربية : ٨٤ .

(٣). اللمحة في شرح الملحة : ٢ / ٧٠٥ .

(٤). شرح المفصل لابن يعيش : ٢ / ٢٢١ .

وللتوكيد صور متعددة يؤتى بها على حسب ما يقتضيه السياق، وبما يراعي حال المخاطب، فإذا كان المُخاطَب خالي الذهن، يتقبل ما يلقى عليه من دون إنكار أو شكّ أو تردد، فإنه يلقى إليه الخبر خاليًا من التوكيد، وإن كان المُخاطب في نفسه شكّ أو تردد، حسن تأكيد الخبر له؛ لإزالة ما بنفسه من شكّ، وإن كان المُخاطب منكرًا جاحدًا، فيجب أن يؤكد له الخبر بمقدار نكرانه وجحوده[١] .

وللتوكيد في سورة يونس عدة صور، جاءت بمختلف الطرائق بما يتناسب مع السياق في هذه السورة الكريمة، ومن بين هذه الطرائق :

١. التوكيد بـ (إنَّ)

(إنَّ) لها معان كثيرة، إلا أن الأصل المتجذر فيها الذي يدور معها حيثما وردت هو (التوكيد)، وفائدتها التوكيدُ : ((لمضمون الجملة، فإنّ قول القائل : (إنّ زيدًا قائمٌ) ناب منابَ تكرير الجملة مرتَيْن، إلَّا أن قولك : (إن زيدًا قائمٌ) أوْجَزُ من قولك: (زيدٌ قائمٌ زيدُ قائمٌ)، مع حصول الغرض من التأكيد))[٢]، فضلًا عن دلالة توكيد النسبة بين جزأي جملتها، ونفي الشك عنهما، يقول خالد الأزهري : ((وهما – إنَّ و أنَّ – لتوكيد النسبة بين الجزأين، ونفي الشك عنها، و نفي الإنكار لها، بحسب العلم بالنسبة والتردد فيها، والإنكار لها، فإن كان المخاطب عالمًا بالنسبة، فهما لمجرد توكيد النسبة، وإذا كان مترددًا فيها، فهما لنفي الشك عنها وإن كان منكرًا لها، فهما لنفي الإنكار لها، فالتوكيد لنفي الشك عنها مستحسن، ولنفي الإنكار واجب، ولغيرهما لا))[٣].

ومن أمثلة تناسب التوكيد بـ (إنَّ) في سورة يونس، قوله ﷻ : ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [يونس: ٤]، إذ وردت هذه الجملة القرآنية على إثر إثبات المعاد والمرجع إلى الله بعد الموت، ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ [يونس: ٤]، وهي قضية كبرى من مقتضيات الوحي الذي يشككون فيها وينكرونها، ولهذا السبب كان تأكيد الجملة بـ (إنَّ) لتثبيتها في نفوسهم بأنها حقيقة لا تشوبها شائبة شكّ، إلى جانب نفي الإنكار لنسبة الإعادة

---

(١). ينظر : البلاغة فنونها وأفنانها : ١ / ١١٥ .

(٢). شرح المفصل لابن يعيش : ٤ / ٥٢٦ .

(٣). شرح التصريح على التوضيح : ١ / ٢٩٤ .

إلى الله، ذلك لأن الإعادة أهون من البدء، فمن قدر على البدء يكون أقدر على الإعادة، كما يقول في آية الروم : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧]، يقول ابن عاشور : ((وموقع (إنَّ) تأكيد الخبر نظرًا لإنكارهم البعث، فحصل التأكيد من قوله : ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ أما كونه بدأ الخلق فلا ينكرونه))[1].

ومن تناسب التوكيد بـ (إنَّ) ما جاء في معرض اللجاج والعناد الذي يتَّسم به الطبع البشري على مدار التأريخ إزاء آيات الله الكونية التي كانت تتنزل عليهم تترى، ويرونها رأيَ العين، فيسارعون بالمفاجأة الغريبة، وهي المكر والاستهزاء والطعن فيها، ومواصلة العصيان، فينسبونها إلى الأسباب المادية جحودًا ونكرانًا، في مقام هو أدعى إلى الإيمان والطاعة والشكر، وهذا ما كان من مشركي مكة في مقابلة نعمة كشف القحط والجدب الذي ألمّ بهم، فقد قابلوا هذه النعمة بمكرهم واستهزائهم في الخفاء بالنبوة والوحي، حين نسبوها إلى الأنواء المناخية مكابرة، فقالوا : مطرنا بالأنواء، بعدما كانوا يلحون على الرسول ﷺ أن يدعو ربه ليكشف عنهم ما يجدون، وكان حريًّا بهم أن يشكروا لله هذه النعمة التي يَرقُّ لها القلب إجلالًا لكاشفها الذي يصرف هذه الآيات الدالة على استحقاقه العبادة، يقول الله ﷻ واصفًا هذا الطبع البشري الغريب : ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ﴾ [يونس: ٢١]، ولما كانت جريمة المكر بالآيات والتشكيك في الوحي والنبوة، عظيمةً، كان لابدّ من ردع هؤلاء، فجاء الخطاب مُباشرًا، يحمل في طيّاته التهديد والوعيد، بأن الله قد دبَّر لهم من قبلُ عقابَهم، وهو مُوقِعُه بهم، من قبل أن يدبروا ويمكروا، بل إنَّ مكرهم، إن كان لا يعلم عنه الرسول شيئًا، فهو مكشوف لله، لا يخفى عليه شيء منه، ومسجل عنده بواسطة ملائكته الحفظة ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [يونس: ٢١]، ولكي يكون للتهديد وقع في نفوس هؤلاء المنكرين المستهزئين أكد بـ (إنَّ) بكل ما تحمله من جَرَس صوتيٍّ شديدٍ، ويزداد التوكيد فخامةً بتعانقه مع ضمير العظمة في كلمة ﴿ رُسُلَنَا ﴾ بما فيه من دلالة الالتفات التي تنسجم مع دلالة الالتفات الأخرى في الفعل ﴿ تَمْكُرُونَ ﴾

---

(١) التحرير والتنوير : ١١ / ٩١ .

مبالغة في الإعلام بمكرهم[1]، إلى جانب دلالة الاستمرار والتجدد في الفعل المضارع ﴿ يَكْتُبُونَ ﴾ ، مما يجعل نبرات التهديد تشتدُّ، فتقرع قلوب هؤلاء المنكرين، يقول ابن عاشور : ((وجملة: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يونس: ٢١] استئناف خطاب للمشركين مباشرةً تهديدًا من الله، ... وتأكيد الجملة لكون المخاطبين يعتقدون خلاف ذلك، إذ كانوا يحسبون أنهم يمكرون بالنبي ﷺ وأن مكرهم يتمشى عليه ولا يشعر به فأعلمهم الله بأن الملائكة الموكلين بإحصاء الأعمال يكتبون ذلك. والمقصود من هذا أن ذلك محصي معدود عليهم لا يهمل، وهو إنذار بالعذاب عليه، وهذا يستلزم علم الله تعالى بذلك، وعبر بالمضارع في يكتبون ويمكرون للدلالة على التكرر، أي : تتكرر كتابتهم كلما يتكرر مكرهم))[2].

ومن صور تناسب التوكيد بـ (إنَّ) مجيئها بعد أداة التنبيه (ألا) في قوله ﷻ : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٦٢]، فالآية الكريمة تعالج ضيقًا نفسيًا، وهمًّا عميقًا يعتمل في نفس الرسول ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم بسبب ما يعانونه من الأذى والتهديد، في حقبةٍ حرجةٍ كما علمنا سابقًا، واقتلاع هذا الضيق بحاجةٍ إلى التطمين النفسيّ الذي يلمس حنايا النفس، فتُنْتَشَل من عقالها لمواصلة الدعوة في سبيل الله، مستأنسة بنصره ﷻ، وبالأمن من مخافة أعدائهم، ومع هذا السياق المشحون بالأسى يتناسب مجيء التوكيد بـ (ألا و إنَّ)، بما فيهما من دلالة التنبيه والتوكيد، مؤزرتين بالتركيب الإضافي ﴿أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ ، لتذهب هذه الأساليب بهذا الأنس الرباني والاطمئنان النفسيّ كلَّ مذهبٍ في هذه النفس المهمومة، يقول ابن عاشور : ((استئناف للتصريح بوعد المؤمنين وبتسلية النبي ﷺ على ما يلاقيه من الكفار من أذى وتهديد، إذ أعلن الله للنبي والمؤمنين بالأمن من مخافة أعدائهم، ومن الحزن من جراء ذلك، ولمّح لهم بعاقبة النصر، ووعدهم البشرى في الآخرة وعدًا لا يقبل التغيير ولا التخلف تطمينًا لنفوسهم، ...، وافتتاح الكلام بأداة التنبيه إيماء إلى أهمية شأنه، ...، ولذلك أكدت الجملة بـ (إنَّ) بعد أداة

---

(١). ينظر : اللباب في علوم الكتاب : ١٠ / ٢٩٠ .

(٢). التحرير والتنوير : ١١ / ١٣٤، وينظر : نظم الدرر : ٩ / ٩٧ .

التنبيه، وفي التعبير بـ ﴿أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ دون أن يؤتى بضمير الخطاب ... يؤذن بأن المخاطبين قد حق لهم أنهم من أولياء الله))[1].

ومن صور التوكيد بـ (إنَّ) أن يقترن أحد معموليها بـ (باللام) التي تفيد هي الأخرى التوكيد، مما يجعل التوكيد يقوى ويزداد، فتأتي في سياق المبالغة، يقول الدكتور فاضل السامرائي : ((فاجتماع إنَّ واللام يكون عند المبالغة في التوكيد))[2].

ومن الأمثلة على صورة تناسب التوكيد بـ (إنّ) و (اللام)، قوله ﷻ : ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣]، فلما كان السياق سياق الإخبار عن إيمان الفتيان الصغار بموسى ﷺ على خوف شديد، في زمن لم يدخر فيها فرعون جهدًا للتنكيل والتعذيب بكل من يفكر من رعيته في الإيمان[3]، أكدت الجملة بـ (إنّ) و (اللام) لتبرز مدى الخوف الذي كان يحيط بهؤلاء الفتيان، فضلًا عن تعليلها أحقيتهم في هذا الخوف والرعب، كيف لا، والحال أنَّ فرعون قد بالغ في علوه وتكبره وظلمه وفساده بالقتل وسفك الدماء لدرجة الإسراف[4]، ناهيك عن إفادة (إنَّ) و (اللام) تحقيق مضمون الجملة على أرض الواقع .

ومما يعضد المبالغة في توكيد هذا المعنى، دلالة التنكير في كلمة ﴿لَعَالٍ﴾، التي تفيد التكثير، إلى جانب تركيب الجار والمجرور ﴿لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ الذي يدل على تمكن صفة الإسراف في طبع فرعون، وكل ما سبق اكتنفته الجملة الاسمية التي بدورها تفيد ثبوت العلو والإسراف في فرعون، يقول ابن عاشور : ((جملة :﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [يونس: ٨٣]، في موضع الحال فهي عطف على قوله : ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾ [يونس: ٨٣]، وهي تفيد معنى التعليل لخوفهم من فرعون، أي : إنهم محقون في خوفهم الشديد، ...، إذ آمنوا في حال خوفهم من الملك مع قدرته على أذاهم، ومن

---

(١). التحرير والتنوير : ١١ / ٢١٥ – ٢١٦ .

(٢). معاني النحو : ١ / ٣٠١ .

(٣). ينظر : في رحاب التفسير : ١١ / ١٧٠٥ .

(٤). ينظر : تفسير أبي السعود : ٢ / ٧٠٠ .

مَلئهم، أي : قومهم، وهو خوف شديد، لأن آثاره تتطرق المرء في جميع أحواله حتى في خلوته وخويصته لشدة ملابسةِ قومه إياه في جميع تقلباته بحيث لا يجد مفراً منهم، ثم اتبعه ببيان اتساع مقدرة فرعون بيان تجاوزه الحد في الجور، ومَن هذه حالته لا يزَعه عن إلحاق الضر بأضداده وازع . وتأكيد الخبر بـ (إنَّ) للاهتمام بتحقيق بطش فرعون))[1].

٢. التوكيد بـ (اللام) الواقعة في جواب القسم :

من الأساليب الكثيرة التي يتخذها التوكيد في تقويته الكلام، أسلوب القَسَم، يقول سيبويه : ((اعلم أنَّ القَسَم توكيدٌ لكلامك))[2]، والغرض من هذا الأسلوب هو إزالة الشكّ عن المخاطب بإثبات الخبرِ المقسمِ عليه سواء في الإثبات أم النفي[3].

ولأسلوب القَسَم صورتان، هما :

الصورة الأولى : ظاهرًا أو صريحًا : وله عدة أنواع؛ منها، أن يصرح فيه بحرف القسم، كقوله ﷻ: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس:٥٣]، فلما كان السياق في هذه الآية للرد على أسئلة المكذبين المشككين بعذاب الآخرة الذي طالما حذرهم الرسول والوحي ﷺ أنه سيقع بهم إن لم يؤمنوا به، ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ﴾ ، جيء بأداة الجواب (إي) لتدل على تحقق المسؤول عنه (عذاب الآخرة)، ومما يعضد دلالة هذه الأداة (إي) أنه لا يقع بعدها إلا أسلوب القسم ﴿وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ ، وزيد هذا الردّ تحقيقًا وتقريرًا بالنفي الثابت المؤكد بالباء في الجملة الاسمية ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ ، فكان الردّ متناسبًا مع شدة إنكارهم وتشكيكهم بعذاب الآخرة، يقول أبو السعود : ((أُكّد الجوابُ بأتم وجوهِ التأكيدِ حسب شدةِ إنكارِهم وقوتِه وقد زيد تقريرًا وتحقيقًا بقوله عز اسمُه ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣] أي : بفائتين العذابَ بالهرب وهو لاحقٌ بكم لا محالة))[4].

---

(١). التحرير والتنوير : ١١ / ٢٦٠ – ٢٦١ .

(٢). الكتاب : ٣ / ١٠٤ .

(٣). ينظر : شرح المفصل لابن يعيش : ٩ / ٩٠ .

(٤). تفسير أبي السعود : ٤ / ١٥٤ .

الصورة الثانية : مضمرًا أو غير صريح : وهو المدلول عليه بجوابه المقرون باللام التي ابتدئ بها الكلام، وقد ورد في سورة يونس نوعان، هما :

أ. **إذا دلت عليه اللام الموطئة للقسم ولام جواب القسم** : كقوله ﷻ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يونس: ٢٢]، لما كان الموقف عَصيبًا على أهل السفينة الذين تقطعت بهم سبل النجاة؛ فقد فاجأتهم الريح العاصف، والموج من كل مكان، أخذوا يلحون في الدعاء لله مخلصين له في دعائهم؛ إنْ نجوا من الغرق فإنهم سيكونون من الشاكرين التائبين العابدين، ﴿ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ فأكدوا دعائهم وشكرهم بأربعة مؤكدات هي : اللام الموطئة، ولام القسم، ونون التوكيد، والتعبير بالجار والمجرور ﴿ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ ، وفي ذلك يقول الألوسي : ((واللام موطئة لقسم مقدر و﴿ لَنَكُونَنَّ ﴾ جوابه، والمشار إليه بهذه الحال التي هم فيها أي والله لئن أنجيتنا مما نحن فيه من الشدة لنكونن البتة بعد ذلك أبدًا شاكرين لنعمك التي من جملتها هذه النعمة المسؤولة والعدول عن (لنشكرنَّ) إلى ما في النظم الجليل للمبالغة في الدلالة على الثبوت في الشكر والمثابرة عليه))[1].

ب. **إذا دلت عليه (اللام) و (قد)**، كقوله ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [يونس: ١٣]، تحمل الآية الكريمة في طيّاتها إشارات الوعيد والتهديد بعذاب الاستئصال لمشركي مكة، مقرونة بضرب الأمثال لهم مما حلّ بالأمم السابقة؛ لأنهم جميعًا مشتركون فيما يقتضي إهلاكهم، وهو الظلم والكفر والغرور بتأخير العذاب، ولأجل تغليظ هذا التهديد في قلوب هؤلاء المنكرين العذاب، خوطبوا خطابًا مباشرًا على طريقة أسلوب الالتفات الذي يفيد مزيد التنبيه، وتوجيه أذهان المخاطبين إلى خطورة ما هم عليه من الكفر[2]، مؤكدًا ذلك

---

(١). روح المعاني : ١١ / ٩٨ .

(٢). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٢٧٠ .

بالقسم (باللام) و (قد) التي تفيد التحقيق، يقول أبو السعود : ((الخطاب لأهل مكة على طريقة الالتفات للمبالغة في تشديد التهديد بعد تأييده بالتوكيد القسمي))[1].

ومثاله أيضًا قوله ﷻ : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [يونس: ٩٤]، ظاهر الآية أن الرسول ﷺ وقع في الشك والريب فيما أنزل إليه، إلا أن الآية هدفت بهذا الخطاب الموجه إلى الرسول على سبيل الفرض والتقدير التعريض بالمشركين الذين لا ينفكون عن التشكيك في القرآن الكريم، ومنعًا لذلك اللبس الذي قد يفهم لأول وهلة من قراءة الآية، عُقِّبَت الآية بالتأكيد بـ (اللام و قد) ﴿ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ [يونس: ٩٤]، ومما يقوي إزالة هذه الشبهة عن الرسول الأعظم، دلالة النهي عن أن يكون من جملة الشاكين الذين يضطرون إلى السؤال ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [يونس: ٩٤ – ٩٥]، يقول محمد رشيد رضا : ((ومما يؤكد كون السؤال مفروضًا فرضًا قوله : ﴿ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ فهذه الشهادة المؤكدة بالقسم من ربه، تجتث احتمال إرادة الشك والسؤال بالفعل من أصله، ويزيدها تأكيدا قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ أي : من فريق الشاكين الذين يحتاجون إلى السؤال، وهذا النهيٌ والذي بعده يدلان على أن فرض وقوع الشك والسؤال فيما قبلهما عنه تعريض بالشاكين الممترين والمكذبين له ﷺ من قومه))[2].

٣. التوكيد بـ (الحال، الحال المؤكدة)

من أساليب التوكيد في الكلام، التوكيد بالحال، وتسمى : (الحال المؤكدة)، وهي : ((التي تجيء على إثر جملة ، عقدها من اسمين لا عمل لهما ، لتوكيد خبرها وتقرير مؤداه ، ونفي الشك عنه، وذلك قولك : (زيد أبوك عطوفاً)، و (هو زيد معروفاً)، وهو

---

(١). تفسير أبي السعود : ٤ / ١٢٦ – ١٢٧ .

(٢). تفسير المنار : ١١ / ٤٠٥ .

الحق بيناً، ألا تراك حققت بالعطوف الأبوة، وبالمعروف والبين أن الرجل زيدٌ ، وأن الأمر حق، وفي التنزيل: ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا ﴾ [البقرة: ٩١]))[1].

وتنقسم الحال المؤكدة على ثلاثة أقسام :

أ. **المؤكدة لعاملها** : ((وهي كل وصف وافق عامله إما معنى دون لفظ في نحو : (لا تعث في الأرض مفسدًا)، و﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥]، أو معنى ولفظًا نحو: ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ﴾ [النساء: ٧٩]))[2].

ومثال ذلك في سورة يونس قوله ﷻ: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [يونس: ٤٧]، لما كانت مشاقة الرسل عليهم السلام الذين يبلغون رسالات ربهم، جرمًا عظيمًا، وخطرًا وبيلًا، يستدعي معاقبة المكذبين المعاندين، والفصل بينهم بالعدل والقسط، خيف أن يفهم من فحوى الجملة الكريمة : ﴿ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ﴾[3] بأن القضاء والعذاب سيكون شديدًا مبالغا فيه، مع أن الآية نفسَها أشارت إلى قضية العدالة : ﴿ بِٱلْقِسْطِ ﴾ ، ولكي ينتفي هذا الفهم تمامًا جيء بالحال : ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ، توكيدا لعاملها الذي هو : ﴿ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ﴾ ، للدلالة على أنّ القضاء هنا قضاءٌ عَدْلٌ وفاقًا على قدر الجرم، لا يشوبه ظلم ولا إفراط ولا تفريط، وفي هذا التركيب بأجمعه : ﴿ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ إشارة تحذير وإنذار إلى مشركي مكة من مخالفة هدي الرسول ﷺ؛ لأنه قائم على العدل وعدم الظلم، يقول ابن عاشور : ((ولما أشعر قوله : ﴿ قُضِىَ بَيْنَهُم ﴾ بأن القضاء قضاء زجر لهم على مخالفة رسولهم وأنه عقاب شديد يكاد من يراه أو يسمعه أن يجول بخاطره أنه مبالغ فيه أتي بجملة ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ،

---

(١). شرح المفصل لابن يعيش : ٢ / ٦٤ .

(٢). حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ان مالك : ٢ / ٢٧٥ .

(٣). للمفسرين قولان في تفسير القضاء لا يخرجان عن مدلول النجاة والهلاك العادلين؛ فمنهم قالوا : إن المراد به في الدنيا، نجاة الرسول والمؤمنين له ، وإهلاك المكذبين، بعدما بلغ رسولهم المرسل إليهم رسالته، ومنهم من قال : بأن المراد بالقضاء ما يكون في الآخرة من إدخال الرسول والمؤمنين الجنة، وإدخال المكذبين النار، بعدما يشهد عليهم الرسول. ينظر : البحر المحيط : ٥ / ١٦٤ .

وهي حال مؤكدة لعاملها الذي هو ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ للإشعار بأن الذنب الذي قضي عليهم بسببه ذنب عظيم))[1].

ب. **المؤكدة لصاحبها** : ((وَهِي الَّتِي يُسْتَفَاد مَعْنَاهَا من صَرِيح لفظ صَاحبهَا))[2] كقولك : (جَاءَ النَّاس قاطبة أَو كَافَّة أَو طرا)، كقوله ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾[البقرة: ٢٠٨]، فـ ﴿كَآفَّةً﴾ حال مؤكدة للضمير في ﴿ٱدْخُلُواْ﴾.

ومن تناسب الحال المؤكدة لصاحبها في سورة يونس، قوله ﷻ : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس: ١٥]، فالحال هنا ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ حال مؤكدة لصاحبها[3]، وهو : ﴿ءَايَاتُنَا﴾ إلى جانب أنَّها حال لازمة، وفي ذلك دلالة على أن البيان والوضوح ملازم آيات القرآن الكريم، لا ينفكُّ عنها في جميع الأحوال، ومما يقوي هذه الدلالة هو مجيء الفعل المضارع :﴿ تُتْلَىٰ﴾ الذي يفيد الاستمرار والتجدد، مبنيّا للمجهول، يشير إلى وضوح هذه الآيات التي لا تحتاج إلى تعيين تالٍ لها[4]، مع إضافة هذه الآيات إلى ضمير العظمة، كل ذلك، فيما يبدو لي، يعضد سرّ مجيء الحال مؤكدة لصاحبها، وهو التعجيب من حال هؤلاء المنكرين الذين يطرحون طلبات غريبة وعجيبة؛ كطلب الإتيان بقرآن غير هذا القرآن أو تبديله، وهذا ما أشار إليه ابن عاشور بقوله : ((ووصف الآيات بـ ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ لزيادة التعجيب من طلبهم تبديلها لا بطلب تبديله إذ لا طمع في خير منه))[5].

---

(١). التحرير والتنوير : ١١ / ١٨٨، وينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ / ١١٢ .

(٢). شرح شذور الذهب / ٢٧١ .

(٣). يقول أبو حيان في آية سورة مريم التي ورد فيها أيضًا ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ حالًا مؤكدة لصاحبها : ((وبينات حال مؤكدة لأن آياته تعالى لا تكون إلا بهذا الوصف دائما)) البحر المحيط : ٦ / ١٩٨ ، وهو ما ينطبق على هذه الحال في سورة يونس .

(٤). ينظر : تفسير الوسيط للقرآن الكريم : ٧ / ٤٠ .

(٥). التحرير والتنوير : ١١ / ١١٦ .

ومنه أيضًا قوله ﷻ : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩]، فالآية جاءت في سياق بيان أن الإيمان والاقتناع به يدور في فلك المشيئة الربانية؛ فلو أراد الله ﷻ أن يجعل الناس مجتمعين على الإيمان به على عمومهم واختلاف مشاربهم، لا يشذّ أحد منهم، لما كان لهم الخيار في عدم الإيمان به، ولمّا كانت دلالة الاسم الموصول ﴿ مَن ﴾ قد تحتمل العموم العرفي والعموم الحقيقي، جيء بالحال ﴿ جَمِيعًا ﴾ لتُؤكدَ عموم أفراد صاحبها على وجه الحقيقة[١] في عدم قدرة أيٍّ منهم على الخروج على هذه المشيئة الربانية في الاجتماع على الإيمان بالله في وقت واحد، ولكن الله ﷻ لم يشأ ذلك؛ لأنه خلق الإنسان مستعدًا للخير والشرّ، وللهدى والضلال[٢] .

ويبدو لي أن هذه الحال المؤكدة تدلُّ على تخفيف العبء النفسي الناتج عن الرغبة الجامحة لدى الرسول ﷺ في إقناع الناس جميعًا بالرسالة والوحي؛ فإذا كان الله ﷻ القادر على إكراههم وجمعهم على دين واحد، لا يودّ ذلك؛ لأنه خلاف حكمته، كما توضحه آية سورة البقرة : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فكيف بك يا محمد تود إكراههم عليه، بدليل ما ختمت به الآية ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يونس: ٩٩]؛ إذ تقديم المسند إليه ﴿ أَفَأَنتَ ﴾ على المسند الفعلي ﴿ تُكْرِهُ ﴾ يوحي بتقوية صدور الإكراه من الرسول ﷺ، وهذه التقوية هي محل الإنكار فقط [٣]، ولكنه إنكارٌ في صالحه ليخفف عن نفسه هَمّ هداية الناس جميعا، إنكارٌ يحمل في طياته الثناء عليه لما بذله من جهد في الدعوة، يقول ابن عاشور : ((وهذا تعريض بالثناء على النبي ومعذرة له على عدم استجابتهم إياه، ومن بلغ المجهود حقّ له العذر))[٤].

ت. **الحال المؤكدة لمضمون الجملة** : ((هي التي يستفاد معناها من مضمون الجملة قبلها))[٥]، كقوله ﷻ : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢]، فجملة : ﴿ لَا

---

(١). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ٢٩٢ .

(٢). ينظر : فتح القدير : ٢ / ٦٦٢ .

(٣). ينظر : روح المعاني : ١١ / ١٩٤ .

(٤). التحرير والتنوير : ١١ / ٢٩٣ .

(٥). معاني النحو : ٢ / ٢٦٨ .

﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢] حال مؤكدة لمضمون الجملة قبلها[١]، وشرط الجملة : أن تكون اسمية وجزآها معرفتان جامدان[٢] .

ومن أمثلة تناسب الحال المؤكدة لمضمون الجملة في سورة يونس، قوله ﷻ : ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [يونس: ٣٧]، فالحال المؤكدة لمضمون الجملة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ، إذ لما كانت الآية الكريمة تنفي بأبلغ أسلوب أن يكون هذا القرآن مفترى من غير الله ﷻ جيء بالحال مؤكدة لمضمون هذه الجملة؛ لإزالة أي شائبة شك تثار حول القرآن الكريم في ذاته، ولا سيما أنه من الله ﷻ .

ومن تناسب التوكيد بالحال المؤكدة قوله ﷻ : ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يونس: ٦٥]، فالحال ﴿جَمِيعًا ﴾ مؤكدة لمضمون الجملة : ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ ﴾ لبيان اختصاص الله ﷻ بجميع جنس العزة اختصاصًا حقيقيًّا لا مبالغة فيه[٣]، لا يملك أحد منها شيئًا إلا بمقدار ما يؤتيه الله لمن يشاء، وهذا التوكيد يتناسب وحالَ الرسول ﷺ الذي يعتصر قلبه حزنًا وأسًى بسبب تبجح المشركين بعزتهم وقوتهم، فيقولون : إنما العزة للكاثر، فيكون هذا التوكيد بمثابة التسلية التي تضفي الأمن والاطمئنان بنصر الله ﷻ على قلبه صلوات الله وسلامه عليه .

٤. التوكيد بـ (المصدر)

المصدر : ((كل اسم دل على حدث وزمان مجهول وهو وفعله من لفظ واحد والفعل مشتق من المصدر فإذا ذكرت المصدر مع فعله فضلة فهو منصوب تقول قمت قياما وقعدت قعودا))[٤]، وهذا التعريف ينطبق على صورة واحدة من صور المصدر، ألا وهي

---

(١). ينظر : شرح التصريح على التوضيح : ١ / ٦١١ .

(٢). شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك : ٢ / ٢٧٧ .

(٣). ينظر : التحرير والتنوير : ١١/ ٢٢٣ .

(٤). اللمع في العربية : ٤٨ .

صورة المفعول المطلق الذي قد يأتي لغرض معنوي؛ لتأكيد عامله أو بيان نوعه أو بيان عدده[١].

ومن تناسب المفعول المطلق في سورة يونس، قوله ﷻ : ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يونس: ٣٦]، فالآية الكريمة تأتي في سياق النعي على معتقدات المشركين التي هي من الضعف بمكان؛ لأنها قائمة على الأوهام وليس على البرهان؛ فتجدهم يظنون مثلًا أن الأصنام والأوثان تستحق العبادة، وهي لا تملك القدرة على هداية الضال والحيران بل هي بحاجة إلى من يهديها ، ثم لا يتأكدون من صحة ذلك، ويظنون أن القرآن من صنع محمد ﷺ ثم لا يتحققون من قدرته على ذلك، ويظنون أن الله لا يوحي إلى رجل منهم، ثم لا يبحثون لماذا لا يكون ذلك[٢]، فهؤلاء إذن يتبعون الظنون، ولهذا جيء بالمفعول المطلق ﴿شَيْئًا﴾ مؤكدًا لعامله ﴿لَا يُغْنِي﴾ ؛ للتوكيد على اهتراء معتقداتهم وعبادتهم؛ ذلك لأنَّ الظن لا يغني شيئًا من الإغناء، ولو قليلا، ولن يكون أبدًا بديلا من اليقين في شيء مما يطلب فيه اليقين كالدين والعبادة [٣]

وقد يأتي المصدر بعد حذف عامله مؤكدًا لنفسه[٤]، إذا كانت قبله جملةٌ مضمونُها كمضمونِه[٥]، كما في قوله ﷻ : ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ [يونس: ٤]، لمّا تضمنت الجملة القرآنية إثبات الحشر والرجوع إليه الذي طالما كانوا ينكرونه ويكذبون الرسول ﷺ لأجله، جيء بالمصدر ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ توكيدًا لما تضمنته الجملة قبله من معنى الوعد بإرجاعهم، وهو نفسه مضمون وعد الله، يقول ابن عاشور : ((وانتصب وعد الله على المفعولية المطلقة توكيدا لمضمون الجملة المساوية له، ويسمى موكدًا لنفسه في اصطلاح النحاة لأن مضمون إليه مرجعكم الوعد بإرجاعهم إليه، وهو مفاد وعد الله))[٦] بينما

---

(١). ينظر : شرح الأشموني : ١ / ٢٠٨ .

(٢). ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٧٨٤ .

(٣). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٣٠٩ .

(٤). ينظر : شرح كافية ابن الحاجب : ١ / ٢٨٧ .

(٥). ينظر: النحو العربي، أحكام ومعان : ١ / ٤٦١ .

(٦). التحرير والتنوير : ١١ / ٩٠ – ٩١ .

المصدر ﴿حَقًّا﴾ قد يحتمل أن يكون توكيدًا للجملة ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ ، وفي ذلك يقول الشوكاني مبينًا فائدة هذا التوكيد : ((وَانْتِصَابُ وَعْدَ اللَّهِ عَلَى الْمَصْدَرِ، لِأَنَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٤] مَعْنَى الْوَعْدِ، أَوْ هُوَ مَنْصُوبٌ بِفِعْلٍ مُقَدَّرٍ، وَالْمُرَادُ بِالْمَرْجِعِ: الرُّجُوعُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ إِمَّا بِالْمَوْتِ، أَوْ بِالْبَعْثِ، أو كل وَاحِدٍ مِنْهُمَا، ثُمَّ أَكَّدَ ذَلِكَ الْوَعْدَ بِقَوْلِهِ : ﴿حَقًّا﴾ فَهُوَ تَأْكِيدٌ لِتَأْكِيدٍ، فَيَكُونُ فِي الْكَلَامِ مِنَ الْوِكَادَةِ مَا هُوَ الْغَايَةُ فِي ذَلِكَ))[١]، كما يحتمل أن يكون توكيدًا للجملة ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾[٢]، وفي كل ذلك تمكين وتأكيد لعقيدة البعث والنشور في الأذهان، وأنها ليست من الأوهام.

٥. **التوكيد اللفظيّ** : يكون ((بِإِعَادَة اللَّفْظ الأول أَو مرادفه، وَهُوَ أحسن فِي الضَّمِير الْمُتَّصِل والحرف مُفردًا كَانَ أَو مركبًا مُضَافًا أَو جملَة أَو كلَامًا نكرَة أَو معرفَة ظَاهرًا أَو مضمرًا اسْمًا أَو فعلًا أَو حرفًا (وَلَو ثَلَاثًا) نَحْو ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢١ – ٢٢]، وقوله : (أَنْتَ بِالْخَيرِ حَقِيقٌ قَمِنُ[٣] ...)))[٤] .

ومن تناسب التوكيد اللفظيّ في سورة يونس قوله ﷻ : ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [يونس: ٣٤]، فتكرار الجملة ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ﴾ [يونس: ٣٤] في السؤال والجواب لأجل توكيد استحقاق الله للربوبية؛ لأنه القادر وحده على بدء الخلق ثم إعادته، فمن كان كذلك فهو الأولى بالربوبية والعبودية، يقول ابن عادل : ((وإنَّما أتى بالجواب جملة اسمية، مصرَّحاً بجزأيها، مُعَاداً فيها الخبر، مطابقاً لخبر اسم الاستفهام؛ للتأكيد، والتَّثبيتِ))[٥]، ومما يقوي هذا التوكيد مجيء

---

(١). فتح القدير : ٢ / ٥٩٧ .

(٢). الكشاف : ٣ / ١١٥ .

(٣). قمن تعني : حقيق : ينظر : المصباح المنير : ٢ / ٥١٧، (قمن) .

(٤). همع الهوامع : ٣ / ١٤٣ .

(٥). اللباب في علوم الكتاب : ١٠ / ٣٢٣ .

المسند إليه ﴿ٱللَّهُ﴾ مُقدّمًا على المسند ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ لأجل دلالة الحصر والقصر[1].

ومن تناسب التوكيد أيضًا قوله ﷻ : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس: ٨٨]، فقد تكرر في هذه الآية الكريمة النداء ﴿رَبَّنَآ﴾ ثلاث مرات، ممّا يفيد التوكيد الذي يتناسب ومقام الدعاء والاستغاثة والتضرع الذي يستدعي التكرار اللفظي[2]، ويعكس الحالة النفسية التي تخالج موسى ﷺ من الضيق والأذى الذي يصيبه وقومه من فرعون وملئه.

٦. **التوكيد المعنوي** : هو التابعُ المقرّرُ معنى متبوعهِ في نفسِ السامعِ شمول النسبة أو أصل النسبة[3]، ويأتي على نوعين كما يفهم ذلك من التعريف السابق، يوضحهما ابن مالك بقوله : ((أحدهما: الذي قُصِد به رفعُ توهم السامع أن المتكلم حذف مضافًا وأقام المضاف إليه مقامه، نحو: (قتل العدوَّ زيدٌ نفسه)، فبذكر (النفس) علم السامع أن (زيدًا) باشر القتل وحده، ولولا ذلك لأمكن اعتقاد كونه آمرًا لا مباشرًا، والثاني : أن يقصد به رفع توهم السامع أن المتكلم وضع العام موضع الخاص، نحو قولك : (جاء بنو فلان كلهم)، لم يرد أن يخص بالمجيء بعضًا دون بعض، ولولا ذلك لأمكن اعتقاد غير ذلك))[4]، ويقول ابن يعيش في فائدة هذا التوكيد : ((والتأكيدُ المعنويّ إنّما هو لتمكينِ معنَى الاسم، وتقريرِ حقيقته، وتمكينُ ما لم يثبت في النفس مُحالٌ))[5].

ومن تناسب التوكيد المعنويّ في سورة يونس قوله ﷻ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس: ٤٤]، فالتوكيد المعنوي ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ يقرر ويؤكد نسبة الظلم إلى الناس وحدهم دون غيرهم من سائر أنواع الحيوان، ذلك لأنهم يوقعون عقاب

---

(١). ينظر : روح المعاني : ١١ / ١١٣ .

(٢). البحر المحيط : ٥ / ١٨٥ .

(٣). الحدود في علم النحو : ٤٧٢، ينظر : شرح كافية ابن الحاجب : ٢ / ٣٨٣ .

(٤). شرح التسهيل لابن مالك : ٣ / ٢٨٩ .

(٥). شرح المفصل لابن يعيش : ٢ / ٢٢٧ .

ظلمهم على أنفسهم بالكفر، حين يعطلون مدارك الهداية التي وهبهم إياها ربهم ﷻ لاتِّباع الحقّ والوحي في الاعتقاد والهداية في الأعمال[1]، فالظالم الحقيقي هو الإنسانُ نفسُه، أما الله ﷻ فلم يظلمهم شيئًا من الظلم فيما يخصُّ توفيره أسباب الهداية كالعقل والحواس ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا ﴾ [يونس: ٤٤] .

وهذا التركيب يحتمل أيضًا أن تكون ﴿أَنفُسَهُمۡ ﴾ مفعولًا به مقدمًا للفعل ﴿يَظۡلِمُونَ ﴾ ممّا يعطي دلالة قصر المظلومية على أنفسهم دون غيرهم أو دون ربهم الذي كفروا به، يقول ابن عاشور : ((وتقديم المفعول على عامله؛ لإفادة تغليطهم بأنهم ما جنوا بكفرهم إلا على أنفسهم وما ظلموا الله ولا رسله فما أضروا بعملهم إلا أنفسهم))[2]، وهذه الدلالة تتعانق وتتناسب مع دلالة التوكيد المعنوي في تركيب جامع مانع .

ومن الأمثلة على تناسب التوكيد المعنويّ، قوله ﷻ : ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩]، فالتوكيد المعنويّ ﴿كُلُّهُمۡ ﴾ ، للتنصيص على الإحاطة والشمول والعموم المستفاد من الاسم الموصول ﴿مَن ﴾[3] لأجل رفع التوهم عن إيمان البعض دون الآخر، فيما لو أراد الله فَرَضًا أن يجبر مَنْ في الأرض على الإيمان به، فكلُّهم سيؤمنون قطعًا، دون أن يشذّ أحدٌ منهم .

وبعد كل هذه الأمثلة تَبَيَّن لنا كيف خدم أسلوب التوكيد بمختلف صوره مضامين السورة الكريمة في تناسب يشي بالنظم الرباني الفريد.

---

(١). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٣٢٦ .

(٢). التحرير والتنوير : ١١ / ١٨٠ .

(٣). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ٢٩٣ .

تناسب الإجمال والتفصيل

من ملامح التناسب الداخلي في النصّ القرآني تفصيلُ المُجْمل، ممّا يجعل النَّص يخدم بعضه بعضا في تماسك نصيٍّ تامٍّ.

فالإجمال في اللغةً : يأتي من (((أجملت الشَّيْء إِجْمَالًا) إذا جمعته عَن تفرقه وَأَكْثر مَا يسْتَعْمل ذَلِك فِي الْكَلَام الموجز يُقَال: أجمل فلَان الْجَواب))[1].

وأما التفصيل في اللغة : فهو ((التبيين))[2].

وأما اصطلاحا فـ ((الإجمال: إيراد الكلام على وجه يحتمل أمورا متعددة، و (التفصيل) : تعيين بعض تلك المحتملات أو كلها))[3].

وتتمثل روعة هذا الأسلوب في أن المعنى يُلقى على مرحلتين مختلفتين؛ الأولى يُلقى فيها مجملًا مُبهمًا على دفعة واحدة، والثانية يُلقى فيها مفصلًا موضحًا بالتدرج شيئًا بعد شيء، ممّا يجعل المعنى يتمكن في النفس خير تمكن، فضلا عن تشوق النفس إلى معرفة كنه هذا المعنى[4].

جاء أسلوب الإجمال والتفصيل في سورة يونس متعلقًا ببيان موقف المكذبين من القرآن الكريم، فضلا عن تعلقه بجانب القصص، وقد اتّخذ هذا الأسلوب في السورة شكلين : شكل المباشرة بدون فصل ما بين التفصيل والإجمال أو شكل التراخي، والفَصْل بينهما بآيات عديدة.

فمن تناسب الإجمال والتفصيل في سورة يونس، قوله ﷻ : ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [يونس: ٣٩]، فالآية الكريمة تنبئ عن موقف المكذبين إزاء القرآن الكريم، فقد سارعوا إلى التكذيب به بالظن بدون رويّة وتأمل وإحاطة به من جميع وجوهه ونواحيه ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ

---

(١). جمهرة اللغة : ١ / ٤٩١، (جمل) .

(٢). شمس العلوم : ٨ / ٥١٩٩، (التفصيل)، ينظر : الصحاح : ٥ / ١٧٩١، (فصل) .

(٣). التعريفات : ٩، الكليات : ٤٢ .

(٤). ينظر : البلاغة فنونها وأفنانها : ٥٠٠ .

﴿ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ ﴾، والتعبير بعدم الإحاطة بعلم هذا الكتاب العزيز تستدعي أن يكون تكذيب هؤلاء على درجات متفاوتة في الإنكار والتكذيب، فجاءت الآية : ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤٠ ﴾ [يونس: ٤٠]، لتفصل ما أجمل في الآية السابقة من بيان تفاوت إنكار المشركين بهذا الكتاب؛ فمنهم من يؤمن به بقلبه، ولكنه يكذبه في الظاهر عنادًا واستكبارًا، ومنهم من لا يؤمن به جهلًا وتبعيةً وتقليدًا[1]، والغاية من هذا التفصيل بعد الإجمال، هو تصوير مدى سذاجة المشركين وتخبطهم حين كذبوا بالقرآن الكريم، ولم يكونوا على رأي واحد في ذلك، وفي ذلك يقول ابن عاشور : ((عطف على جملة : ﴿ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ ﴾ [يونس: ٣٩]، لأن الإخبار عن تكذيبهم بأنه دون الإحاطة بعلم ما كذبوا به يقتضي أن تكذيبهم به ليس عن بصيرة وتأمل، وما كان بهاته المثابة كان حال المكذبين فيه متفاوتًا حتى يبلغ إلى أن يكون تكذيبًا مع اعتقاد نفي الكذب عنه، ولذلك جاء موقع هذه الآية عقب الأخرى موقع ... البيان للمجمل من عدم الإحاطة بعلمه))[2].

ومن تناسب التفصيل بعد الإجمال ما كان في قصص هذه السورة؛ فقد كانت قصة نوح عليه السلام وما بعدها من قصص، تفصيلًا لما أجمل في قوله ﷻ : ﴿ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٣ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٤ ﴾ [يونس: ١٣ – ١٤][3]، من حيث بيانُ عاقبة الإيمان بالوحي، وعاقبة التكذيب به .

وقد جاء هذا التفصيل ليَشُدّ النصَّ القرآنيَّ بعضه بعضًا على الرغم من التراخي بينه وبين موضع الإجمال؛ إذ فَصَلَتْ بينهما آيات، وما ذلك إلا لتمكين العبرة في النفس من خلال تفصيل قصص الأقوام الغابرة الذين حلّ بهم العذاب بسبب تكذيبهم بالوحي، والإهابةِ والتخويفِ لكل من يسلك مسلكهم من مشركي مكة، وغيرهم إلى يومنا هذا.

---

(١). تفسير المنار : ١١ / ٣٢٣ .

(٢). التحرير والتنوير : ١١ / ١٧٤.

(٣). التحرير والتنوير : ١١ / ٢٣٥ .

تناسب الاستئناف البياني :

يُعَدُّ أسلوب الاستئناف البياني سببًا من أسباب التناسب داخل النصّ القرآني، لما يمثله من أهمية كبيرة في الترابط الدلالي بين الآيات أو في الآية الواحدة .

فالاستئناف لغةً : مشتق من (أنف)، قال ابن فارس : ((الهمزة والنون والفاء أصلان منهما يتفرع مسائل الباب كلها: أحدهما أخذ الشيء من أوله، والثاني أنف كل ذي أنف. وقياسه التحديد فأما الأصل الأول فقال الخليل: (استأنفت كذا)، أي: رجعت إلى أوله، وائتنفت ائتنافا، ومؤتنف الأمر: ما يبتدأ فيه. ومن هذا الباب قولهم: فعل كذا آنفا، كأنه ابتداؤه. وقال الله ﷻ :﴿ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴾ [محمد: ١٦]، والأصل الثاني (الأنف)، معروف، والعدد (آنُفٌ)، والجَمْع (أُنُوفٌ)))[١].

وقد أجاد أبو البقاء الكفويّ حين ربط مفردة الاستئناف بالأصلين اللغويين اللذين أشار إليهما ابن فارس، فقال : ((الِاسْتِئْنَاف : هُوَ من الْأنف، لِأَن الْجَواب ذُو شرف وارتفاع، أَو من أنف كل شَيْء، وَهُوَ أَوله، أَو من أنف الْبَاب وَهُوَ طرفه، لِأَن الْجَواب كَلَام مُبْتَدأ مُسْتَقل وطرف من سُؤال))[٢] .

وأما الاستئناف اصطلاحا عند أهل المعاني فهو : ((ما وقع جوابًا لسؤال مقدر معنى كما قال المتكلم : (جاءني القوم)، فكأن قائلا قال : (ما فعلت بهم ؟) فقال المتكلم مجيبًا عنه : (أما زيد فأكرمته، وأما بشر فأهنته، وأما بكر فقد أعرضت عنه)))[٣].

فالاستئناف البيانيُّ يقوم على ربط أوصال الكلام بعضها ببعض ربطًا داخليًا قائمًا على الصلة المعنويّة، من خلال ما ينبعث من سؤال تشي به الجملة الأولى، فتقع الجملة الثانية جوابًا له، وتسمى الجملة المستأنفة، وبهذا يتحقق التناسب بين الجملتين، فالجملة الثانية مرتبطة بالأولى، ارتباطَ السؤال بالجواب، وليس ارتباطًا لفظيًّا ظاهريًّا كما في

---

(١). مقاييس اللغة : ١ / ١٤٦، (أنف) .

(٢). الكليات : ١٠٦ .

(٣). التعريفات : ١٨ .

الاستئناف بالفاء أو الواو[١]، وليس ارتباطًا إعرابيًّا؛ إذ كلتا الجملتين مستقلة بنفسها إعرابيًّا، وبهذا يمتاز الاستئناف البياني من الاستئناف الابتدائيّ الذي تكون فيه الجملة المستأنفة مستقلة عن الجملة التي قبلها إعرابيًّا ومعنويًّا[٢].

والاستئناف البيانيُّ علم لطيف خفيٌّ يكتنفه الغموض، لأنه واحد من أبواب علم الفصل والوصل في البلاغة، فهو يحتاج إلى إنعام النظر، وتدقيق البصر حتى تكتشف موضعه، وتسبر أغواره، فقد قال عبد القاهر الجرجاني فيه : ((واعلم أنّه ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول فيه : (إنه خفيّ غامض، ودقيق صعب) إلا وعلم هذا الباب، يعني : الفصل والوصل، أغمض وأخفى وأدقّ وأصعب ... وممّا هو أصل في هذا الباب أنك قد ترى الجملة وحالها مع التي قبلها حال ما يعطف ويقرن إلى ما قبله، ثم تراها قد وجب فيها ترك العطف، لأمرٍ عرض فيها صارت به أجنبية مما قبلها))[٣].

وللاستئنافِ البيانيِّ أسرارٌ بلاغيةٌ في حذف السؤال المقدر؛ كتنبيه السامع على موقعه، أو أنه لإغناء السامع عن السؤال، أو سماع شيء منه، فضلًا عن الاحتراز عن انقطاع الكلام، ناهيك عن فائدته في تكثير المعاني بتقليل الألفاظ، وذلك بتقدير السؤال وترك العاطف.[٤].

أقسام الاستئناف البياني :

يقسم الاستئناف البياني على قسمين رئيسين، هما :

القسم الأول : يكون بإعادة الاسم المتحدث عنه، كقولك : (أكثر من الصلاة على رسولِ اللهِ ﷺ، رسولُ اللهِ الرحمةُ المهداةُ)، فهنا نلحظ أن الجملة الأولى : (أكثر من الصلاة على رسولِ اللهِ) منفصلة عن الجملة الثانية : (رسولُ اللهِ الرحمةُ المهداةُ)؛ انفصالًا لفظيًّا لعدم وجود العاطف، وانفصالًا إعرابيًّا؛ إذ كل من (رسول الله) له موقعه الإعرابي الخاص به، ولكنهما متصلتان معنويًّا؛ لما تحمله الجملة الأولى من سؤال مقدر،

---

(١). ينظر : علم المعاني : ٣٧٩ .

(٢). ينظر : النحو الوافي : ٤ / ٣٩٠ .

(٣). دلائل الإعجاز : ٢٤٥ .

(٤). الإيضاح في علوم البلاغة : ١٥٩ .

تقديره (لماذا نكثر الصلاة على الرسول ؟)، فتكون الجملة الثانية جوابا له : (لأنه رسول الله الرحمة المهداة) .

القسم الثاني : يكون بإعادة صفة المتحدث عنه : مثال ذلك قوله ﷻ : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [البقرة: ٢ – ٣]، أعيدت الصفة دون الاسم : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ جوابًا على السؤال : (ما بالهم خصوا بذلك؟) الذي تشي به الجملة السابقة ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ، وهذا النوع أبلغ وأفضل من الأول؛ لانطوائه على بيان الموجب لتخصيصهم بالذكر[١].

ويقع الاستئناف البيانيُّ كثيرًا في الآيات القرآنية المبدوءة بالفعل (قال)، مفصولًا غير معطوف عليه بعاطف[٢]، ولا سيما في القصص لما ينطوي عليه من حكاية الحوار بين شخوص القصة؛ إذ كل طرف منهم يستأنف كلامه بكلمة (قال)، وكأن السامع يسأل : ماذا قال الآخر ؟ فيجاب بالاستئناف (قال)[٣]، كما أنه قد يقع في آية واحدة أو بعد عدة آيات.

ومن أمثلة تناسب الاستئناف البيانيِّ في سورة يونس، قوله ﷻ : ﴿ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ [يونس: ٧٠]، فقد جاء الاستئناف البيانيُّ بعد الآية السابقة ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝٦٩ ﴾ [يونس: ٦٩]، التي قررت أن المفترين على الله كذبًا بادّعائهم أن لله ولدًا، لا يفلحون ولا يفوزون بتحقق مطلوبهم من الافتراء والكذب، ولا ينجون من مكروه ينتظرهم في الدنيا والآخرة، فيَجيءُ الاستئناف البيانيّ ليرد على سؤالٍ قد ينشأ مما يتراءى للمسلمين من حياة رغيدة يعيشها هؤلاء المفترون، كأنه قيل : كيف لا يفلحون، وهم في بحبوحة من النعيم ؟ فيقال لهم : هو متاع حقير في الدنيا[٤]، لا يُعْبَأُ به، ولا يُعَدُّ شيئًا أمام ما ينتظرهم من العذاب الشديد في الآخرة بسبب كفرهم[٥]، فهناك تظهر حقيقة عدم الفلاح،

---

(١). ينظر : الجامع الكبير : ١٣٨ .

(٢). دلائل الإعجاز : ٢٥١ – ٢٥٢ .

(٣). ينظر : علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن الكريم : ٧٤ .

(٤). ينظر : البحر المحيط : ٥ / ١٧٥ .

(٥). ينظر : فتح القدير : ٢ / ٦٤٥ – ٦٤٦ .

وممّا يؤكد على ذلك مجيءُ كلمة ﴿ مَتَٰعٌ ﴾ منكرةً لتقليله، كما أن تقييده ﴿ فِي ٱلدُّنۡيَا ﴾ مؤكد بزوال هذا المتاع[1]، فضلًا عن ذلك الترقي والتصعيد في تهديد هؤلاء المفترين بواسطة حرف العطف ﴿ ثُمَّ ﴾ الذي يفيد التراخي الرتبي، يقول ابن عاشور : ((﴿ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ﴾ للتراخي الرتبي لأن مضمونه هو محقة أنهم لا يفلحون فهو أهم مرتبة من مضمون لا يفلحون، ... وجملة:﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ ﴾ [يونس: ٧٠] بيان لجملة: ﴿ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ﴾ [يونس: ٧٠]، وحرف (ثم) هذا مؤكد لنظيره الذي في الجملة المبينة على أن المراد بالمرجع الحصول في نفاذ حكم الله))[2].

والغاية من هذا الاستئناف البيانيِّ هو طمأنة المسلمين بنصره لهم، وهزيمة الكفر وأهله، ولا سيما أن هذه الآية وردت بعد آيات تحمل البشرى، وتسلّ الأكدار والأحزان من قلوب المؤمنين، يقول ﷻ : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤ وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٥ ﴾ [يونس: ٦٢ – ٦٥] .

ومن أمثلة الاستئناف البيانيِّ في القصص مبدوءًا بالفعل (قال)، قوله ﷻ : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ٧٧ ﴾[يونس: ٧٧]، جاءت هذه الآية بعد استكبار فرعون وملئه على الآيات التي أُيِّدّ بها موسى ﷺ، وبعد إعراضهم عن الإيمان، وتَقَوِّلِهم على الحقّ والوحي لمّا جاءهم من الله، بأنه سحر مبين، يقول الله ﷻ : ﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧٦ ﴾ [يونس: ٧٥ – ٧٦]، وفي مقابل هذه الفرية العظيمة ينبعث سؤال مقدر، كأنه قيل، فماذا قال لهم موسى ﷺ لَمّا قالوا ؟ فقيل : قال لهم على سبيل الاستفهام الإنكاريِّ التوبيخيِّ مدافعًا عن الحق الذي هو أبعد ما يكون

---

(١). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ٢٣٣ .

(٢). التحرير والتنوير : ١١ / ٢٣٣ – ٢٣٤ .

عن أباطيل السحر :﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا ﴾[1]، ولأجل الإمعان في توبيخ هؤلاء على مقالتهم العظيمة التي يكررونها في شأن الحقّ، أردف باستئناف بيانيّ[2] آخر من قِبَلِ موسى عليه السلام على سبيل الاستفهام الإنكاريِّ التوبيخيِّ أيضًا : ﴿أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴾، متبوعًا بجملة حالية؛ لبيان مدى التناقض بين ما جاء به موسى عليه السلام من الحق الذي فيه فلاح كلِّ مَنْ اتّبَعَهُ، وبين عدم فلاح الساحر بسحره في تحقق مطلوبه، وفي هذه الآية الكريمة قال أبو السعود : ((والحالُ أنه لا يُفلح فاعلُه أي لا يظفَر بمطلوب ولا ينجو من مكروه، فكيف يمكن صدورُه من مثلي من المؤيَّدين من عند الله العزيزِ الحكيم الفائزين بكل مطلب الناجين من كل محذورٍ))[3]، كما أن تقديم الخبر الذي هو مصبّ الإنكار[4] ﴿أَسِحۡرٌ ﴾ على المبتدأ ﴿هَٰذَا ﴾ فيه ما فيه من النعي الشديد على فرعون وملئه لاجترائهم على الحقِّ بدون رويّة ونظر .

ومن الأمثلة أيضًا أنه لمّا لم يتمكن فرعون وملؤه من ردّ الحُجَّة بالحُجَّة على موسى عليه السلام في أن هذا الحقّ والآيات التي أُيِّدّ بها موسى ليس سحرًا، يتبادر إلى ذهن السامع سؤال، كأنه قيل : فماذا قالوا لموسى عليه السلام حين ردّ عليهم بالحجة ؟ فقيل : قالوا، وهم عاجزون عن المحاجّة[5] : ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ٧٨ ﴾ [يونس: ٧٨]، والغاية من هذا الاستئناف هو بيان إفلاس فرعون وملئه من الحجة، وعجزهم عن المحاجّة حين لجؤوا إلى ما يلجأ إليه أهل الجهل والتقليد من التشبث بما كان عليه آباؤهم من الكفر والضلال بهدف تأليب الرعية على دعوة موسى عليه السلام، إلى جانب خوفهم على مراكزهم الدنيوية.

---

(١). ينظر : روح المعاني : ١١ / ١٦٤ .

(٢). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ٢٥٠

(٣). تفسير أبي السعود : ٢ / ٦٩٧ .

(٤). ينظر : تفسير أبي السعود : ٢ / ٦٩٧ .

(٥). ينظر : فتح القدير : ٢ / ٦٥٠ .

ومن تناسب الاستئناف البياني في الآية الواحدة، قوله ﷻ : ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [يونس: ٥٢]، فإن هذه الجملة القرآنية قد استؤنفت استئنافًا بيانيًّا، على إثر الجملة السابقة ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ﴾ [يونس: ٥٢] التي تنطوي على التقريع والوعيد الشديد بعذاب الخلد الدائم للذين ظلموا أنفسهم بالكفر بالوحي والوعد والوعيد[١]، فيتبادر سؤال في نفوس هؤلاء المهددين، فكأنَّهم قالوا : ما مقدار ذلك العذاب ؟، فيقال لهم : ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [يونس: ٥٢]، أي : على قدر فظاعة ما كسبوه من الأعمال[٢].

والغاية من هذا الاستئناف بيانُ العدالة الربانية، فلا جور ولا حيف على الكفار في العقاب، فضلًا عن تعليل تسليط العذاب عليهم[٣]، وفي هذه الآية قال الفخر الرازي : ((أنه تعالى أينما ذكر العقاب والعذاب ذكر هذه العلة، كأن سائلًا يسأل ويقول : يا رب العزة أنت الغنيُّ عن الكلِّ فكيف يليق برحمتك هذا التشديد والوعيد، فكأنَّه تعالى يقول : (أنا ما عاملته بهذه المعاملة ابتداءً بل هذا وصل إليه جزاءً على عمله الباطل)، وذلك يدل على أن جانب الرحمة راجح غالب، وجانب العذاب مرجوح مغلوب))[٤].

ومن الاستئناف أيضًا قوله ﷻ : ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾ [يونس: ١٠٢]، فقد جاءت هذه الجملة القرآنية في سياق عدم انتفاع الكفار بالتأمل في الآيات الكونية التي بثها الله في سمائه وأرضه؛ لأنهم كانوا لا يؤمنون بالله أصلًا[٥]، وكأنَّهم بعدم تأثرهم بهذه الآيات الكونية ينتظرون أن يحلّ بهم ما حلَّ بالأقوام الغابرة من العذاب الشديد؛ لأنه لم يَعُدْ هنالك شيءٌ آخر يُنْتَظَرُ[٦] ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ

---

(١). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٣٣٤ .
(٢). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ١٩٥ .
(٣). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ١٩٥ .
(٤). مفاتيح الغيب : ١٧ / ١١٥ .
(٥). ينظر : البحر المحيط : ٥ / ١٩٣ .
(٦). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٤١٠ .

﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [يونس: ١٠١ – ١٠٢]، إذن : ﴿ فَٱنتَظِرُوٓا۟ ﴾، وهذا الأمر فيه ما فيه من الوعيد الشديد والتهديد البليغ بما ستكون عليه عاقبتهم، وهنا يتولد سؤالٌ في أذهان هؤلاء المخاطبين المهددين، كأن سائلا منهم يسأل : ها نحن هؤلاء ننتظر ما تَعِدُنا به، وأنت ماذا تفعل ؟ فيقال لهم : ﴿ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ .

وسرُّ هذا الاستئناف البيانيِّ هو أنه يعكس الخوف الذي يَعْتَمِل في نفوس هؤلاء الكفار بعد ذلك التهديد، في مقابل اطمئنان الرسول ﷺ بالوعد المؤكد الصادق بالنصر المنتظر؛ إذ يستحيل عقلًا أن ينتظر العذاب، والمعية في الآية هي في أصل الانتظار، لا في الحاصل بالانتظار[1]، والتوكيد بـ (إنَّ) يزيل أي احتمال للشكّ قد ينتاب الرسول ﷺ في حصول هذا النصر، فضلًا عن ذلك الوعد بتنجية الرسول ﷺ صراحةً ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ١٠٣] .

(١). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ٢٩٩ .

المبحث الثاني

تناسب المتشابه اللفظيِّ

المتشابه في اللغة : مشتق من الجذر اللغوي (شبه)، بمعنى : المِثْل، قال ابن فارس : ((الشين والباء والهاء : أصل واحد يدل على تشابه الشيء وتشاكله لونا ووصفا. يقال : (شبه وشبه وشبيه)))[١]، ومنه : (المشتبه) بمعنى المُلْتَبس أو المُشْكل، قال ابن منظور : (((والمُشْتَبِهاتُ مِنَ الأُمور) : المُشْكِلاتُ، و (المُتَشابِهاتُ) : المُتَماثِلاتُ))[٢].

والأصل في المتشابه هو : اتفاق الأشياء في الظاهر، واختلافها في الباطن؛ كقوله ﷻ في وصف ثمر الجنة : ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥]، أي : مُتَّفقًا من الثمار في اللون والمرأى، ومختلفا في الطعم[٣]، قال ابن قتيبة : ((وأصل (التّشابه) : أن يشبه اللفظُ اللفظَ في الظاهر، والمعنيان مختلفان ... ومنه يقال : (اشتبه عليّ الأمر)، إذا أشبه غيره فلم تكد تفرّق بينهما، ... ثم قد يقال لكلّ ما غمض ودقّ متشابه، وإن لم تقع الحيرة فيه من جهة الشّبه بغيره، ... ومثل المتشابه (المشكل) . وسمي (مشكلا) : لأنه أشكل، أي : دخل في شكل غيره فأشبهه وشاكله))[٤].

ونلخص من كل ما سبق إلى أن المتشابه عند أهل اللغة يطلق على :

١. ما تماثل من الأشياء، وشابه بعضُها بعضًا . (التشابه الخفيف).
٢. ما غمض ودقّ من الأمور[٥] . (التشابه الشديد).

---

(١). مقاييس اللغة : ٣ / ٢٤٣، (شبه) .
(٢). لسان العرب : ٤ / ٢١٨٩، (شبه) .
(٣). ينظر : فتح القدير : ١ / ١٤٤ .
(٤). تأويل مشكل القرآن : ٦٨، ينظر : أساس البلاغة : ١ / ٤٩٣، (شكل) .
(٥). ينظر : بلاغة المتشابه اللفظيّ في تفسير البحر المحيط لأبي حيان : ١١.

وأما المتشابه في الاصطلاح فقد عرفه الزركشي بقوله : ((وهو إيراد القصة الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة، ويكثر في إيراد القصص والأنباء))[١] .

وممّا يجدر الانتباه له أن الزركشي ما قصد بالقصة المعنى المعروف للقصة القرآنية، كقصة موسى عليه السلام بل المراد بالقصة[٢] الأمر والموضوع مطلقًا، سواء ورد في أثناء قصة قرآنية أم غيرها، بدليل أن الزركشي لم يقصر المتشابه على القصص في تعريفه السابق الذكر، بل صرح بأنه يكثر في القصص أكثر من أي موضع آخر بدليل قوله في تعريفه السابق ذكره : (يكثر في إيراد القصص والأنباء)[٣] .

وعرَّفه الدكتور عبد الجواد خلف بقوله : ((هو أن يتكرر مجيء الآيات في القصة الواحدة من قصص القرآن، أو موضوعاته في ألفاظ متشابهة، وصور متعددة، و فواصل شتى، وأساليب متنوعة، تقديمًا وتأخيرًا، وزيادة ونقصًا، وذكرًا وحذفًا، وتعريفًا وتنكيرًا، وإفرادًا وجمعًا، وإيجازًا وإطنابًا، وإبدال حرف بحرف آخر، أو كلمة بكلمة أخرى، ونحو ذلك، مع اتحاد المعنى لغرض بلاغي، أو لمعنى دقيق يراد تقريره، لا يدركه إلا جهابذة العلماء وأساطين البيان))[٤].

أهمية المتشابه اللفظيِّ :

المشابه اللفظيُّ علم جليل الشأن، يُعَدُّ من علوم لطائف التفسير، وله علاقة وثيقة بعلم المناسبة، فكلاهما يدرس ظاهرة أسلوبية في القرآن الكريم، هي ظاهرة التشابه والتناسب الحاصلين بين الآيات، ببيان السياق الذي يكتنفها، والفروق اللفظيّة والمعنويّة بينها، ومن ثَمَّ يتجلى الإعجاز البلاغيُّ والبيانيُّ في أدقّ صوره، ولأهمية علم المتشابه اللفظيِّ اندفع كثير من العلماء والباحثين للكتابة فيه لفوائده الجمّة، منها على سبيل المثال لا الحصر :

---

(١). البرهان في علوم القرآن : ١ / ١١٢ .

(٢). الصحاح : ٣ / ١٠٥١، (قصص) : (والقِصَّةُ: الأمرُ والحديث) .

(٣). ينظر : مقدمة تحقيق كشف المعاني لابن جماعة : ٤٥ .

(٤). درة التنزيل (مقدمة المحقق) : ١ / ٥٥ – ٥٦، ينظر : مقدمة تحقيق كشف المعاني لابن جماعة : ٤٥ – ٤٦ .

١. إبراز دقة إعجاز الأسلوب البيانيِّ وروعته في اختيار ألفاظه وتراكيبه للتعبير عن المراد، فضلًا عن بيان أوجه التناسب بين الآيات المتشابهات مع تنوع أساليب ورودهنّ تكرارًا، وإيجازًا وإطنابًا، وتقديمًا وتأخيرًا، وحذفًا وزيادة، وتعريفًا وتنكيرًا، في قضية واحدة وموضوع واحد(١).

٢. الردّ على الملاحدة المشككين في القرآن الكريم الذين يدَّعون زورًا وبهتانًا أنَّ ما به من ألفاظ متشابهة تُعدّ تكرارًا غيرَ هادف، ومتشابهًا لفظيًّا غيرَ مفهوم، وهذا ما قاله الخطيب الإسكافي في مقدمة كتابه : ((وصار لمبهم المتشابه، وتكرار المتكرر تبيانًا، ولطعن الجاحدين ردًا، ولمسلك الملحدين سدًّا))(٢).

٣. الإعانة على حفظ القرآن الكريم حفظًا متقنًا من خلال ضبط مواضع الآيات المتشابهة، مما يجعل الحافظ يركز في حفظه على الموضع الذي يخشى أن يلتبس عليه بموضع آخر .

وقد اختلفت منهجية دراسة المتشابه اللفظيِّ قديمًا وحديثًا، فالمؤلفون القدامى درسوا آيات المتشابه سورةً سورةً مع موازنة آيات السورة المدروسة بمثيلاتها في السور الأخرى(٣)، أما الباحثون المُحْدَثون فدرسوا الآياتِ المتشابهةَ على وفق منهجيةٍ قائمةٍ على تقسيمها إلى موضوعات كالتقديم والتأخير، والحذف والزيادة، والتعريف والتنكير(٤).

وسورة يونس تضمّ كثيرًا من أمثلة المتشابه اللفظيِّ التي سنقسمها في هذا المبحث على النحو الآتي :

---

(١). ينظر : درة التنزيل (مقدمة المحقق) : ١ / ٦٢ – ٦٣ .

(٢). درة التنزيل : ١ / ٢١٨ – ٢١٩، ينظر : ملاك التأويل : ١ / ٥٤ .

(٣). ينظر على سبيل المثال : (درة التنزيل وغرة التأويل)، و(البرهان في متشابه القرآن)، و(ملاك التأويل) .

(٤). ينظر على سبيل المثال : (المتشابه اللفظي في القرآن الكريم – دراسة نقدية بلاغية) د. مشهور موسى مشهور ، و(كتاب المتشابه اللفظيّ في القرآن الكريم) د. محمد محمود القاضي ، وقد سلكت هذا المنهج في هذا المبحث؛ لأنه أقرب إلى المنهجية العلمية القائمة على التنظيم والتقسيم والشمولية .

❖ **المتشابه في التركيب**

ومن أمثلة المتشابه قوله ﷻ : ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [يونس: ٣٣]، وقوله ﷻ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ﴾ [غافر: ٦]، ومركز المتشابه في الآيتين قوله ﷻ : ﴿ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ في سورة يونس، وقوله ﷻ : ﴿ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ في سورة غافر .

وبيان الفرق بين التركيبين أجمله في الآتي :

- الفرق بين ﴿ فَسَقُوٓاْ ﴾، و ﴿ كَفَرُوٓاْ ﴾ .
- ختمت آية يونس بـ﴿ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾، في حين ختمت آية غافر بـ ﴿ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ .

أما الفعلان : ﴿ فَسَقُوٓاْ ﴾، و﴿ كَفَرُوٓاْ ﴾ فهما ليسا على مدلول لغوي واحد؛ إذ (الفسق) يختلف عن (الكفر)، وبالرجوع إلى أصلَيْ هذين الفعلين في المعجمات يظهر لنا الفرق بينهما بشكل جليّ، قال ابن فارس في أصل الفعل (فسق) : ((الفاء والسين والقاف كلمة واحدة، وهي الفسق، وهو الخروج عن الطاعة))[1]، وقال الجوهري : ((فَسَقَتِ الرطبة، إذا خرجت عن قشرها، وفَسَقَ الرجل يَفْسُقُ ويَفْسِقُ أيضاً، يقال فَسَقَ عن أمر ربِّه، أي : خرج))[2].

وقال ابن فارس أيضًا عن أصل الفعل (كفر) : ((الكاف والفاء والراء أصل صحيح يدل على معنى واحد، وهو الستر والتغطية ... والكفر : ضد الإيمان، سمي لأنه تغطية الحق))[3] .

وبعد هذا العرض اللغويّ يتّضح سرّ اختيار هذين الفعلين بما ينسجم مع السياق الذي وردا فيه، فقد ورد الفعل ﴿ فَسَقُوٓاْ ﴾ بعد جُمْلة من الأسئلة تقود المخاطبين بها إلى الاعتراف

---

(١). مقاييس اللغة : ٤ / ٥٠٢، (فسق) .

(٢). الصحاح : ٤ / ١٥٤٣، (فسق) .

(٣). مقاييس اللغة : ٥ / ١٩١، (كفر) .

باستحقاق الله للعبودية والألوهية، بل لا يجدون مفرًّا عن إسنادها إليه ﷻ[1] ، ولا سيما أن هذه الأسئلة عن نِعَمٍ تمثل قوام حياتهم؛ كنعمة الرزق والحواس والتكاثر والتوالد، يقول الله ﷻ : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ [يونس: ٣١ – ٣٢]، وفعلًا قادهم ذلك إلى الاعتراف : ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ [يونس: ٣١]، فقيل لهم على سبيل الاستفهام التعجيبي من حالهم : ﴿ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١]؛ إذ إنَّ من يعترف بالله ربًّا يسارع إلى التقوى وعبادته ﷻ[2]، ولكنهم نكصوا عن ذلك الاعتراف الذي نطق به لسانهم إلى الجحود والنكران، والتعبير القرآني يصور لنا في غاية التصوير نكوص هؤلاء وهروبهم عن الحقيقة التي أقروا بها، مستعملًا الاستفهام المكانيَّ والفعل المضارع، ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس: ٣٢]، يصورهم بعدما وصلوا إلى الحقيقة ثم يحاولون التملُّصَ منها إلى أي مكان آخر بكل ما أوتوا من جهد، قال محمّد رشيد رضا : ((فكيف تصرفون وتتحولون عن الحقِّ إلى الباطل، وعن الهدى إلى الضلال، بعد العلم والإقرار بما كان به الله هو الربّ الحقّ))[3]، وبهذا يتبين لنا ملاءمة الفعل ﴿ فَسَقَوْا ﴾ لحال هؤلاء في هذا السياق؛ سياق الاعتراف ثم الخروج عليه إلى الإنكار، وقد ربط البقاعيُّ هذا الفعل ﴿ فَسَقَوْا ﴾ بالآية ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا ﴾ [يونس: ١٩]، فقال في ذلك : ((وعبر بالفسق المراد به الكفر؛ لأن السياق للخروج عن دائرة الدين الحقِّ في قوله : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا ﴾، وهذا المعنى أحقُّ بالتعبير للفسق الذي أصله الخروج عن محيطٍ في قولهم : فسقت الرطبة عن قشرها – أي خرجت))[4]، وهذا الربط الذي ساقه البقاعيُّ يؤكد على أن النصّ في السورة متماسك حول قضية الإيمان بالوحي ومقتضياته، فمن خرج عليها، خرج إلى الكفر والاختلاف والتشتت .

---

(١). ينظر : ملاك التأويل : ١ / ٦١٥ .

(٢). ينظر : ملاك التأويل : ١ / ٦١٥ – ٦١٦ .

(٣). تفسير المنار : ١١ / ٣٠٥ .

(٤). نظم الدرر : ٩ / ١١٥ .

وأما التعبير بالمصدر المؤول ﴿ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾، فذلك أمر يتماشى مع السياق الذي رأيناه، فمن عرف أحقية الله بالعبادة والألوهية من خلال التأمل في النعم التي يشاهدها في الحياة، وأقرّ بالحقّ، ثم تراجع عنه معرضًا منكرًا، فلا شكّ أنه مصروف عن الإيمان، ولن يؤمن بما يدعو إليه الرسل من التوحيد والعبادة الخالصة لله مهما كانت الحجج ساطعة، الآيات بيّنة، ولهذا السبب حقّت عليه كلمة الله وعذابه ووعيده[1]، كما قال الله ﷻ في هذه السورة نفسها : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [يونس: ٩٦ – ٩٧] .

وفي مقابل ذلك عُبِّرَ في سورة غافر بالفعل ﴿ كَفَرُوا ﴾ لتناسبه مع السياق الذي ورد فيه، فقد جرى قبل هذه الآيةِ التي اكتنفت هذا الفعل الحديثُ عن الكافرين في عصر الرسول ﷺ الذين يجادلون في آيات الله، ومشابهتهم الأقوام السابقين في فعلهم الشنيع[2]، قال ﷻ : ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ ﴾ [غافر: ٤ – ٥]، ولا سيما أن المراد بـ ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ في الآية (٦) هم أنفسهم المقصودون في الآية (٤)[3]، وهذا يؤكد انسجام هذا الفعل فنيًّا مع سياقه وسباقه، قال الخطيب الإسكافي : ((فلما أراد الذين كفروا قدم ذكرهم من أول القصة، وهو الذين أخبر عنهم بقوله : ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴿٤﴾ ﴾ [غافر: ٤]، كان أن يصفهم بما وصفهم به قبل من الكفر أولى وأدلّ على أن المعنيّين بوجوب النار لهم، هم الذين قدم ذكرهم))[4]، ومن جانب آخر ثمةَ ملاءمة دلاليّة بين السياق والفعل ﴿ كَفَرُوا ﴾ في الدلالة على التغطية والستر، ذلك لأن هؤلاء بجدالهم في آيات الله يحاولون تغطية الحق بالامتراء والجدال والتمويه فتارة ينعتون هذه الآيات بالسحر

---

(١). ينظر : البحر المحيط : ٥ / ١٥٦ .

(٢). ينظر : درة التنزيل : ٢ / ٧٤٠ ، و كشف المعاني : ٢٠٤ .

(٣). ينظر : التحرير والتنوير : ٢٤ / ٨٨ .

(٤). درة التنزيل : ٢ / ٧٤٠ .

وتارة بالشعر وتارة أخرى بالأساطير، قال البقاعي موضحًا ذلك : ((ولمّا كان السياق للمجادلة بالباطل وهي فتل الخصم من اعتقاده الحقَّ، وذلك تغطية للدليل الحقّ وتلبيس، كان الحال أحق بالتعبير بالكفر الذي معناه التغطية، فلذا قال ﷻ : ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾))[1]

وأما وصف هؤلاء بالمصدر المؤول ﴿ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾، فذلك بسبب كفرهم[2] وجدالهم في آيات القرآن الكريم، والكافر مصيره النار، وهو من أصحابها قطعًا، ويبدو لي أن هذا التغليظ في بيان مصير هؤلاء بـ ﴿ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ يتوافق مع ما وصف الله به نفسه من شدة العقاب في بداية السورة ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ [غافر: ٣]، ومما يؤكد التوافق بينهما هو تنكير ﴿ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ﴾ ، قال الزمخشري في ذلك : ((قد تعمد تنكيره، وإبهامه للدلالة على فرط الشدة وعلى ما لا شيء أدهى منه وأمر لزيادة الإنذار))[3].

ومثال ذلك أيضًا قوله ﷻ : ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يونس: ٦٥] .

وقوله ﷻ : ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يس: ٧٦] .

فمدار المتشابه في السورتين قوله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ في سورة يونس، وقوله : ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ في سورة يس، فالآية في سورة يونس جاءت بعد قوله ﷻ : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يونس: ٦٢ – ٦٤]، بل إنَّ هذه الآية معطوفة على قوله ﷻ : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يونس:

---

(١). نظم الدرر : ١٧ / ١٠ – ١١ .

(٢). ينظر : ملاك التأويل : ١ / ٦١٨ .

(٣). الكشاف : ٥ / ٣٢٨ .

٦٢][1]، وهذا يدلّل على أنها جاءت في سياق تسلية الرسول ﷺ وأصحابه بأنهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون في الآخرة[2]، وأن لهم البشرى في الدنيا بالنصر وحسن العاقبة والاستخلاف في الأرض[3] وفي الآخرة بأن لا تخيفهم أهوال يوم القيامة، كما أن الملائكة تتلقاهم بالبشرى والفرح والحفاوة، كما في قوله ﷻ : ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وكلّ هذه التسلية والبشرى للتخفيف من إيذاء المشركين للرسول وأصحابه بتهديداتهم وأقوالهم البذيئة، ويردف النصّ القرآنيُّ كلّ ما سبق بتطمين آخر بأعلى درجات التطمين مستعملًا أساليب التوكيد المختلفة : ﴿إِنَّ ـ جَمِيعًا ـ ضمير الشأن :﴿هُوَ ﴾ ﴾ بأنَّ الله سينصركم ويعزكم؛ لأن العزة الحقيقة له ﷻ ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾، وأمّا ما ترونه من عزة للمشركين، فهي إلى زوال ولا تعدّ شيئًا، فالله مالك العزة سيسلبها منهم، ولهذا نُهي الرسول ﷺ عن أن يشْتَغِل بما قد يؤدي به إلى الحزن ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾، وختمُ الآية بـ ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ ﴾ يزيد من ذلك الإيناس، فهو ﷻ مع رسوله يحفّه برعايته ويكلؤه بعنايته، كيف لا، وهو سميع ما يقولونه من تهديدات وأقوال واستهزاء وتكذيب، وعليم بما يحيكونه من مؤامرات، وهو سيكافئهم بذلك [4]، وبهذا يتضح تناسب ختام الآية ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ مع السياق التي وردت فيه، وقد قال الألوسي في ذلك : ((والذي عليه الجمهور أنه استئناف سيق تسلية للرسول ﷺ عما كان يلقاه من جهة الأعداء من الأذية الناشئة من مقالاتهم الرديئة الوحشية وتبشيرًا له عليه الصلاة والسلام بالنصر والعزّ إثر بيان أن له ولأتباعه أمنًا من كل محذور وفوزًا بكل مطلوب، فهو متَّصل بقوله سبحانه:﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ ﴾ إلخ معنى))[5].

---

(١). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ٢٢٠ .

(٢). ينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ / ١٣٦ .

(٣). تفسير المراغي : ١١ / ١٣٠ .

(٤). ينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ / ١٣٧، وملاك التأويل : ١ / ٦٢١ .

(٥). روح المعاني : ١١ / ١٥٢ .

وأمّا آية سورة يس ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ فهي الأخرى متناسبة مع سياقها الذي وردت فيه، فقد ارتبطت بالآية التي قبلها ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [يس: ٧٤]، التي توضح جرأة المشركين على اتخاذ آلهة من دون الله، ولهذا جيء في الآية بلفظ الجلالة ﴿اللَّهِ ﴾ في مقام الإضمار تعظيمًا له ﷻ؛ لاستحقاقه الألوهية في مقابل عبادة هؤلاء العجيبة لمن لا يستحق العبادة، فهي لا تستطيع نصرهم ودفع الضرّ عنهم، فكانت هذه الآية توطئة[1] للآية ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ يس: ٧٦، حتى لا يحزن الرسول ﷺ بإعراضهم عن الحقّ، ولهذا جاء الخطاب صراحة بالنهي عن الاشتغال بأمرهم وأقوالهم وشركهم تسليةً له ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾، مُعَلَّلًا بما يؤكد تلك التسلية، وبما يهدد ويتوعد أولئك الكفرة ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾، وإن كان هذا التهديد عامًّا بأن الله يعلم ما يخفون من العقائد الزائفة، وما يظهرون من كلمات الإشراك، ممّا يقتضي معاقبتهم على فعلهم هذا[2]. إلا أنه مرتبط كلَّ الارتباط بما أعلنوه وأظهروه من شركهم بالله، واتّخاذهم آلهة من دونه.

ومن كلِّ ما سبق يتبين سرّ الاختلاف بين الآيتين بسبب ارتباطهما الوثيق بالسياق الذي وردتا فيه.

ومثال آخر على المتشابه قوله ﷻ : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يونس: ١٠٨]، وقوله ﷻ : ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [النمل: ٩٢] .

فقد ختمت آية يونس بقوله : ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ في مقابل ختمِ آية النمل بقوله : ﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾، فأما خاتمة آية يونس فمرتبطة بما قبلها من الآية نفسها ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن

---

(١). ينظر : التحرير والتنوير : ٢٣/ ٧٠ .

(٢). ينظر : روح المعاني : ٢٣ / ٥٢ .

﴿ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾، إذ في مبدأ الآية الكريمة تقرير لحرية الناس في اتِّباع الحقّ الواضح البين من الله، فمن اختار الهداية فمنفعة هدايته تعود له، ومن فضّل الضلال فوبال ضلاله يرتدّ عليه، قال الزمخشري : ((فمن اختار الهدى واتباع الحق فما نَفَعَ باختياره إلا نفسَه، ومن آثر الضلال فما ضرّ إلا نفسه، ... وكّل إليهم الأمرَ بعد إبانة الحق وإزاحة العلل))[1]، وهذا يفهم منه أنّ منتهى مهمة الرسول ﷺ مقتصرة على التبليغ فقط، وليس هو بوكيل عليهم يجبرهم على الهداية، أو يسعى بهم إلى أن ينالوا الثواب العظيم أو يقيهم العذاب الأليم[2]، ومَنْ ثَمَّ كان ختام الآية ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ مناسبًا للسياق الذي وردت فيه[3].

وثمة ارتباط آخر لخاتمة آية يونس بقوله ﷻ فيما تقدم : ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩]، فالخطاب في الآية للرسول ﷺ بأن إكراه الناس كلهم على الإيمان لا يتوافق وحكمةَ الله في خلقه الجنسَ البشريَّ مستعدًا بفطرته للإيمان والكفر، والخير والشرّ، وهذا ما فهمه الرسول وصرح به، فناسب أن يقول لهم الرسول ﷺ : ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾[4] .

وأما خاتمة آية النمل، فلها علاقة بقوله ﷻ : ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النمل: ٧٩ – ٨١][5]، ففي هذه الآيات توجيه للرسول ﷺ بالتوكل على الله، والاستمرار في الدعوة والعبادة، غيرَ مبالٍ بالكفار الضالين؛ لأنهم لن يؤمنوا، فهم أشبه ما يكونون بالموتى والصّمّ والعُمْي في عدم قبولهم الحقّ، أما من علم الله

---

(١). الكشاف : ٣ / ١٧٩ .

(٢). ينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ / ١٨٣، وروح المعاني : ١١ / ٢٠١ .

(٣). ينظر : درة التنزيل : ٢ / ٧٥٠ .

(٤). ينظر : ملاك التأويل : ١ / ٦٣٦ .

(٥). ينظر : ملاك التأويل : ١ / ٦٣٦ – ٦٣٧، أشار أبو جعفر الغرناطي إلى ارتباط خاتمة آية النمل بالآيات (٧٩-٨١) دون أن يوضح ذلك دلاليًّا ومعنويًّا .

أنهم سيؤمنون بآياته فهم الذين يقبلون الحقّ[1]، ومن هذا المعنى يفهم أن مهمة الرسول ﷺ مع هؤلاء الضالين مقتصرةٌ على الإنذار فحسب، وهذا ما فهمه الرسول فعلًا، فناسب أن يقول لهم : ﴿ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾، قال ابن عاشور : ((ومن ضلّ فما أنا بقادر على اهتدائه، ولكني منذره))[2].

ويبدو لي أن الاستجابة لما جاء في الآيات السابقة (٧٩ – ٨١) أوسع من ذلك، فالله أمر نبيه المصطفى بالتوكل الذي يفهم منه الاستمرار في العبادة : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾، فكانت الاستجابة : ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ﴾[النمل: ٩١ – ٩٢]، وأمّا قبول المهتدين للحق واستجابتهم له : ﴿ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [النمل: ٨١]، فيقابله في الآية الأخرى ببيان استفادتهم من الهدى : ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ﴾ [النمل: ٩٢]، وبهذا يتبين التلاؤم والتناسب بين هذه الآيات بأوضح صوره، وأقوى وشائجه وروابطه .

❖ **المتشابه في إبدال كلمة**

١. الإبدال بين اسمين مختلفين

أ. (المؤمنين، المسلمين)

قال ﷻ : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٧٢] .

وقال ﷻ : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ١٠٤] .

وقال ﷻ : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: ٩١] .

نلحظ أن الآيات قد اختلفت في الخاتمة، إذ ختمت كل آية بما يناسبها، فاختتام آية سورة يونس بـ ﴿ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ مناسبٌ للسياق الذي وردت فيه، فيما يبدو لي، فنوح عليه السلام يعلن لقومه أنه مستمر في دعوته، غير خائف ولا مبالٍ بما يهددونه به من إلحاق الأذى به

---

(١). ينظر : الكشاف : ٤ / ٤٧٢ .

(٢). التحرير والتنوير : ٢٠ / ٥٥ .

جسديًّا أو قطع المنافع عنه : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ٧١ – ٧٢]، قال الفخر الرازي مبيّنًا رأيَه في مفهوم الآية : ((وعندي فيه وجه آخر، وهو أن يقال : إنه – عليه السلام – بين أنه لا يخاف منهم بوجه من الوجوه، وذلك لأن الخوف إنما يحصل بأحد شيئين إما بإيصال الشر أو بقطع المنافع، فبين فيما تقدم أنه لا يخاف شرهم وبين بهذه الآية أنه لا يخاف منهم بسبب أن يقطعوا عنه خيرًا، لأنه ما أخذ منهم شيئًا فكان يخاف أن يقطعوا منه خيرا))[1]، وفي هذا دليلُ استسلامِه وانقياده عليه السلام لكل ما يأتيه من الله لأجل الاستمرار في الدعوة ولو على حساب حياته[2]، فناسب أن يقول : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

بينما اختتمت الآية الأخرى من سورة يونس بـ ﴿ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، بما ينسجم مع ما ورد قبلها من الآيات التي تتحدث عن المؤمنين كقوله ﷻ : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [يونس: ٩٩ – ١٠٠]، وقوله ﷻ : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [يونس: ١٠٣]، فناسب كلُّ ذلك قوله : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وللبقاعي مناسبة أخرى للتعبير بـ ﴿ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بدلًا من ﴿ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾، بالنظر إلى أن مدلول مفردة ﴿ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ متعلق بالباطن، فقال : ((ولما كان السياق لما يحتمل الشك من الأمر الباطن، عبر بالإيمان الذي هو للقلب فقال : ﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾))[3].

---

(١). مفاتيح الغيب : ١٧ / ١٤٥ .

(٢). ينظر : نظم الدرر : ٩ / ١٦٥، وتفسير أبي السعود : ٢ / ٦٩٣ .

(٣). نظم الدرر : ٩ / ٢١٧.

أما اختتام آية سورة النمل بـ ﴿ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾، فمناسب كلّ المناسبة لما ورد قبلها، قال ﷻ : ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: ٩١]، فالآية كلها تتضح بمعاني الاستسلام لله ﷻ، ولاسيما قوله : ﴿ وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ﴾ ، قال أبو جعفر الغرناطي : ((وقوله : ﴿ وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ﴾ يقتضى تسليم كلِّ شيء له، والتبرِّي من توهم شريك أو نظير، فناسب هذا قوله : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾))[1].

ب. (الظالمين، المجرمين)

قال ﷻ : ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يونس: ٣٩] .

وقال ﷻ : ﴿ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [النمل: ٦٩] .

اختتمت آية يونس بما يناسب أصلها اللغوي؛ إذ لمفردة ﴿ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ معناها الخاصّ الذي يناسب وسياقَها الذي وردت فيه ، فحينما نرجع إلى المعجمات لنستبين الأصل اللغوي لهذه المفردة، نجد ابن فارس قد قال فيه : ((الظاء واللام والميم أصلان صحيحان، ... وضع الشيء غير موضعه تعديًا، ... والأصل الآخر : ظلمه يظلمه ظلمًا، والأصل : وضع الشيء في غير موضعه))[2]، وبهذا يتضح أنّ من معاني الظلم وضعَ الشيء في غير موضعه بالتَّعدي على الطرف الآخر صاحبِ الحقِّ، وهو الذي يتناسق مع سياق الآية الكريمة، فالمشركون يقولون ظلمًا وكذبًا : إنّ الرسول ﷺ قد افترى هذا القرآن، وجاء به من عنده ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ [يونس: ٣٨]، وفي ذلك تَعَدٍّ على الله الذي أنزل هذا القرآن حين ينسبونه إلى نبيه، ولا ينسبونه إليه ﷻ، ومما يؤكد على عظم ظلمهم وتَعَديهم على الله ورسوله أنه لم يكن تكذيبهم وقولهم هذا مبنيًّا على أساس متين من الاختبار والتمحيص لما في هذا الكتاب من بلاغة ودقة في النظم، وما فيه من أخبار غيبية متوقعة الحصول، وإلا لعرفوا أن هذا القرآن من لدن الله ﷻ ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ [يونس: ٣٩] .

---

(١). ملاك التأويل : ١ / ٦٣٥ – ٦٣٦ .

(٢). مقاييس اللغة : ٣ / ٤٦٨، (ظلم) .

ومن جهة أخرى يبدو لي أن هؤلاء بكذبهم هذا قد ظلموا أنفسهم بحرمانها من هداية هذا الكتاب العزيز، وبتعريضها العقاب الأليم المتوقع حصوله إن لم يؤمنوا، فنتيجة لكلِّ ما سبق ناسب أن يُنعت هؤلاء المكذبون في بيان عاقبتهم بـ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ سواء قصد بهذه العاقبة هؤلاء المَحكيّ عنهم أم من كانوا قبلهم[1]، قال محمد رشيد رضا : ((فانظر أيها الرسول أو العاقل المعتبر كيف كان عاقبة الظالمين لأنفسهم بتكذيب رسلهم، وهو تأويل وعيدهم لهم، لتعلم مصير الظالمين من بعدهم))[2]، ويشير أبو السعود إلى سبب اختيار التعبير بـ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بدلًا من الضمير بقوله : ((وإنما وضع المظهرِ موضعَ المضمر للإيذان بكون التكذيبِ ظلمًا أو بعلّيته لإصابة ما أصابهم من سوء العاقبةِ وبدخول هؤلاء الظالمين في زمرتهم جرمًا ووعيدًا دخولاً أوليًّا))[3].

أما قوله : ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ في سورة النمل، فمناسب لما انطوى عليه سياق الآيات قبله، فقد تعرضت لمظاهر قدرة الله ووحدانيته التي هي ماثلة أمام أعينهم، مما يدركون أن آلهتهم عاجزة عن فعل شيء منها، فكان عصيانهم بعد كلِّ ذلك يُعَدُّ إجرامًا، قال أبو جعفر الغرناطي : ((فذكروا بما يشاهدونه ويعلمون أن آلهتهم لا تفعل ذلك، فكان مرتكبهم بعد هذا إجرامًا وتعاميًا عن الاعتبار بما ذكروا به، فقيل لهم : سيروا فى الأرض فانظروا عواقب أمثالكم من المتعامين عن النظر ... فورد التعقيب هنا بوسمهم بالإجرام، فقيل : ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ مناسب لما تقدم من اجترامهم مع الوضوح ومتابعة التذكير وإرادة البراهين))[4].

٢. الإبدال بين فعلين مختلفين لفظًا

أ. (يقضي، يحكم)

قال ﷻ : ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [يونس: ٩٣] .

---

(١). ينظر : البحر المحيط : ٥ / ١٦١ .

(٢). تفسير المنار : ١١ / ٣١٩ .

(٣). تفسير أبي السعود : ٢ / ٦٦٧ .

(٤). ملاك التأويل : ١ / ٤٢١ – ٤٢٢ .

قـــــال ﷻ : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [النحل: ١٢٤] .

يشترك الفعلان (يقضي، يحكم) في الدلالة العامّة على الفصل بين الخصمين، فـ (قضى) يدل على الحكم، يقال : ((قضى، أي : حَكَمَ))[١].

ولكن ثمةَ فرق جوهريّ بين الفعلين في الدلالة الخاصّة، قال ابن فارس : ((القاف والضاد والحرف المعتل أصل صحيح يدل على إحكام أمر وإتقانه وإنفاذه لجهته، قال الله تعالى : ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت: ١٢]، أي : أحكم خلقهن ... والقضاء : الحكم، قال الله سبحانه في ذكر من قال : ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ [طه: ٧٢]، أي : اصنع واحكم، ولذلك سُمّي القاضي قاضيًا، لأنه يحكم الأحكام وينفذها، وسميت المَنيَّة قضاءً لأنه أمر ينفذ في ابن آدم وغيره من الخلق))[٢].

وبعد هذا التحديد اللغويِّ يبدو لي أن التعبير بالفعل ﴿ يَقْضِى ﴾ الذي يدل على الإحكام والإتقان والإنفاذ يناسب جوَّ وسياق آية يونس، إذ ورد في معرض الحديث عن تمكين الله لبني إسرائيل في الأرض، وإنفاذ حكمه في أمر حياتهم فاستقرت بما فتح عليهم من بلاد فلسطين، وما فيها من الخصب والثراء، وإحكام أمر دينهم فأطاعوا الله واستمسكوا بإيمانهم، بعدما أنفذ الله حكمه في فرعون فغرق[٣]، كما في قوله ﷻ : ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وحينما نتأمل في تعبير الآية نلمح دلالات الإحكام والإتقان، فالتركيب الإضافي ﴿ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ الذي هو من إضافة الموصوف إلى الصفة يشير إلى أعلى درجات الاستقرار والتمكن في المسكن لخلوصه من المكدرات، إلى جانب تنوع المقوِّمات التي تجعل الحياة مستمرة، وهذا يفهم من دلالة حرف الجر ﴿ مِّنَ ﴾ في قوله : ﴿ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾،

---

(١). الصحاح : ٦ / ٢٤٦٣، (قضى) .

(٢). مقاييس اللغة : ٥ / ٩٩، (قضي) .

(٣). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ٢٨٢، وملاك التأويل : ١ / ٦٣٠ – ٦٣١ .

أضف إلى ذلك الاستمرار في الطاعة والعبادة كنتيجة لما سبق من الاستقرار وإحكام مقومات الحياة وتوفرها﴿ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ ﴾ .

ولكنّ بني إسرائيل لم يستمروا على اتِّفاقهم على الطاعة والشكر على النعم، فاختلفوا بعدما جاءهم العلم بقراءة التوراة وعلمهم بأحكامها إلى فريقين، فريق عصى ربَّه وانحرف عن جادَّة الصواب، وفريق آخر بقي على عهده مؤمنًا مستمسكًا بدينه، وهذا يستدعي القضاء بينهم في أمرهم، وإنفاذ حكمه ﷻ بينهم فيما اختلفوا فيه، قال ﷻ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٩٣ ﴾ [يونس: ٩٣]، وهنا نلحظ انسجام الفعل ﴿يَقۡضِي ﴾ مع السياق، كما أن هذه الآية نفسها تشي بالوعيد لكل من يقرأ هذه الآية أو يسمعها ليربأ بنفسه عن الوقوع في المؤاخذة يوم القيامة، وذلك بإحكام أمره بالطاعة لله وإتقان عبادته والتفكير الجادِّ في وسائل الخلاص من الضلال[1].

وأما الأصل اللغويّ للفعل ﴿ لَيَحۡكُمُ ﴾ فقد قال فيه ابن فارس : ((الحاء والكاف والميم أصل واحد، وهو المنع، وأول ذلك الحكم، وهو المنع من الظلم، وسميت حكمة الدابة لأنها تمنعها، يقال حكمت الدابة وأحكمتها، ويقال: حكمت السفيه وأحكمته، إذا أخذت على يديه ... والحكمة هذا قياسها، لأنها تمنع من الجهل. وتقول : حكمت فلانًا تحكيمًا منعته عما يريد))[2].

وقال الراغب الأصفهاني أيضًا : ((حَكَمَ أصله: منع منعًا لإصلاح، ومنه سميت اللّجام : حَكَمَة الدابّة، فقيل : حكمته وحَكَمْتُ الدّابة : منعتها بالحكمة، وأَحْكَمْتُهَا : جعلت لها حكمة، وكذلك : حكمت السفيه وأحكمته))[3].

ومن خلال هذا الاستعراض اللغوي يتبين أن الفعل ﴿ لَيَحۡكُمُ ﴾ تدور معانيه حول المنع لأجل الإصلاح، وهو الذي يتناسب مع جوِّ آية النحل، فالآية تأتي في سياق ذكر مخالفة بني إسرائيل لأحكام يوم السبت التي فرضها اللهُ عليهم؛ لأجل مقاصد إصلاحية؛ كالمحافظة على العبادة، والتفرغ لها، وتقديس هذا اليوم، ولأجل منعهم عن الفساد فيه، ولذلك

---

(١). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ٢٨٣ .

(٢). مقاييس اللغة : ٢ / ٩١، (حكم) .

(٣). المفردات في غريب القرآن : ١ / ١٦٧، (حكم) .

حُرِّمَ عليهم الصيد، واستخدام الخدم والدواب[1]، قال أبو السعود : ((أي : فُرض تعظيمُه والتخلي فيه للعبادة وتركُ الصيد))[2]، فكان نتيجة ذلك أن اختلف بنو إسرائيل؛ فمنهم من التزم بأحكام يوم السبت، ومقاصده، فلم يصطادوا، ومنهم من تحايل على أحكامه، فاصطادوا، فأنجى الله الملتزمين بأحكامه، وعاقب المخالفين بالمسخ فجعلهم قردة خاسئين كما نفهم ذلك مما ورد في سورة الأعراف، قال ﷻ : ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦٣ – ١٦٦]، إلى جانب ما ينتظرهم من حكم الله فيهم يوم القيامة، فيجازى كل فريق بما يستحقه من الثواب والعقاب[3]، وفي هذه العقوبات الدنيوية والأخروية منعٌ وزجرٌ لكل من تسول له نفسه من بني إسرائيل والمشركين[4] على عهد رسول ومن كان على شاكلتهم إلى يومنا هذا، في مخالفة أحكام الله، فيكون له ذلك مانعًا عن المعصية وداعيًا له للصلاح والفلاح، وبهذا يتبين مناسبة الفعل ﴿ لَيَحْكُمُ ﴾ مع سياق الآية التي تحمل معاني المنع والإصلاح من فرضية يوم السبت عليهم .

❖ **الإبدال بين الاسم والفعل المتشابهين لفظًا**

أ. قال ﷻ : ﴿ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس: ٣١] .

---

(١). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ٣٢٢ .

(٢). تفسير أبي السعود : ٣ / ٤١٤ .

(٣). ينظر : تفسير أبي السعود : ٣ / ٤١٥ .

(٤). ينظر : تفسير أبي السعود : ٣ / ٤١٥ .

قـــــال ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٩٥] .

فالمتشابه والمختلف في الآية الكريمة يكمن حول التعبير بالفعل المضارع ﴿ يُخْرِجُ ﴾ في آية يونس، واسم الفاعل ﴿ وَمُخْرِجُ ﴾ في آية الأنعام .

وكلتا المفردتين تناسب موضعيهما من وجهين :

الأول : التناسب اللفظيُّ : فقد جاء الفعل ﴿ يُخْرِجُ ﴾ في آية يونس ضمن جملة من الأفعال المضارعة : ﴿ يَرْزُقُكُم - يَمْلِكُ - يُخْرِجُ - يُدَبِّرُ- فَسَيَقُولُونَ - تَتَّقُونَ ﴾، فناسب التعبير بالفعل المضارع، وفي المقابل جاء اسم الفاعل ﴿ وَمُخْرِجُ ﴾ في آية الأنعام متناسبًا مع الأسماء قبله وبعده : ﴿ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾، و﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ﴾[1].

الثاني : التناسب الدلاليُّ : فالسياق في آية يونس في التغيير والتجدد والحدوث يتناسب معه استعمل الفعل ﴿ يُخْرِجُ ﴾الذي يدل على التجدد والحركة، قال الله ﷻ : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس: ٣١]، وفي ذلك قال الدكتور محمد فاضل السامرائي : ((فعملية الرزق من السماء والأرض، وإخراج الحيّ من الميت، وإخراج الميت من الحيّ، وتدبير الأمر، كلّ هذا يتكرر، ويحدث بصورة مستمرة، ولهذا جاء بالصيغة الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد))[2]، ومثله ما جاء في قوله ﷻ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٦ – ٢٧]، فقد جاءت هي الأخرى في سياق التغيير والحدوث؛ فالله ﷻ يغير أحوال العباد فتارة يؤتي ملكه من يشاء، وتارة أخرى

---

(١). ينظر : ملاك التأويل : ١ / ٢٩٥، وكشف المعاني : ١٦٣ .

(٢). دراسة المتشابه اللفظي من آي التنزيل في كتاب ملاك التأويل : ٧٦ .

ينزعه منه، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي ويغير أحوال اليوم والزمن ما بين ليل ونهار[1].

وأما سياق آية الأنعام فمختلف؛ إذ هو في الثبوت والدوام الذي يناسبه الاسم، ولا سيما أنَّ اسم الفاعل ﴿وَمُخْرِجُ﴾ جاء في الآية مقترنًا بـ ﴿ٱلْمَيِّتِ﴾ الذي يكون في حال سكون وهمود وثبات[2].

ب. قال ﷻ : ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ [يونس: ٤٦] .

قال ﷻ : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [غافر: ٧٧] .

جاءت المفردتان مناسبتين لسياقهما؛ فقد جاءت آية سورة يونس، على ما يبدو لي، في سياق إثبات الرجوع إلى الله، وبيان حالهم في الآخرة، وهم في أرض المحشر، قد خسروا السعادة الأبدية بسبب تكذيبهم بلقاء الله وإيثارهم الحياة الدنيا القصيرة الزائلة على الحياة الآخرة ، قال ﷻ : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [يونس: ٤٥]، فضلًا عن ذلك فإنَّ هذه الآية جيء بها لتدفع ما قد يفهم من استبقاء المشركين، وإمهال العذاب عنهم في الدنيا مما جاء في قوله ﷻ : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [يونس: ١١]، فكان لابدّ من البيان والإيضاح للمشركين بصيغة التوكيد والإثبات بأنهم إن أمهلوا في الدنيا، ولم يعذبوا، فإنهم غير مفلتين من الرجوع إلى عقاب الآخرة، حيث يكون الأمر كله في تصرفه ﷻ[3]، فناسب ذلك التوكيد والإثبات في الآية التعبيرَ بالاسم ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾ للدلالة على أن أمر الرجوع إليه للحساب حتميّ لا مفرّ منه، وهو ثابت لا يقبل الشكّ، فضلًا عن ذلك فإنَّ الآية ختمت بالتهديد ﴿ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس: ٤٦] أي : إن الله شهيد على ما يفعله الفريقان اللذان تحدث عنهما السياق من قبل ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ

(١). ينظر : التعبير القرآني : ٢٣ .

(٢). ينظر : التعبير القرآني : ٢٣ .

(٣). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ١٨٣ .

﴿ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [يونس: ٤٢ – ٤٣]، وكلٌّ ذلك يناسبه الاسمية في بيان ثبات مصيرهم ورجوعهم إلى الله[١].

وأما سياق آية غافر فهو ليس في سياق إثبات المرجع إليه ﷻ، بل في تسلية الرسول ﷺ في مقابل ما يلقاه من أذى المشركين وإعراضهم، كما في قوله ﷻ : ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ [غافر: ٤]، وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ [غافر: ٢١]، ثم يؤكد الله وعده لنبيه بالنصر في قوله : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ [غافر: ٥١]، ولكن هذا الوعد قد يحتاج وقتًا، لهذا طلب الله من نبيه الاشتغال بالذكر والتسبيح فقال له : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾ [غافر: ٥٥]، فأدى ذلك إلى أن استبطأ الرسول ﷺ والمؤمنون النصر، فلهذا قال الله لنبيه : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [غافر: ٧٧]، وكلٌّ الذي سبق يوضح لنا بشكل جليٍّ أن السياق هنا سياق تسلية وتصبير بالوعد بالنصر[٢]، لا يتناول قضية إثبات المرجع إلى الله بالدرجة الأولى، كما هو حال سياق آية يونس، فناسب أن يعبر بالفعل ﴿ يُرْجَعُونَ ﴾ الذي هو أقلُّ درجة من الاسم، فضلًا عن مناسبته فواصل الآيات التي قبله وبعده في الانتهاء بحرف نون، وهي : ﴿ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾، و﴿ تَمْرَحُونَ ﴾، و﴿ ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾، و﴿ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾، و﴿ تَأْكُلُونَ ﴾[٣].

❖ **إبدال الاسم الظاهر بالضمير**

قال ﷻ :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [يونس: ٦٠].

---

(١). ينظر : التحرير والتنوير : ٢٤ / ٢٠٩ .

(٢). ينظر : التحرير والتنوير : ٢٤ / ٢٠٧ – ٢٠٨ .

(٣). ينظر : سورة غافر، الآيات (٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٨، ٧٩) .

قـــــال ﷻ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾ [غافر: ٦١] .

وسرُّ التعبير في الآيتين الكريمتين بالضمير ﴿أَكۡثَرَهُمۡ﴾ في آية يونس، وبالاسم الظاهر ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ في آية غافر، راجع إلى الملاءمة والمشاكلة[1] : فقد بنيت آية سورة يونس على الإضمار فيما تقدمها من آيات، وهي على النحو الآتي :

- ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [يونس: ٥٢] .
- ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾[يونس: ٥٣] .
- ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [يونس: ٥٥].

وأما آية سورة غافر فقد بنيت على إظهار الاسم ﴿ٱلنَّاسِ﴾ فيما تقدمها من آيات، وهي على النحو الآتي :

- ﴿ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧] .
- ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [غافر: ٥٩] .

وهكذا نلحظ بناء الآيتين على ما يلائمها مما سبقهما من الإضمار أو الإظهار، فكان الاختلاف بينهما.

❖ **إبدال حرف مكان حرف**

أ. (الواو، الباء)

قال ﷻ : ﴿ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾ [يونس: ٩٠] .

قال ﷻ : ﴿ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ ﴾ [طه: ٧٨] .

---

(١). ينظر : درة التنزيل : ٣ / ١١٢٨ – ١١٣١، وكشف المعاني : ٣٢٣ .

عُبِّرَ في آية سورة يونس بحرف العطف (الواو)، بينما في آية سورة طه بحرف الجر (الباء)، وكلٌّ له موضعُه المناسب في التعبير تبعًا لاختلاف سياقهما، فالسياق في سورة يونس يدلّ على أن فرعون بنفسه كان مع جنوده متّبعا لموسى وقومه، مما يُدلِّل على اهتمام فرعون وغضبه على موسى وقومه حتّى اضطرّ للخروج بنفسه، والمؤشرات السياقية تؤكد ذلك، وهي على النحو الآتي :

- من شدة بطش فرعون ببني إسرائيل أنه لم يؤمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يردوهم مرة أخرى إلى الكفر، قال ﷻ : ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ [يونس: ٨٣]، والتعبير بحرف الجر ﴿ عَلَىٰ ﴾ يدل تمكن الخوف منهم(١).
- وصف فرعون بصفتين العلو والإسراف المؤكدتين بـ (إنّ، و اللام)، ممّا يدلُّ على أنَّ هذه الذرية مُحقّة في خوفها الشديد من فرعون، وما كان يفعله بالمؤمنين لموسى عليه السلام(٢)، فقال ﷻ : ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يونس: ٨٣] .
- طلب موسى عليه السلام من قومه التوكل على الله والاستسلام التامّ لأمره، والدعاء بأن لا يجعلهم الله فتنة لفرعون وقومه(٣) : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [يونس: ٨٤ – ٨٥].
- دعاء موسى عليه السلام بنفسه على فرعون، فقال : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٨٨] .

---

(١). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ٢٥٩ .

(٢). ينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ / ١٥١ .

(٣). ينظر : فتح القدير : ٢ / ٦٥٣ .

- وصف فرعون بـ ﴿ بَغْيًا وَعَدْوًا ﴾ في قوله ﷻ : ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ﴾ [يونس: ٩٠]، للدلالة على رغبة فرعون في القضاء على موسى وقومه قضاء لا رحمة فيه .

ومن كلِّ ما سبق يتبين أن فرعون غاضب وجبار مسرف في تعذيبه المؤمنين لموسى عليه السلام، فناسب أن يكون هو في مقدمة جيشه للقضاء على موسى ومن آمن له، ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ ﴾ .

أما الجملة القرآنية في سورة طه ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ﴾، فتعطي احتمالين اثنين، أولهما : أن فرعون مع جنوده اتبع موسى ومن معه، وثانيهما : أن فرعون لم يكن مع جنوده، وإنما اكتفى بإرسال جنوده لتعقب موسى ومن معه، ويظهر من خلال السياق غلبة الاحتمال الثاني، أي : إن فرعون آمر وليس مع جنده، وهو ما تؤكده مؤشرات السياق على النحو الآتي :

- في سورة طه أوحى الله إلى نبيه موسى عليه السلام أن يسري بقومه، ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ [طه: ٧٧]، في حين أسند الله إلى نفسه مجاوزة بني إسرائيل البحر، لإنجاء بني إسرائيل، وإهلاك فرعون، ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾ [يونس: ٩٠] .
- في طه ذكر غرق الجنود، ولم يأت على ذكر غرق فرعون، ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ ﴾ [طه: ٧٨]، بينما في سورة يونس ذكر غرق فرعون صراحة، دون ذكر غرق جنوده، ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٩٠] .

فناسب التنصيصُ على اتّباع فرعون مع جنوده لموسى، ذكرَ غرق فرعون صراحة، وفي المقابل ناسب الاحتمال في اتباع فرعون مع جنوده لموسى، عدمَ التصريح بذكر غرق فرعون[١].

---

(١). ينظر : من أسرار البيان القرآني : ١٤٣ – ١٤٥ .

ب. (ما، لا)

قال ﷻ : ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: ٦١] .

قال ﷻ : ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾ [سبأ: ٣] .

اختلاف حرفي النفي في الآيتين مناسب للسياق، ففي آية سورة يونس استعمل حرف النفي ﴿مَا﴾ الذي هو للحال لسببين :

أولًا : لأن السياق في الآية في اطِّلاع الله على شؤون الرسول ﷺ في قراءته القرآن وتبليغه الرسالة، وعلى أحوال المسلمين في أعمالهم(١)، قال ﷻ : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس: ٦١]، بينما النفي في آية سبأ بـ ﴿ لَا ﴾ الذي هو للمستقبل؛ لأن السياق في الحديث عن الساعة التي هي من الأمور الحادثة في المستقبل، قال ﷻ :﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ﴾ [سبأ:٣](٢) .

ثانيًا : ملاءمة النفي في آية يونس بـ ﴿مَا﴾ لما سبقه من تكرار النفي بالحرف ذاته في قوله ﷻ : ﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [يونس: ٦]، وقوله : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس: ٦١]، في حين إن النفي في آية سبأ بـ ﴿ لَا ﴾ يلائم تكرار النفي بالحرف ذاته في الآية نفسها، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾ [سبأ: ٣] .

---

(١). ينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ / ١٢٧ – ١٢٨ .

(٢). ينظر : التعبير القرآني : ٢٥٧ – ٢٥٨ .

❖ **المتشابه في أحوال الاسم**

١. التقديم والتأخير

قال ﷻ : ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [يونس: ٤٩] .

قال ﷻ : ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ١٨٨] .

نلحظ في مفردتي الآيتين ﴿ نَفۡعًا ﴾ و﴿ ضَرّٗا ﴾ تقديمًا وتأخيرًا، وذلك راجع إلى الأهمية والعناية[١] وإلى دلالة سياقهما، اعتمادًا على قاعدة أنه متى قُدِّم النفع على الضرّ فلتقدم ما يتضمن النفع، والعكس صحيح[٢].

فأما تقديم ﴿ ضَرّٗا ﴾ على ﴿ نَفۡعًا ﴾ في آية يونس، فلتناسبه مع السياق؛ إذ الآية وردت في معرض الردِّ والجواب للمشركين عن ميعاد العذاب الذي أنذروا به في قوله ﷻ : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ ﴾ [يونس: ٤٨]، فكان تقديم ﴿ ضَرّٗا ﴾ في هذا الموضع مناسبًا[٣]، وفي ذلك قال أبو جعفر الغرناطي : ((فقدم الضرّ فللمتقدم قبله من قوله : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ ﴾ فطلبوا تعجيل العذاب استهانةً وتكذيبًا، ولم يعلموا ما في مطالبهم من المحنة والمضرة العاجلة، فقال لهم عليه السلام بأمر الله تعالى : إنى لا أملك الضر ولا النفع لنفسي ولا لكم فلا تستعجلوني ذلك فليس بيدي، فقدم الضرّ لأجل ما تقدم من طلبهم إياه))[٤].

وأما تقديم ﴿ نَفۡعًا ﴾ على ﴿ ضَرّٗا ﴾ في آية الأعراف، فلتقدم ما يتضمن معنى النفع، وهو ما يوضحه أبو جعفر الغرناطي : ((أنه لما تقدم سؤالهم عن الساعة وتكرر في قوله : ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ... يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٧] أي : عالم بها ... ولاشك أن العلم بالشيء نفع لصاحبه، فعرفهم أنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، وتقدم ذكر النفع لأنه مشير إلى ما ظنوه أنه عنده من علمها فأعلمهم))[٥] ، وقد ذهب هذا

---

(١). ينظر : الكتاب : ١ / ٣٤ .

(٢). ينظر : البرهان في متشابه القرآن : ٢٠٢، والتعبير القرآني : ٥٩ .

(٣). ينظر : تفسير المنار : ١١ /٣٣١ .

(٤). ملاك التأويل : ١ / ٥٧٨، وينظر : كشف المعاني : ١٨٨ .

(٥). ينظر : ملاك التأويل : ١ / ٥٧٧ .

المذهب ابن جماعة فقال : ((أن آية الأعراف تقدمها ذكر الساعة، فناسب في حقه تقديم النفع الذي هو ثواب الآخرة، وأخر الضر الذي هو عقابها))[1]، وذكر الكرماني والزركشي وغيرهما سببًا آخر لهذا التقديم، وذلك لأنه تقدم هذه الآية ذكر الهداية على الضلال في قوله ﷻ : ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٨]، فناسب تقديم ﴿ نَفْعًا ﴾ على ﴿ ضَرًّا ﴾[2]، وكل هذه القرائن السياقية تؤكد سرّ التقديم في آية الأعراف، ولكنني أميل إلى ما ذهب إليه أبو جعفر الغرناطي؛ لأن التقديم كان بالأساس في الجواب والردّ على تساؤلات المشركين المستمرة عن الساعة والغيب الذي يكتنفها، أمّا ما ذكره الكرماني والزركشي، فهي قرينة ثانوية يستأنس بها في توجيه هذا التقديم .

٢. التعريف والتنكير

قال ﷻ : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [يونس: ١٧] .

قال ﷻ : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الصف: ٧] .

ورد قوله : ﴿ كَذِبًا ﴾ بالتنكير تارةً، وبالتعريف تارةً أخرى بحسب ما يقتضيه السياق في الآيتين، فالتنكير في آية يونس مرجعه إلى عموم الكذب وتنوع الافتراء على الله في أمور متعددة، بدليل افترائهم على الله كذبًا باتِّخاذهم شركاء لله في قوله ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [يونس: ١٣]، وبدليل ما اقترحوه على الرسول ﷺ من الإتيان بقرآن غير هذا القرآن أو تبديله، قال ﷻ : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [يونس: ١٥]، وفي ذلك قال ابن عاشور

---

(١). كشف المعاني : ١٨٨ .

(٢). ينظر : البرهان في متشابه القرآن : ٢٠٢، والبرهان في علوم القرآن : ١ / ١٢٢، والتعبير القرآني : ٥٩ – ٦٠ .

معلقًا على التفريع في آية يونس : ((والتفريع صالح للمعنيين، وهو تفريع على ما تقدم قبله مما تضمن أنهم أشركوا بالله وكذبوا بالقرآن))[1].

فكلُّ ذلك يؤكد على تنوع الافتراء والكذب على الله، بخلاف حال السياق في سورة الصف، فقد جاءت المفردة ﴿ ٱلْكَذِبَ ﴾ بالتعريف؛ لأن الكذب هنا معين محدد، فهو متعلق بتكذيب اليهود لآيات الله، وصفة النبي والتبشير به، وهذا ما توضحه الآية قبلها : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الصف: ٦ – ٧][2].

❖ المتشابه في أحوال الفعل

تنوع الصيغة

قال ﷻ : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾ [يونس: ٧٣] .

قال ﷻ :﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ﴾ [الشعراء: ١١٩] .

كثيرًا ما يرد الفعلُ في آي القرآن الكريم بصيغ متنوعة، على وفق ما يقتضيه المقام والسياق، ومن تلك الأفعال : ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ - فَأَنجَيْنَٰهُ ﴾ .

وقد أحكم القول في بيان الفرق بين الصيغتين الأستاذ الدكتور فاضل السامرائي بقوله : ((فإنَّ الملاحظ أنَّ القرآن الكريم كثيرًا ما يستعمل (نجّى) للتلبث والتمهل في التنجية، ويستعمل (أَنْجى) للإسراع فيها، فإنّ (أَنْجى) أسرع من (نَجّى) في التخلص من الشدة والكرب))[3].

وسرُّ التنوع في صيغة الفعل بين الآيتين راجع إلى ثلاثة أمور، هي :

---

(١). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ١٢٤ .

(٢). ينظر : درة التنزيل : ١ / ١٢٧٣، و ملاك التأويل : ١ / ٤٣٥، و كشف المعاني : ٣٥٦، وعلى طريق التفسير البياني : ١ / ٢١٧ .

(٣). بلاغة الكلمة في التعبير القرآني : ٧٠ .

الأول : مناسبة التعبير بالصيغة ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ ﴾ في سورة يونس، بسبب ما اتَّسمت به قصة نوح عليه السلام من الإيجاز، فضلًا عن أنها لم تذكر من المحاجّة بينه وبين قومه إلا أنهم كذبوه[1]، وهذا ممّا لا يستدعي الإسراع في الإنجاء، أضف إلى ذلك أن نوحًا عليه السلام مأمور بالاستسلام لأمر الله والصبر على الأذى[2]، ولكلِّ ما يصل إليه من أمر الدعوة[3]، وهذا فيه ما فيه من الانتظار، ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٧٢]، ومن ثمّ كان التعبير بالصيغة ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ ﴾ مناسبًا لمقام التلبث والتمهل .

وأمّا التعبير ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ ﴾في سورة الشعراء، فمرده إلى ما اتَّسمت به القصة في سورة الشعراء من التفصيل في ذكر الأحداث، والمحاجّة الشديدة، والتهديد العنيف بين نوح عليه السلام وقومه، والقرائن تؤكد ذلك، ومنها :

١. وصفُهُم المؤمنين لنوح عليه السلام بالأراذل والخسة والحقارة، كما في قوله ﷻ : ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [الشعراء:١١١] .

٢. طلبُهم طردَ المؤمنين، فقال لهم نوح عليه السلام : ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [الشعراء: ١١٤] .

٣. تهديدهم نبيَّهم نوحًا عليه السلام بالرجم، في حال عدم التوقف عن دعوتهم : ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الشعراء: ١١٦] .

٤. شكوى نوح عليه السلام إلى ربه من تكذيب قومه له : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ ﴾ [الشعراء: ١١٧] .

٥. دعاء نوح عليه السلام بالنجاة له وللمؤمنين معه : ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [الشعراء: ١١٨] .

---

(١). ينظر : دراسة المتشابهة اللفظي من آي التنزيل في كتاب ملاك التأويل : ١٠٤ .

(٢). ينظر : تفسير أبي السعود : ٢ / ٦٩٣ .

(٣). ينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ : ١٤٦ .

فاقتضت شدة تلك الأحداثِ الإسراعَ في إنجاء نوح عليه السلام ومن آمن معه، وعدم الاستبطاء، فناسب استعمال الصيغة ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ ﴾ لمقام التهديد والمحاجّة الشديدين(١).

الثاني : نبرة الصوت التي خاطب بها نوح عليه السلام قومه شديدة، تنسجم مع الشدة في الصيغة ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ ﴾، بدليل كثرة حروف الشدة(٢)، كالقاف والتاء والهمزة والجيم وبالأخصّ حرف الكاف التي تكاد تتوالى من كثرتها كما في الآية (٧١) : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ ﴾ [يونس: ٧١]، بخلاف نبرة صوته في سورة الشعراء التي كانت أقلّ نسبيا مما ورد في سورة يونس.

الثالث : طول آيات القصة في سورة يونس، يعطي إشارة التمهل والمكث وعدم الاستعجال الذي يناسبه الصيغة ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ ﴾ الدالة على المكث والتمهل، في حين نجد الآيات في سورة الشعراء قصيرة، توحي بالاستعجال والسرعة في جريان الأحداث وصولا إلى النجاة، الذي يناسبه الصيغة ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ ﴾ .

❖ **المتشابه في الذكر والحذف**

١. الذكر والحذف في الاسم

قال ﷻ : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس:٤] .

قال ﷻ : ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ [هود: ٤] .

ذُكِرَتْ في آية سورة يونس مفردةُ ﴿ جَمِيعًا ﴾، في حين حذفت المفردة ذاتها في آية سورة هود، وذلك لسببين :

أولًا : السياق :

---

(١). ينظر : بلاغة الكلمة في التعبير القرآني : ٧٤ – ٧٥ .

(٢). تجمع حروف الشدة في :(أَجَدت طبقك، أو أجدك طبقت): ينظر : سرّ صناعة الإعراب : ١ / ٦١.

متى ما تضمن السياق ذكر جهات متعددة مختلفة، وعقائد متباينة، فإنه يجري ذكر مفردة ﴿ جَمِيعًا ﴾، وهذا ما يؤكده السياق في سورة يونس، فقد قال ﷻ قبل هذه الآية : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾ [يونس: ٢]، فالآية الكريمة تضمنت ذكر فئتين من الناس:

الفئة الأولى : هم المؤمنون المبشرون بالمنزلة الرفيعة .

الفئة الثانية : هم الكافرون القائلون : إن الرسول ﷺ ساحر مبين[١].

فناسب ذلك التنوعَ والتعدد في ذكر الفئات المختلفة ذكرُ مفردة ﴿ جَمِيعًا ﴾ في الآية بعدها التي هي الأخرى تضمنت ذكرًا لتلك الفئات التي سبق ذكرها في الآية (٢)، قال ﷻ : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [يونس: ٤]، بخلاف آية سورة هود؛ إذ لم يأت سياقُها على ذكر فئاتٍ مختلفة، بل اكتفى على ذكر فئة واحدة، وهم من استهدفتهم الآية في قوله ﷻ : ﴿ الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ [هود: ١ – ٤]، فكان المناسب عدم ذكر مفردة ﴿ جَمِيعًا ﴾ لانعدام التعدد والتنوع في ذكر الفئات[٢] .

ثانيا : السمة اللفظية :

ممّا ناسب ذكر مفردة ﴿ جَمِيعًا ﴾ في سورة يونس، هو تكرارها أربع مرات، وهي على النحو الآتي :

- قال ﷻ : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٤] .

---

(١). ينظر : تفسير البيضاوي : ٣ / ١٠٤ .

(٢). ينظر : البرهان في متشابه القرآن : ٢١٣، وعلى طريق التفسير البياني : ٣ / ١٥ – ١٦ .

- قال ﷻ : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٢٨] .
- قال ﷻ : ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [يونس: ٦٥] .
- قال ﷻ : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩] .

بينما وردت هذه المفردة في سورة هود مرة واحدة، قال ﷻ : ﴿ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ ﴾ [هود: ٥٥]، فناسب حذفها.

٢. الذكر والحذف في الحرف :

أ. قال ﷻ : ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [يونس: ١٩] .

قال ﷻ : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [البقرة: ٢١٣] .

اختلفت الآيتان بين ذكر وحذف أداة الاستثناء ﴿ إِلَّا ﴾، والحَكَم في كلِّ ذلك للسياق، فآية سورة يونس جاءت في مَعرِض مجادلة الذين غيروا معالم الدِّين الحقِّ، والردّ على ضلالات المشركين؛ كعبادتهم غير الله، واتّخاذهم هذه المعبودات شفعاء عند الله، كما في قوله ﷻ : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يونس: ١٨]، فناسب ذلك ذكرُ أداة الاستثناء؛ لأجل الحصر والتوكيد في الردّ على المشركين، بأن ما أنتم عليه من المعتقدات هو خلاف ما عليه الناس سابقًا من التوحيد والإسلام[١]، وفي ذلك قال ابن عاشور : ((وحسن القصر هنا وقوعه عقب الجدال مع الذين غيروا الدين الحق وروجوا نحلتهم بالمعاذير الباطلة كقولهم : ﴿ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨]، وقوله : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر: ٣]))[٢] .

---

(١). ينظر : تفسير أبي السعود : ٢ / ٦٤٦ .

(٢). التحرير والتنوير : ١١ / ١٢٧ .

وأما حذف أداة الاستثناء من آية سورة البقرة، فلأن سياقها يقتضي ذلك، إذ هي في مجادلة بني إسرائيل الذين لم يكونوا ينكرون أن الناس كانوا أمة واحدة[1].

ب. قال ﷻ : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [يونس: ٥٠] .

قال ﷻ : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٠] .

فمدار التشابه والاختلاف في الآيتين حول ذكر أو حذف حرف الخطاب (الكاف) في الفعل ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾[2]، وفائدة مجيء الكاف في هذا الفعل هو توكيد الخطاب[3]، إذا كان المخاطب غافلًا، أو كان الأمر يوجب زيادة التنبيه[4] .

فحذف حرف الخطاب في آية سورة يونس راجع إلى أن السياق لم يشتمل على ما يستوجب التوكيد وزيادة التنبيه؛ كذكر مثلا أن المخاطبين صُمّ أو بُكْم، وإنما كان السياق في معرض الردِّ على مستعجلي العذاب كما توضحه الآية قبلها ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [يونس: ٤٨ – ٥٠]، ولهذا اكتفى فيها بتذكيرهم بالعذاب.

وأما ذكر الكاف في آية سورة الأنعام، فراجع إلى ما انطوى عليه سياقها مما يستدعي توكيد الخطاب وزيادة التنبيه، فالمخاطبون في الآية قد استحكمت بهم الغفلة؛ إذ هم في قمة الضلال مُتعطّلة حواسهم، كما وصفهم الله ﷻ بقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا

---

(١). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ١٢٧ .

(٢). ينظر : حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك : ١ / ٢٠٥ .

(٣). ينظر : الكتاب : ١ / ٢٤٥ .

(٤). ينظر : معاني النحو : ٢ / ١٦ .

﴿ صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ٣٩]
فناسب كل ذلك زيادةُ الكاف[١].

(١). ينظر : ملاك التأويل : ١ / ٤٥٣ – ٤٥٤، والتعبير القرآني : ٩٧ – ٩٩ .

الفصل الثالث

تناسب النظم

وفيه . . .

- تناسب التشكيل الصوتي والبنية الصرفية
- تناسب التركيب النحوي والمفردة اللغوية

الفصل الثالث

مدخل

يرد النظم في المعاجم اللغوية بمعنى التأليف، قال ابن فارس : ((النون والظاء والميم: أصل يدلُّ على تأليف شيء وتأليفه))[١]، ويقال : (((نَظَمَه يَنْظِمُه نَظْمًا ونِظامًا ونَظَّمَه فانْتَظَمَ وتَنَظَّمَ)، و (نَظَمْتُ اللؤلؤ)، أي : جمعتُهُ في السِلك، ومنه : (نَظَمْتُ الشِعر ونَظَّمْتُهُ)، (وكلُّ شَيْءٍ قَرَنْتَه بِآخَرَ أَوْ ضَمَمْتَ بعضَه إِلَى بَعْضٍ، فَقَدْ نَظَمْتَه)))[٢].

من هذا العرض اللغويّ نستخلص أنَّ النظم هو تأليف أو جمع أو ضمّ الأشياء بعضها إلى بعض في نمط أو نسق معين، بطريقة تعطي ارتياحًا ورضًى في النفس، كنظم اللؤلؤ، والخرز، والكلام والشعر[٣].

وفي الاصطلاح هو : ((تأليف الكلمات والجمل مترتبة المعاني متناسبة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل، وقيل : الألفاظ المترتبة المسوقة المعتبرة دلالاتها على ما يقتضيه العقل))[٤].

والنظم في حقيقته قائم على التوفيق بين ثلاثة عناصر مجتمعةً، وهي كما حددها الخطابي بقوله : ((وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم))[٥]، فلو اختلّ واحد من هذه العناصر الثلاثة لفقد النظم قيمته ورونقه.

ثم كان للشيخ عبد القاهر الجرجاني فضل تفصيل ما قاله الخطابي، وبيانه، وشرحه، فكان النظم عنده قائمًا على حسن الترتيب الذي يمر بمرحلتين، هما :

المرحلة الأولى : ترتيب المعاني في النفس والعقل والذهن.

المرحلة الثانية : ترتيب الألفاظ على حذو ترتيب معانيها في العقل .

---

(١). مقاييس اللغة : ٥ / ٤٤٣، (نظم) .

(٢). لسان العرب : ٦ / ٤٤٦٩، (نظم) .

(٣). ينظر : مقدمة تحقيق دلائل الإعجاز : ٢٧ .

(٤). التعريفات : ٢٤٢ .

(٥). ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ٢٧ .

وهذا ما يوضحه الشيخ عبد القاهر الجرجاني بقوله : ((فلو أنّ واضع اللغة كان قد قال : (ربض) مكان (ضرب)، لما كان في ذلك ما يؤدّي إلى فساد، وأمّا نظم الكلم، فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني، وترتّبها على حسب ترتّب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النّظم الذي معناه ضمّ الشيء إلى الشيء كيف جاء واتّفق))[١].

وفوق كلِّ ذلك يجب أن يكون ترتيب الألفاظ والجمل منضبطًا على وفق مقتضيات علم النحو وأصوله، قال الشيخ الجرجاني : ((اعلم أن ليس النّظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخلّ بشيء منها))[٢].

وتكمن روعة النظم عند الجرجاني في حسن ملاءمة معاني الألفاظ لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها، وهذا يقتضي وضع اللفظة أو التركيب في موقعه المناسب حتى تكون متمكنة ومقبولة لا قلقة ومستكرهة[٣]، وهذا لا يتأتّى إلا للنظم القرآني الذي هو : ((طريقة تأليف حروفه وكلماته وجمله، وسبكها مع أخواتها في قالب محكم، ثم طريقة استعمال هذه التراكيب في الأغراض التي يتكلم عنها، للدلالة على المعاني بأوضح عبارة في أعذب سياق وأجمل نظم))[٤].

ومن المحدثين المشتغلين بالبيان القرآني سيد قطب الذي زاد على العناصر السابقة التي ذكرها الخطابي عنصرين آخرين؛ ليقرر أنَّ عناصر البلاغة في العمل الأدبي خمسة بقوله : ((وتستمد العبارة دلالتها – في العمل الأدبي – من :

١. مفردات الدلالات اللغوية للألفاظ .

٢. الدلالة المعنوية : الناشئة عن اجتماع الألفاظ وترتيبها في نسق معين .

٣. الدلالة المعنوية : الناشئة عن اجتماع الألفاظ وترتيبها في نسق معين .

---

(١). دلائل الإعجاز : ١٠٢ .

(٢). دلائل الإعجاز : ١٢٧ .

(٣). دلائل الإعجاز : ٩٨ .

(٤). مباحث في إعجاز القرآن : ١٣٣ .

٤. الإيقاع الموسيقي : الناشئ من مجموعة إيقاعات الألفاظ متناغمًا بعضها مع بعض .

٥. الصور والظلال : التي تشعُّها الألفاظ متناسقة في العبارة .

٦. التنسيق الذي يسمح لكل لفظ بأن يشع شحنته من الصور ومن الإيقاع، والذي يؤلف إيقاعًا متناسقًا بين الألفاظ، وظلالًا متناسقة كذلك من ظلال الألفاظ))[١].

وهكذا تبدو عظمة النظم القرآني من خلال تنسيقه بتوازنٍ تامٍّ بين هذه العناصر الآنفةِ الذكر، فترى روعة اختيار مفردات تراكيبه، وجمال انتقاء جمله، وعذوبة سبك مبانيه، على وفق متطلبات السياق داخل كل سورة منه، ويبقى لعلم المناسبة فضل استخراج الأسرار الكامنة وراء هذه التعبيرات القرآنية في اختلاف تراكيب الجمل.

(١). النقد الأدبي أصوله ومناهجه : ٤٩ – ٥٠ .

المبحث الأول

تناسب التشكيل الصوتي والبنية الصرفية

تناسب التشكيل الصوتي

يمثل التشكيل الصوتيّ جانبًا مهمًّا في النظم القرآنيّ؛ لأنه يهتمُّ بالحرف وما يطرأ عليه من صفات ومخارج، وبالكلمات وما تحدثه من نغم وجرس، وبالجمل وما بينها من تلاؤم، وبهذا كلِّه تتشكل الموسيقى الداخلية التي تجعل للنّصّ القرآني طراوة وحلاوة، تشنف بسماعه الآذان، وتطيب لإيقاعاته النفوس، وتخشع بجرس آياته القلوب، ولا تملّ منه الإعادة، وكل ذلك يؤكد روعة النظم الموسيقي في القرآن الكريم، وهو ما ذهب إليه الرافعي بقوله : ((ولا نرى جهة تعليله ولا نصحح منه تفسيراً إلا ما قدمنا من إعجاز النظم بخصائصه الموسيقية، وتساوُق هذه الحروف على أصول مضبوطة من بلاغة النغم، بالهمس والجهر والقلقلة والصفير والمد والغنة ونحوها، ثم اختلاف ذلك في الآيات بسطاً وإيجازًا وابتداء وردًا، وإفرادًا وتكريرًا))[1].

يراعي النظم القرآني في اختيار الأصوات وتوزيع المقاطع وتأليفها ما ينسجم مع المعاني التي يريد إيصالها إلى المخاطبين، ونوعِ التأثير الذي يريد إثارته في نفوس المتلقين[2]، إلى جانب مراعاته في ذلك الوظيفة الجمالية في جعل الصورة السمعية متكاملة الأجزاء، معتدلة التركيب[3]، وهذا ما نجده مثلا في اختياره الحرف المشدد في المفردة ﴿ ٱثَّاقَلْتُمْ ﴾ في مَعْرِض النعي على المؤمنين القاعدين عن الجهاد، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ

---

(١). إعجاز القرآن، والبلاغة النبوية : ٢١٨.

(٢). التناسب البياني في القرآن : ٣٠٧ .

(٣). التناسب البياني في القرآن : ٣٢١ .

﴿ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٞ ٣٨ ﴾ [التوبة: ٣٨]، إذ إنّ حرف الثاءِ اللثويِّ المشددِ يجعلُ اللسان عالقًا بأطراف الأسنان بشكل قويّ، إلى جانب الدلالة على المبالغة، وهذا المقطع الصوتيّ يصور مدى حبّ هؤلاء للقعود عن الجهاد، وانعدام حركتهم تمامًا[١]، في حين لو أبدل الفعل (تثاقلتم) بـ ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ﴾ لضاع المعنى الذي أريد من وراء اختيار هذا الحرف المشدد، وفي هذا قال سيد قطب : ((ولو أنّك قلت : تثاقلتم، لخفّ الجرس، وضاع الأثر المنشود، ولتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها اللفظُ واستقلّ برسمها))[٢].

والمتأمل في ألفاظ القرآن الكريم يجدها متجانسة تجانسًا لا مثيل له في دقة انسجام أصواتها، وروعة اختيار حروفها، وخفة سلاسة حركاتها، قال الرافعي : ((ولو تدبرتَ ألفاظ القرآن في نظمها، لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة فيهيئ بعضها لبعض، ويساند بعضًا، ولن تجدها إلا مؤتلفةً مع أصوات الحروف، مُساوقةً لها في النظم الموسيقي، حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيها كان ...، فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأنًا عجيبًا، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقاً في اللسان، واكتنفتها بضروب من النغم الموسيقي حتى إذا خرجت فيه كانت أعذبَ شيء وأرقه، وجاءت متمكنة في موضعها، وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة))[٣].

تتّخذ دراسة التشكيل الصوتي مناحي عدة، وطرائق كثيرة، إلا أنني سأكتفي في دراسته على الظواهر الصوتية مثل الفاصلة، ودلالة الصوت المفرد ، ودلالة تركيب الأصوات ؛ لما لهما من صلة وثيقة بعلم المناسبة، وجاءت الدراسة على النحو الآتي :

---

(١). ينظر : جماليات المفردة القرآنية : ١٥٩ .

(٢). التصوير الفني في القرآن : ٩١ – ٩٢ .

(٣). إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ٢٢٧ .

• **الفاصلة**

تعدّ الفاصلة من ألوان المناسبة الصوتية في القرآن الكريم، لما تؤديه من بلاغة وحكمة في حسن إفهام معاني الآية وإبراز المقصود بها[١]، إلى جانب ما تحققه من توازنٍ صوتيٍّ وتناغمٍ إيقاعيٍّ بين آيات السورة[٢].

وللفاصلة تعريفات كثيرة، ومن بينها تعريف الباقلاني الذي عرّفها بقوله : ((حروف متشاكلة في المقاطع يقع بها إفهام المعاني))[٣]، بينما عرّفها أبو عمرو الداني بأنها : ((كلمة آخر الجملة))[٤]، وعرفها الزركشي بأنها : ((هي كلمة آخر الآية كقافية الشعر وقرينة السجع))[٥].

وأنسب هذه التعريفات الآنفة الذكر تعريف الزركشي الذي ينصّ على أنّ الفاصلة هي الكلمة الأخيرة من الآية، وبسببها تنفصل الآية عن الآية التي بعدها، وقد نفّر العلماء من تسمية هذه الفواصل ب (الأسجاع)؛ لأنها مأخوذة من سجع الطير، قال البقاعي : ((وأمّا تَجَنُّب أسجاع فلأنّ أصله من سجع الطير، فشُرِّفَ القرآن الكريم أن يُستعار لشيءٍ فيه لفظ هو أصل في صوت الطائر ...، ولأنَّ القرآن من صفات الله ﷻ، فلا يجوز وصفه بصفة لم يرد بها، وإن صحَّ المعنى، ثم فرّقوا بينهما فقالوا : (السجع) هو الذي يقصد في نفسه ثمَّ يحيل المعنى عليه، والفواصل التي تتّبع المعاني، ولا تكون مقصودة في نفسها))[٦].

وللفاصلة دور مُهِمّ في تحقيق الإحكام المعنويِّ بالدرجة الأولى[٧]، بسبب ما بينها وبين وبين أول الآية من مناسبة وارتباط قويّ، قال الزركشي : ((اعلم أنّ مِن المواضع التي يتأكّد فيها إيقاع المناسبة مقاطع الكلام وأواخره، وإيقاع الشيء فيها بما يشاكله، فلا بدّ أن

---

(١). ينظر : النكت في إعجاز القرآن : ٩٨ .

(٢). ينظر : التعبير القرآني والدلالة النفسية : ١٨٧ .

(٣). إعجاز القرآن : ١٨٩ .

(٤). البرهان في علوم القرآن : ١ / ٥٣ .

(٥).البرهان في علوم القرآن : ١ / ٥٣ .

(٦). البرهان في علوم القرآن : ١ / ٥٤ .

(٧). ينظر : إعجاز القرآن البياني، ودلائل مصدره الرباني : ٣٢٠ .

تكون مناسبة للمعنى المذكور أولًا، وإلّا خرج بعض الكلام عن بعض، وفواصل القرآن العظيم لا تخرج عن ذلك، لكن منه ما يظهر، ومنه ما يُستخرج بالتأمُّل للبيب))[1]، وقد أطلق العلماء القدماء على هذه العلاقة مصطلح : (ائتلاف الفواصل مع ما يدلّ عليه الكلام)[2].

وبحسب ائتلاف الفاصلة وارتباطها معنويًّا بمضمون الآية، فقد قسمت على أربعة أنواع، لها كبير ارتباط بعلم المناسبة، وهي : (التمكين، والتصدير، والتوشيح، والإيغال) .

١. **التمكين** : وهو : ((أن تُمهِّد قبلها تمهيدًا تأتي به الفاصلة ممكَّنةً في مكانها مستقرَّةً في قرارها مطمئنَّةً في موضعها غير نافذة، ولا قلقةً متعلِّقًا معناها بمعنى الكلام كلِّه تعلُّقًا تامًّا؛ بحيث لو طُرِحَتْ اختلَّ المعنى واضطرب الفهم))[3].

ومن أمثلة ذلك ﴿يُشْرِكُونَ ﴾ في قوله ﷻ : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يونس: ١٨] .

فالفاصلة ﴿يُشْرِكُونَ ﴾ جاءت مناسبةً لما تقدّم من التمهيد الذي تمثل بعبادتهم ما لا يملك لهم ضرًّا، ولا نفعًا في الدنيا والآخرة، وزعمهم أنّ هذه المعبودات تشفع لهم عند الله، وتقربهم إلى الله زلفى، فيَدْفَع بسببها عنهم البلاء، ويعطيهم من أنواع النَّعماء، وكأنّ الله، بقولهم وزعمهم هذا، لا يعلم شيئًا عن أمر هؤلاء الشفعاء[4].

فكل ذلك التمهيد الذي ورد في الآية، يدلُّ على مظاهر الشرك، لذلك جاءت الفاصلة ﴿يُشْرِكُونَ ﴾ مناسبة أتمّ مناسبة للآية، ولا سيما أنها جاءت في سياق تنزيه الله ﷻ عن شركهم وكفرهم، وممّا يجعل هذه الفاصلة متمكنةً في مكانها، غيرَ قلقةٍ في قرارها، مجيئُها بالفعل المضارع الذي يتناسب مع الأفعال المضارعة الواردة في مضمونها :﴿ وَيَعْبُدُونَ ﴾ ، و ﴿لَا يَضُرُّهُمْ ﴾ ، و﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾، و﴿وَيَقُولُونَ ﴾ للدلالة على

---

(١). البرهان في علوم القرآن : ١ / ٧٨ .

(٢). الفاصلة في القرآن : ٢٨٥ .

(٣). البرهان في علوم القرآن : ١ / ٧٩

(٤). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٢٧٧ – ٢٧٩ .

استحضار حالتهم العجيبة من استمرارهم على معتقدهم الفاسد في العبادة[١]، فضلًا عمّا تنهض به هذه الأفعال من انسجامٍ وتناسقٍ فنيٍّ داخلَ الآية .

٢. **التصدير** : وهو ((أن تتقدم لفظة الفاصلة بمادتها في أول صدر الآية أو أثنائه أو آخره، وقد سمّى البلاغيون هذا الصنف (ردّ الأعجاز على الصدور)[٢].

فمن أمثله هذا النوع : الفاصلة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ المتصدِّرة بـ ﴿لِتَعْلَمُوا﴾ في قوله ﷻ : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ يونس: ٥ .

فالفاصلة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ مناسبة لمضمون الآية التي تناولت النظام الكونيّ القائم على جعل الشمس ضياء، والقمر نورًا، وجعله منازل، لكي نعلم عدد السنين وحساب الأوقات في ضبط العبادة من صلاة وصيام وحجّ وزكاة وضبط المعاملات الدينية أو المالية أو المدنية[٣]، فضلًا عن ذلك فائدته في تحديد الأوقات المناسبة للزراعة والحراثة، والاستعداد لمتطلبات الشتاء والصيف[٤]، وهذا العلم، أعني علم حساب السنين والأوقات، لا يُتَوصل إليه إلا بالتَّأمُّل والمشاهدة اللذين بدورهما يقودان إلى اكتشاف أسرار هذا العلم، بالإضافة إلى الوقوف على عظيم تدبير الله في كونه، وحسن تصريفه مصالح الناس، ومن ثَمَّ يدرك ذو العلم أنَّ الله من خلال ما بثه من تفاصيل آياته في كونه، هو المستحق للعبودية والألوهية، لذا تكررت مادة (العلم) لمناسبتها لأمرين اثنين :

أولًا : التنويه بأهمية العلم في كشف أسرار الآيات الكونية الدالة على قدرة الله .

---

(١). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ١٢٥ .

(٢). علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن الكريم وكشف إعجازه : ٧٩، وينظر : الفاصلة في القرآن : ٢٨٩ .

(٣). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٢٦١، وينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ٩٦ .

(٤). ينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ / ٣٥ .

ثانيًا : التنويه بأهمية العلماء الذين يعلمون وجوه الدلالة للاستدلال على وحدانية الله، والفرق بين الحقّ والباطل، وكلا الأمرين يدلّان على أن الإسلام دين يهتم بالجانب العلميّ[١].

٣. **التوشيح** : هو ((أن يرد في الآية معنى يشير إلى الفاصلة حتى تعرف منه قبل قراءتها))[٢]، وثمة تشابه بين التوشيح والتصدير في أنهما يقعان في صدر الآية، إلا أن دلالة التوشيح معنوية، ودلالة التصدير لفظية[٣].

ومن أمثلته، الفاصلةُ ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في قوله ﷻ : ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يونس: ٨٣] .

جاءت الفاصلة ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ منسجمةً مع ما يصوره صدرُ الآية من إجرام فرعون ومَنْ مالأه من أشراف بني إسرائيل الجبناء، في حقّ من يفكر في الإيمان لموسى عليه السلام، وهذا ما كان فعلًا؛ إذ لم يؤمن له أحد إلا ذرّيّة من قومه عليه السلام، وهم فئة الشباب الذي آمنوا على خوف عظيم من أنْ تطالهم في أي لحظة من اللحظات يدُ البطش والتنكيل على الرّغم من قوتهم وعنفوانهم[٤]، وحرف الجر ﴿عَلَىٰ﴾ يبين مدى الخوف المُسْتَكِنِّ والمتمكن من نفوس هؤلاء الشبان[٥]، ولا شكّ أنّ مَنْ يقرأ صدر هذه الآية، فيتصور هذه الصورة التي تبلورت مشاهدها في ذهنه، سيندفع بنفسه إلى نَعْتِ فرعون بالمسرف المبالغ المتجاوز حدود الرحمة في القتل والتعذيب، ولا سيما أنَّ الفاصلة ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أتت مؤكدةً لمضمون الآية[٦] .

---

(١). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٢٦٢ .
(٢). علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن الكريم وكشف إعجازه : ٧٩ .
(٣). ينظر : البرهان في علوم القرآن : ١ / ٧٩ .
(٤). ينظر : تفسير القرآن العظيم : ٤ / ٢٥٠ .
(٥). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ٢٥٩ .
(٦). ينظر : روح المعاني : ١١ / ١٦٩ .

٤. **الإيغال** : هو ((أن ترد الآية بمعنى عامّ، وتأتي فاصلتها بزيادة في ذلك المعنى على الحدّ الذي بلغته الآية)).

ومن أمثلة هذا النوع، الفاصلة : ﴿يَسْمَعُونَ﴾ في قوله ﷻ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [يونس: ٦٧][١].

فمعنى الآية قد تمّ بقوله : ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ الذي يدل على أنَّ الله أراد بتخليق الليل والنهار أنواعًا كثيرة من الدلائل على قدرة الله ووحدانيّته، لا تنحصر فيما ذكر في الآية الكريمة من جعل الليل سكنًا للراحة، والنهار مبصرًا للحركة فيه للمعاش[٢]، وجيء بالفاصلة ﴿يَسْمَعُونَ﴾ زيادة في المعنى بأن هذه الآيات تنهض دلالاتها لمن يسمعونها سماع تدبر، ويُعْمِلون فكرَهم فيها، فيعتبرون بها ويتعظون[٣]، قال ابن عاشور : ((ووصف (قوم) بأنهم (يسمعون) إشارة إلى أن تلك الآيات والدلائل تنهض دلالتها للعقول بالتأمل فيها، وأنَّ توجه التفكير إلى دلائلها غير محتاج إلا إلى التنبيه عليها ولفته إليها، فلما كان سماع تذكير الله بها هو الأصل الأصيل في استخراج دلالتها وتفريع مدلولاتها على تفاوت الأذهان في الفطنة وترتيب الأدلة جعل آيات دلالتها حاصلة للذين يسمعون))[٤]، ومن جانب آخر أتت الفاصلة ﴿يَسْمَعُونَ﴾ متَّسقة مع صدر الآية التي استهل الحديث فيه بالليل الذي يناسبه آلة السمع .

---

(١). ذكر محمّد الحسناوي مثالا قريبا من هذا المثال لهذا النوع من الفواصل، وهو قوله ﷻ : ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ المائدة: ٥٠، فالكلام قد تمّ بقوله : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا ﴾، فاحتاج إلى فاصلة تناسب القرينة الأولى؛ فلما أتى بها أفاد معنى زائدًا . ينظر : الفاصلة في القرآن : ٢٩١ .

(٢). ينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ / ١٣٨، تفسير أبي السعود : ٢ / ٦٨٩ .

(٣). ينظر : جامع البيان في تأويل القران : ١٢ / ٢٢٨ .

(٤). التحرير والتنوير : ١١ / ٢٢٨ .

الدلالة الصوتية

لقد كانت الدلالة الصوتية من صميم اهتمامات النظم القرآني، فينتقي من الألفاظ ما تتميز بخصائص صوتية معينة تنسجم مع السياقات المختلفة، ويعمد إلى الأصوات التي تتّسم بإيحاءات دلالية تقتضيها المقامات المتعددة؛ مثل مقام التفخيم والتعظيم والتهويل والتحقير، قال الدكتور مصطفى شعبان المصري : ((وإذا نظرنا في القرآن الكريم نجد أنه يراعي تمام المراعاة ما للّفظ من خصائص صوتية تتفق مع السياق الوارد فيه، فإذا كان السياق للتفخيم أو للتهويل كان في ألفاظه من المقاطع الصوتية ما يدلّ على ذلك كزيادة صوت أو تفخيمه، أو كان يدلّ على التردد والحيرة كان في ألفاظه تكرار للصوت، أو كان يدلّ على التمهل والصبر أو التباطؤ كانت الألفاظ فيه تتوالى فيها السواكن والحركات، بحيث يعقب كلَّ متحرك ساكن))[١].

وتستمدّ الدلالة الصوتية من الصوت الواحد البسيط أو الصوت المركب الثنائي، أو الثنائي الملحق بحرف أو أكثر، أو الثلاثي المجرد والمزيد، أو الرباعي، أو الخماسي، أو السداسي[٢]، فتوحي هذه الأصوات بمدلولات متميزة في مجالات عدّة؛ كالألم، والبهجة، واليأس، والرجاء، والرغبة، والرهبة، والوعد، والوعيد، والانذار، والتوقع، والترصد، والتلبث ... إلخ[٣]، وسأتناول دراسة الدلالة الصوتية في سورة يونس من مستويين :

الأول : دلالة الصوت المفرد

ويقصد بهذه الدلالة ما كان من : ((مناسبة بين الصوت والمعنى، أي : إنَّ كلَّ صوت من الأصوات الهجائية يناسب حالة من الحالات لا يكاد يخالفها في شيء))[٤].

فمن دلالة الصوت المفرد :

---

(١). المناسبة في القرآن : ١١٤ .

(٢). ينظر : دراسات في فقه اللغة : ١٤٢ .

(٣). ينظر : الصوت اللغوي في القرآن : ١٦٤ .

(٤). الدلالة الصوتية في اللغة العربية : ١٤٤ .

أ. **دلالة صوت (السين)** : فمخرج السين : ((ما بين طرف اللسان وفويق الثنايا))[١]، وهو صوت رخوٌ مهموسٌ[٢]، وله إيحاءات دلالية، وهي أنه يدلّ على الليونة والسهولة والنقص في أكثر أحواله، والنعومة والملاسة[٣].

ويظهر تناسب صوت (السين) في المفردة ﴿مَسَّ﴾ التي وردت في قوله ﷻ : ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يونس: ١٢]، من خلال أن (السين) تدل على الليونة والضعف، وهو ما يتوافق مع مدلول المفردة ﴿مَسَّ﴾ المأخوذة من (المسّ) الذي : ((يدل على جسّ الشيء باليد))[٤]، ويدل أيضًا على : ((ما ينال الإنسان من أذى))[٥]، وهذا يفهم منه أنَّه مَسٌّ وأذًى يسيرٌ وليس شديدًا؛ إذ الجسّ لا يكون إلا برفق ولينٍ.

وهذا الصوت (السين) يلقي بظلاله وإيحاءاته على الآية في تشكيل صورة الإنسان الضعيف في مواجهة الأذى والبلاء أو في مواجهة الشهوات؛ فعندما يصيبه مسٌّ وأذًى يسير[٦]، تجده كيف يضرع إلى ربه بالدعاء مضطجعا لجنبه أو قاعدًا أو قائما، مبديًا مسكنته وضعفه وعجزه عن تحمل ما أصابه، وإذا ما كشف عنه الأذى، كان في مواجهة شهوته ضعيفا، فينقاد لها، مُعرِضًا عن الشكر، وكأنه لم يحدث له شيء من الأذى، يقول الفخر الرازي : ((المقصود من هذه الآية، بيان أن الإنسان قليل الصبر عند نزول البلاء، قليل الشكر عند وجدان النعماء والآلاء، فإذا مسه الضر أقبل على التضرع والدعاء مضطجعا أو قائمًا أو قاعدًا مجتهدًا في ذلك الدعاء طالبا من الله تعالى إزالة تلك المحنة، وتبديلها بالنعمة والمحنة، فإذا كشف تعالى عنه ذلك بالعافية أعرض عن الشكر، ولم يتذكر ذلك الضر ولم يعرف قدر الإنعام، وصار بمنزلة من لم يدع الله تعالى لكشف ضره، وذلك

---

(١). الكتاب : ٤ / ٤٣٣، وسرّ صناعة الإعراب : ١ / ٤٧ .

(٢). الدلالة الصوتية في اللغة العربية : ١٤٣ .

(٣). ينظر : الدلالة الصوتية في اللغة العربية : ١٥٠، وخصائص الحروف العربية ومعانيها : ١٠٩ .

(٤). مقاييس اللغة : ٥ / ٢٧١، (مسَّ) .

(٥). المفردات في غريب القرآن : ٢ / ٦٠٤، (مسس) .

(٦). ينظر : روح المعاني : ١١ / ٧٩ .

يدل على ضعف طبيعة الإنسان وشدة استيلاء الغفلة والشهوة عليه))[1]، وبهذا يتبين كيف ناسبت قيمة (السين) الصوتية مدلول كلمة ﴿ مَسَّ ﴾ في الآية الكريمة .

ب. **دلالة صوت (الشين)** : فأمّا مخرج الشين فهو من ((وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى))[2]، وأما صفته فهو ((صوت رخوٌ مهموس، عند النطق به يندفع الهواء من الرئتين مارًا بالحنجرة، فلا يحرك الوترين الصوتيين))[3].

ويدلّ صوت (الشين) على ((التفشيّ بغير نظام))[4]، ولعل مردّ ذلك إلى ما يصحب عملية النطق به من ((بعثرة النفَس أثناء خروج صوت هذا الحرف يماثل الأحداث التي تتم فيها البعثرة والانتشار والتخليط ... أمّا صوته فهو يوحي بإحساس لمسيٍّ بين الجفاف والتقبُّض))[5].

ودلالة صوت (الشين) على التفشيّ تظهر ملامح مناسبته فيما ورد من مفردات في سورة يونس، وهذا ما نجده في مفردة ﴿ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾ المأخوذة من (((البَشَرَة) : ظاهر الجلد ...، وجمعها : (بَشَرٌ وأَبْشَارٌ)، وعبّر عن الإنسان بـ (البَشَر) اعتبارا بظهور جلده من الشعر، بخلاف الحيوانات التي عليها الصوف أو الشعر أو الوبر ...، وأَبْشَرْتُ الرجل وبَشَّرْتُهُ وبَشَرْتُهُ : أخبرته بسارّ بسط بشرة وجهه، وذلك أنّ النفس إذا سرّت انتشر الدم فيها انتشار الماء في الشجر ...، ويقال للخبر السارّ: البِشارة والبُشْرَى، قال ﷻ : ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾ [يونس: ٦٤]))[6].

---

(١). مفاتيح الغيب : ١٧ / ٥٢ .

(٢). الكتاب : ٤ / ٤٣٣، وسرّ صناعة الإعراب : ١ / ٤٧ .

(٣). الأصوات اللغوية : ٦٩ ، الحرف المهموس هو الذي لا يهتز معه الوتران الصوتيان ، ولا يسمع لهما رنين حين النطق به ، وأما الأصوات الرخوة فعند النطق بها لا ينحبس الهواء انحباسًا محكمًا . الأصوات اللغوية : ٢٢ و٢٥ .

(٤). خصائص الحروف العربية ومعانيها : ١١٣ .

(٥). خصائص الحروف العربية ومعانيها : ١١٣ .

(٦). المفردات في غريب القرآن : ١ / ٦٠ – ٦١، (بشر) .

فالتفشيّ جاء متناسبًا مع استعمال المفردة ﴿ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾ في قوله ﷻ : ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يونس: ٦٤]، فدلالة التفشيّ مناسبة مع زفّ البشرى إلى المؤمنين التي تفشّت آثارها في قسمات وجوههم؛ بسبب انتشار الدمّ في النفس، فانبسطت هذه الوجوه وتهللت وبرقت أساريرها، كيف لا، وقد جاء هذا الخبر السارّ تسليةً في وقت يكابد فيه الرسول ﷺ وصحابته المؤمنين أشدّ أنواع العذاب والأذى والتهديد على أيدي الكفار(١)، فكانت البشارة في الحياة الدنيا بالنصر والغلبة على المشركين كما حدث في غزوة بدر، وفي الحياة الآخرة بتثبيت الملائكة قلوبهم عند الموت والبعث، وتقوية إلهام الحقّ والخير فيهم، وتبشيرهم بالجنة كما يفهم من آيات سورة فصلت(٢)، وكأنّ آثار هذه البشرى قد تفشت في الحياة الدنيا والآخرة .

وقد وردت دلالة التفشي أيضًا في مفردة ﴿ ٱلشَّدِيدَ ﴾ المأخوذة من ((الشَّدِّ : العقدُ القويُّ ... و (الشِّدَّةُ) تستعمل في العقد، وفي البدن، وفي قوى النّفس، وفي العذاب))(٣)، في قوله ﷻ : ﴿ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [يونس: ٧٠] .

لمّا كان الافتراء على الله بأنه اتّخذ ولدًا تعدّ جريمةً عظيمةً، يستلزم ذلك عقابًا يُوصفُ بالشدةِ حتى يتفشّى وقْعُ تهديده إلى كلّ من تسول له نفسه أن ينسب الولد إلى الله، تعالى عما يقولون علوًّا كبيرًا، ولاسيما أنَّ هذه القيمة الصوتية وردت في معرض التنبيه والتحذير والتوبيخ(٤)، ﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [يونس: ٦٨ – ٦٩] .

---

(١). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ٢١٦ .

(٢). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٣٥٣ .

(٣). المفردات في غريب القرآن : ١ / ٣٣٨، (شدّ) .

(٤). ينظر : تفسير أبي السعود : ٢ / ٦٨٩ – ٦٩٠ .

ت. **دلالة صوت (الضاد)** : ومخرج الضاد ((من بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس))[١]، وهو صوت شديد مجهور[٢]، وأحد الحروف المستعلية[٣].

ويتسم صوت (الضاد) بالمعاني الآتية :

- الاستطالة[٤].
- الشدة[٥].
- الامتلاء[٦]

انعكست هذه المعاني على صوت (الضاد) في المفردة ﴿ضِيَآءً﴾ الواردة في قوله ﷻ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [يونس: ٥] .

فالـ ﴿ضِيَآءً﴾ مأخوذة من (الضوء)، ومعناه : ((ما انتشر من الأجسام النّيّرة))[٧]،))[٧]، وهذا يدل على أن الشمس جسم مُنير، يأخذ ضوؤه في الاستطالة فيصير الضوء شديدًا قويًّا، مؤذنًا بامتلاء الأرض به، وبهذا يتبين تناسب صوت (الضاد) مع مدلول مفردة ﴿ضِيَآءً﴾ في وصف ضوء الشمس، بينما وُصِفَ ضوءُ القمر بـ ﴿ٱلنُّورِ﴾؛ لأنَّ ((الضياء أعلى مرتبة من النور، إذ كل ضياء نور، وليس كل نور ضياء))[٨]، ومما يقوي دلالة الشدة

---

(١). الكتاب : ٤ / ٤٣٣، وسرّ صناعة الإعراب : ١ / ٤٧ .

(٢). الدلالة الصوتية في اللغة العربية : ١٤٣، ومعنى الشديد : انحباس مجرى الهواء المندفع من الرئتين نتيجة التقاء الشفتين التقاء محكما لحظة من الزمن ، بعدها تنفصل الشفتان انفصالا فجائيا محدثا صوتا انفجاريا ، أما الصوت المجهور فيهتز معه الوتران الصوتيان . ينظر : الأصوات اللغوية : ٢١ و ٢٤ .

(٣). ينظر : سرّ صناعة الإعراب : ١ / ٢١٣ .

(٤). الصوت اللغوي في القرآن : ١١٤، وتعني الاستطالة : وهي امتداد الصوت بالضاد من أول حافة اللسان إلى آخرها . دراسات في فقه اللغة : ٢٨٣ .

(٥). ينظر : خصائص الحروف العربية ومعانيها : ١٥٣ .

(٦). ينظر : خصائص الحروف العربية ومعانيها : ١٥٣ .

(٧). المفردات في غريب القرآن : ٢ / ٣٩٢، (ضوأ) .

(٨). المفردات في غريب القرآن : ١ / ٩٧ .

الشدة والقوة التي تتوافق مع صوت (الضاد) أنَّ ﴿ضِيَآءً﴾ جمع (ضَوْء) كمثل (حِياض) تُجمع على (حَوْض)، وهذا يدل على أنّ شعاع الشمس أقوى، فهو مركب من ألوان النور السبعة التي ترى في قوس الله[1]، وبهذا كلِّه يكون صوت (الضاد) قد شكَّل مناسبةً جليّةً بين قيمته الصوتية ودلالات مفردة ﴿ضِيَآءً﴾ التي اكتنفته.

(١). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٢٦٠ .

الثاني : دلالة تركيب الأصوات

ويقصد بها : ((تآلف صوت مع صوت آخر، ودخولها في عدد من الكلمات، يكون لها معنى عامّ))[١]، ومن الأمثلة على ذلك :

أ. **دلالة (غشي)** : في لفظة ﴿أُغۡشِيَتۡ﴾ في قوله ﷻ : ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٖ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧﴾ [يونس: ٢٧] .

يتكون هذا الصوت من تركيب ثلاثة أحرف ، هي : الغين، والشين، والياء، فالغين مخرجه من أدنى الحلق إلى الفم[٢]، وهو : صوت ((رخوٌ مجهور منفتح))[٣]، ومخرج الشين : ((من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى))[٤]، وهو ((صوت رخوٌ مهموس منفتح))[٥].

وأمّا الياءُ فتشترك مع الشين في المخرج[٦]، وهو صوت ((متوسط مجهور نصف صائت منفتح)) [٧].

يدلّ تركيب الأصوات في الفعل (غشي) على التغطية والستر[٨]، في معظم دلالاته[٩]، وللغين عدة دلالات، منها : البعثرة، والظلام والسواد، والستر والخفاء[١٠]، بينما

---

(١). الدلالة الصوتية في اللغة العربية : ١٥٣ .

(٢). ينظر : الكتاب : ٤ / ٤٣٣، وسر صناعة الإعراب : ١ / ٤٧ .

(٣). الدلالة الصوتية في اللغة العربية : ١٤٢ .

(٤). الكتاب : ٤ / ٤٣٣، وسرّ صناعة الإعراب : ١ / ٤٧ .

(٥). الدلالة الصوتية في اللغة العربية : ١٤٢ .

(٦). ينظر : الكتاب : ٤ / ٤٣٣، وسرّ صناعة الإعراب : ١ / ٤٧ .

(٧). الدلالة الصوتية في اللغة العربية : ١٤٣ .

(٨). ينظر : مقاييس اللغة : ٤ / ٤٢٥، (غشى)، والمفردات في غريب القرآن : ٢ / ٤٦٧، (غشي).

(٩). ينظر : لسان العرب : ٥ / ٣٢٦١ – ٣٢٦٢، (غشا) .

(١٠). ينظر : خصائص الحروف العربية ومعانيها : ١٢٤ – ١٢٥ .

دلالات صوت الشين هي : التفشي، والانتشار، والبعثرة[١]، في حين يوحي صوت الياء في آخر المفردة بصورة بصرية، وهي صورة الحفرة، مما يدلُّ على استكانة المعنى واستقراره في هذه الحفرة الصوتية[٢]، وكلّ ذلك شكَّل مناسبة بين هذه الإيحاءات الصوتية ودلالة مفردة (غشي) التي تدلُّ على ((تغطية شيء بشيء))[٣].

وهذا ما ناسب دلالة المقطع الصوتيّ (غشي)؛ لأنَّ هؤلاء المذكورين في الآية الكريمة بسبب كفرهم وكسبهم المعاصي كانوا بحاجة إلى معاقبتهم عقابًا شديدًا وفاقًا لما اقترفوه.

فجاءت هذه الأصوات الثلاثة لتتناسب بدلالاتها مع صورة وجوه هؤلاء المزرية، فقد مثّل (الغين) البعثرة والظلام والسواد والخفاء والستر في تغطية وجوه هؤلاء العاصين بقِطَع من أديم الليل الحالك المظلم، أي : أغشيت هذه الوجوه قطعة فوق قطعة، ليس فيها بصيص من النور بسبب ما تخلفه السيئات والمعاصي من هموم وظلمة ومذلة في الوجوه[٤]، ومثَّل (الشين) التفشي والانتشار والبعثرة في ستر جميع أجزاء هذه الوجوه بالسواد والظلام، في إشارة إلى استحكام الكدر والظلمة النفسية من أثر المعاصي، ومثّل (الياء) صورة بصرية، هي صورة الحفرة الصوتية لبيان مدى استكانة واستقرار هذه الظلمات وأثرها في هذا الوجه الأشبه بالحفرة.

ب. **دلالة (صدق)** : وذلك في قوله ﷻ : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾] يونس: ٢] .

يتكون هذا المقطع الصوتي (صدق) من ثلاثة أحرف مركبة، هي : الصاد، والدال، والقاف، فمخرج الصاد ((ممّا بين طرف اللسان وفويق الثنايا))[٥]، وهو صوت ((رخوٌ

---

(١). ينظر : خصائص الحروف العربية ومعانيها : ١١٣ .

(٢). ينظر : خصائص الحروف العربية ومعانيها : ٩٨ .

(٣). ينظر : مقاييس اللغة : ٤ / ٤٢٥، (غشى) .

(٤). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٣٠٠، ومفاتيح الغيب : ١٧ / ٨٤

(٥). الكتاب : ٤ / ٤٣٣، وينظر : سرّ صناعة الإعراب : ١ / ٤٧ .

مهموس مطبق))[١]، ومخرج الدال ((مما بين طرف اللسان وأصول الثنايا))[٢]، وهو صوت ((شديد مجهور منفتح))[٣].

وأمّا مخرج القاف فهو ((من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى))[٤]، وهو صوت ((شديد مهموس منفتح))[٥].

ولهذه الأصوات دلالات[٦]، فالصّاد يحمل دلالة : (الصفاء والصلابة)، والدال يدل على : (الشدة والقوة) والقاف يدل على : (القوة والمقاومة)، وقد شكلت هذه الدلالات الصوتية مناسبة مع دلالة مفردة (صدق) التي تدلّ على ((قوةٍ في الشيء قولًا وغيره))[٧]. وغيره))[٧].

فالذين آمنوا لهم عند ربهم قدم صدق، قيل : هي بمعنى السابقة والمنزلة الرفيعة التي لم ينالوها إلا بصفاء قلوبهم وإخلاصهم وبصدق قولهم ونيَّتهم وصلابتهم في طاعة الله[٨]، وهذا الذي يتناسب ودلالةَ (الصاد)، وقيل : القدم كناية عن العمل الذي لا يقع فيه تأخير ولا إبطاء[٩]، ولا شكّ أن السعيَ في أداء الطاعات والقربات بإتقان في أوقاتها يستدعي القوة والشدة، وهذا ما يناسب دلالة (الدّال)، كما أنّ نيل هذه الدرجة الرفيعة عند الله يتطلّبُ قوةً في مقاومة النفس ودفع وساوس الشيطان التي قد تحول دون المسارعة إلى امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وهذا ما يناسب دلالة (القاف) .

---

(١). الدلالة الصوتية في اللغة العربية : ١٤٣ .

(٢). الكتاب : ٤ / ٤٣٣، وسرّ صناعة الإعراب : ١ / ٤٧ .

(٣). الدلالة الصوتية في اللغة العربية : ١٤٣ .

(٤). الكتاب : ٤ / ٤٣٣، وينظر : سرّ صناعة الإعراب : ١ / ٤٧ .

(٥). الدلالة الصوتية في اللغة العربية : ١٤٢ .

(٦). ينظر : خصائص الحروف العربية ومعانيها : ٢٤٩ .

(٧). مقاييس اللغة : ٣ / ٣٣٩، (صدق) .

(٨). ينظر : تفسير البيضاوي : ٣ / ١٠٤ .

(٩). فتح القدير : ٢ / ٥٩٦ .

هذه الأمثلة الآنفة الذكر قطرات من بحر المناسبة الصوتية في القرآن الكريم، حاولت من خلالها الوقوفَ على روعة المناسبة بين دلالة تركيب الأصوات في المفردة القرآنية في سورة يونس.

تناسب البنية الصرفية

تشكل البنية الصرفية جزءًا من مكونات النَّظم القرآني؛ لما تَمُدُّه به من معانٍ مختلفة بسبب تعدد مبانيها، فينتقي منها النَّظم الحكيم ما يتناسب مع السياق، يقول محمّد عبدالله دراز : ((الجديد في لغة القرآن أنه في كلِّ شأن يتناوله من شؤون القول يتخير له أشرف المواد، وأمسها رحمًا بالمعنى المراد، وأجمعها للشوارد، وأقبلها للامتزاج، ويضع كلّ مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق بها وهي أحق به، بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مرآته الناصعة، وصورته الكاملة، ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين، وقراره المكين))[١] .

وبالنظر في المدلول اللغوي لـ (البنية) المشتقة من الفعل (بَنِيَ) الذي يدل على البناء، وهذا ما نصَّ عليه ابن فارس بقوله : ((الباء والنون والياء أصل واحد، وهو بناء الشيء بضم بعضه إلى بعض))[٢]، فإنَّ هذا يُدَلِّل على أنَّ البنية هي بناء أو قالب أو هيئة أو إطار ذهنيّ مجرد للكلمة المفردة[٣]، وتعمل هذه البنية على إكساب هذه الكلمة معنًى معنًى إضافيًّا علاوةً على دلالتها المعجميَّة، ممّا يكون له أثره في السياق اللغوي[٤]، وقد عرّف الرضي البنية الصرفية، فقال : ((المراد من بناء الكلمة ووزنها وصيغتها هَيْئَتُها التي يمكن أن يشاركها فيها غيرها، وهي عدد حروفها المرتبة وحركاتها المعينة وسكونها مع اعتبار الحروف الزائدة والأصلية كُلٌّ في موضعه، فـ (رَجُل) مثلًا على هيئة وصفة يشاركه فيه (عَضُد)، وهي كونه على ثلاثةٍ، أولها مفتوح وثانيها مضموم، وأمّا الحرف الأخير فلا تعتبر حركته وسكونه في البناء، فَـ (رَجُل ورَجُلاً ورَجُلٍ) على بناء واحد، وكذا (جَمَلٌ)

---

(١). النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن : ١٢١ .

(٢). مقاييس اللغة : ١ / ٣٠٢، (بني) .

(٣). ينظر : البيان في روائع القرآن : ٢٩ .

(٤). ينظر : السياق اللغوي في القصص القرآني : ٧٢ .

على بناء (ضَرَبَ)؛ لأن الحرف الأخير لحركة الإعراب وسكونه، وحركة البناء وسكونه))[١] .

ولأهمية دراسة تناسب البنية الصرفية داخل النصّ القرآنيّ، فسأتناولها في سورة يونس من زاويتن، هما : (**بنية التضعيف**)، و(**بنية المشتقات**) .

أولًا : بنية التضعيف : ومنه :

١. (**فعَّل**) : وهو ما كان مزيدًا بحرف واحد، بتضعيف عين الفعل، وقد يأتي متعدِّيًا، مثل قولك : (كَسَّرْتُه)، و (قَطَّعْتُه)، أو غير متعَدٍّ، مثل : (سبَّح)، و (هَلَّل)[٢]، وترد هذه البنية بعدَّة معانٍ[٣]، من أبرزها :

أ. **التكثير والمبالغة** : وهذا هو الغالب في معانيها[٤]، قال الرضي : ((الأغلب في (فَعَّلَ) أن يكون لتكثير فاعله أصلَ الفعل، ... تقول : (ذَبَحْتُ الشاة)، ولا تقول : (ذَبَّحتها)، و(أغلقت الباب مرة)، ولا تقول: (غَلَّقْت)، لعدم تصور معنى التكثير في مثله، بل تقول: (ذَبَّحْتُ الغنم)، و(غَلَّقْتُ الأبواب)))[٥].

وسرّ اكتساب بنيةِ (فعَّل) دلالة التكثير والمبالغة، مرجعه إلى تكرير الفعل والحدث، قال سيبويه في ذلك : ((تقول: (كَسَرتها وقَطَعْتها)، فإذا أردت كثرة العمل قلت : (كسَّرْته وقطَّعته ومزَّقْته)، وممّا يدلك على ذلك قولهم : عَلَطْتُ البعيرَ وإبلٌ معلَّطةٌ وبعيرٌ معلوطٌ، وجَرَحْتُه وجَرَّحْتُهم، وجَرَّحْتُه : أكثرت الجراحات في جسده ...، وقالوا: يُجَوِّلُ أي : يُكثِر الجَولان، ويُطَوِّفُ أي : يُكثِر التطويف))[٦]، وقد ألمح ابن جني إلى المناسبة التي بين بنية (فَعَّل) ودلالته على التكثير، وذلك من خلال أنه رأى أنّ العرب جعلت تكرار العين دليلًا

---

(١). شرح شافية ابن الحاجب للرضي الاستراباذي : ١ / ٢ .

(٢). ينظر : المنصف : ١ / ٩١، والممتع الكبير في التصريف : ١٢٩.

(٣). ذكر أبو حيان الأندلسي تسعة معانٍ لهذه الصيغة، ينظر : المبدع في التصريف : ١١٢ – ١١٣ .

(٤). ينظر : الكتاب : ٤ / ٦٤، وشرح الشافية في التصريف : ٢٥، وأبنية الأفعال دراسة لغوية قرآنية : ٤٨ .

(٥). شرح شافية ابن الحاجب للرضي الإستراباذي : ١ / ٩٢ .

(٦). الكتاب : ٤ / ٦٤ .

على تكرار الحدث، فقال : ((ومن ذلك أنهم جعلوا تكرير العين في المثال دليلًا على تكرير الفعل ، فقالوا: كسَّر وقطَّع وفتَّح وغلَّق. وذلك أنهم لما جعلوا الألفاظ دليلة المعاني فأقوى اللفظ ينبغي أن يقابل به قوة الفعل، والعين أقوى من الفاء واللام))[١].

وتتخذ دلالة التكثير في بنية (فعَّل) ثلاثة مستويات[٢]، ولكن لم يرد في سورة يونس إلا مستويان، هما :

الأول : التكثير في الفعل : وتقع هذه الدلالة في الفعل المتعدِّي[٣]، ومثال ذلك (زَيَّلَ) في قوله ﷻ : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [يونس: ٢٨] .

جاءت صيغة (فَعَّلَ) الدَّالة على التكثير؛ لتنسجم مع موقف النّكاية الذي سيقف فيه المشركون مع شركائهم وأصنامهم طويلًا في أرض المحشر والحساب، لا يتحركون من مكانهم، وهم ينتظرون ماذا سيفعل بهم ؟، فإذا بهم يُفرَّق بينهم في مشهد من الفضيحة بسبب ما كان منهم من الشرك، وقد جيء بالفعل (زَيَّلَ) ليجسد هذا المشهد، ويصور مدى المبالغة والتكثير في التفريق بين المشركين وشركائهم من الأصنام تفريقًا شديدًا، وتزييلًا قويًّا بكل ما يحمله هذا المشهد من خزي ومهانة ومذلة، حتى يُقَطَّع كلُّ ما كان بينهم في الدنيا من صلات، قال ابن عاشور : ((فـ(زَيَّلَ) فعل للمبالغة في الزيل مثل (فَرَّقَ) مبالغة في فَرَقَ، والمعنى وقع بينهم تفريق قوي بحيث انقطعت جميع الوصل التي كانت بينهم))[٤]، وبهذا تتحقق المناسبة بين دلالة الفعل (زَيَّلَ) ومشهد التفريق والتمييز بينهم .

الثاني : التكثير في المفعول : ويكون في المتعدي[٥]، كما في الفعل (فَصَّلَ) الوارد في قوله ﷻ : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ

---

(١). الخصائص : ٢ / ١٥٧.

(٢). ينظر : شرح الشافية في التصريف : ٢٥، وشذا العرف في فنّ الصرف : ٣٤، الصيغ الفعلية في القرآن الكريم : ٥٨٧ – ٥٨٨ .

(٣). ينظر : الصيغ الفعلية في القرآن الكريم : ٥٨٨ .

(٤). التحرير والتنوير : ١١ / ١٥١ .

(٥). ينظر : الصيغ الفعلية في القرآن الكريم : ٥٨٨ .

﴿ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس: ٢٤] .

لما كان التعلق بالدنيا والانغماس في مُتَعِها سببًا عظيمًا في الظلم والفساد والإفساد في الأرض، اقتضى ذلك المبالغة في تفصيل الأمثال عن حال الدنيا في سرعة زوالها، وانقضاء نعيمها؛ لصرف العقلاء عن الاغترار بها في مقابل نسيان الآخرة، والدعوة إلى الهداية والاعتدال فيها[1]، وفي مجيء ﴿ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ جمعًا بعد الفعل المضعَّف ﴿ نُفَصِّلُ ﴾ دليل على على كثرة الآيات التي بولِغ في تفصيلها فيما يخصّ الدنيا والعقيدة والتشريع ... إلخ، كما في هذا المَثَل البليغ الذي بين أيدينا؛ فقد فُصِّلَ تفصيلًا بديعًا، وصَوَّر الدنيا تصْويرًا عجيبًا، مما يجعل الذين يُعْملون فِكْرَهم وعقولهم في هذه الآيات يَزْهَدون في الدنيا باقتناعٍ، ويُقْبِلون على الآخرة بيقينٍ، وفي هذا قال الفخر الرازي : ((وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أي : نذكر واحدة منها بعد الأخرى، على الترتيب ليكون تواليها وكثرتها سببًا لقوة اليقين، وموجبًا لزوال الشكّ والشبهة))[2].

ب. **النِّسْبَة أو التَّسْمية** : أي : نسبة المفعول إلى أصل الفعل وتسميته به، كقولك : فسَّقْتُه : نَسَبْتُه إلى الفِسْق، وسميته به[3]، وفي الحديث الشريف : (إِذَا كَفَّرَ الرَّجُلُ أَخَاهُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا)[4]، ومن أمثلته : (كَذَّبَ) في قوله ﷻ : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [يونس: ٤١] .

جاءت الصيغة (فَعَّلَ) مناسبة لما يتصف به هؤلاء المشركون من التشدد في الصدّ عن الإيمان بالله، والإمعان في عدم سماع كلمة الحقّ، بدليل قوله ﷻ : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟

---

(١). ينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ / ٧٦، وتفسير المنار : ١١ / ٢٩٦ – ٢٩٧ .

(٢). مفاتيح الغيب : ١٧ / ٧٨ .

(٣). ينظر : شرح شافية ابن الحاجب للرضي الإستراباذي : ١ / ٩٤، والمبدع في التصريف : ١١٣ .

(٤). ورد الحديث في : صحيح مسلم : ١ / ٧٩، رقم الحديث (١١١) .

﴿ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [يونس: ٤٢ – ٤٣]، فكان التضعيف في الفعل ﴿ كَذَّبُوكَ ﴾ ، يعكس ذلك كله من خلال إصرارهم على أن ينسبوا الرسول ﷺ إلى الكذب باستمرار، لدرجة أنَّ الله يأمره بالتبرؤ منهم وتركهم لحالهم، فلا الدعوة تنفعهم، ولا التذكير يجدي نفعا معهم[١].

ت. **قصد المكان المشتق منه الفعل** نحو (كَوَّفَ): أي : مشى إلى الكوفة، و(فَوَّزَ) و (غَوَّرَ): أي : مشى إلى المفازة والْغَوْر[٢]، ومن الأمثلة على ذلك (نجَّى) في قوله ﷻ : ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يونس: ٩٢] .

أتت الصيغةُ (فَعَّلَ) مناسبةً في تصوير عاقبة فرعون وضعفه أمام أمر الله القويّ الجبار حين أحطت به المياه من كل الاتجاهات، وهو يعلن إيمانه؛ لما يحمله التضعيف في الفعل (نَجَّى) من دلالة القصد المكانيّ؛ إذ قُصِدَ بجثة فرعون بعد موته إلى نجوة ومكان مرتفع من الأرض؛ ليكون هذا المشهد عبرة للمعتبرين، وآية للمكذبين بهلاكه، قال الطبري : ((يقول تعالى ذكرُه لفرعون : فاليوم نجعلك على نجوة الأرض ببدنك، ينظر إليك هالكا من كذب بهلاكك، ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ يقول: لمن بعدك من الناس عبرة يعتبرون بك، فينزجرون عن معصية الله والكفر به والسعي في أرضه بالفساد . والنجوة : الموضع المرتفع على ما حوله من الأرض))[٣].

٢. (**تَفَعَّل**) : مزيدة بحرفين، هما التاء وتضعيف العين[٤]، وتأتي هذه الصيغة على ضربين: مُتعدٍّ، وغير مُتَعَدٍّ، فالمتعدي نحو : قوله ﷻ : ﴿ يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ [

---

(١). ينظر : الكشاف : ٣ / ١٣٨ .

(٢). ينظر : شرح شافية ابن الحاجب للرضي الإستراباذي : ١ / ٩٦، وشذا العرف في فن الصرف : ٣٤.

(٣). جامع البيان في تأويل القران : ١٢ / ٢٧٩ .

(٤). ينظر : الصرف العربيّ، أحكام ومعانٍ : ٢٧ .

البقرة: ٢٧٥]، وقولك : (تَتَلَقَّفُ ما يأفكون)، وغير المتعدي نحو : (تحَوَّب، وتَأَثَّم)[١]، وترد بعدة معانٍ، منها[٢] :

أ. **مطاوعة (فَعَّلَ)** : من حيث التكثير[٣]، ومن أمثلته : ﴿وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ في قوله ﷻ : ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢٤﴾ [يونس: ٢٤] .

فالصيغة (ازَّيَّن) أصلها (تَزَيَّن)، فقلبت (التاء) (زايًا) لتدغم في (الزاي)، فسكنت، وأدغمت، واجتلبت همزة الوصل لأجل النطق بالساكن[٤]، وبهذا اجتمع في الفعل ﴿وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ تضعيفان، لهما الأثر الكبير في تصوير بديع جمال الدنيا بالأرض المخضرة المزدانة بأنواع النباتات والزهور كالعروس التي قد بالغت وأكثرت في التَّزيُن بصنوف الزينة والزخرفة من فاخر الثياب والحُليِّ والذهب والجواهر[٥]، وأهلها فَرِحون بها، مقبلون عليها، قبل أن ينزل عليها أمر الله لإهلاكها، في إشارة إلى أن هذه الدنيا مهما بالغت في الجمال والزخرفة وأكثرت في الرقيّ والازدهار خطوات وخطوات، فلا يُعَدُّ ذلك شيئًا أمام ما أعده الله في الدار الآخرة التي وصفها الله في الآية اللاحقة بدار السلام .

---

(١). ينظر : المنصف : ١ / ٩١ – ٩٢، والممتع الكبير في التصريف : ١٢٦، والمبدع في التصريف : ١٠٩ .

(٢). ترد هذه الصيغة بثمانية معان، ينظر : الممتع الكبير في التصريف : ١٢٦ – ١٢٧، والمبدع في التصريف : ١٠٩ – ١١٠ .

(٣). ذكر الرضي أن مطاوعة (تفعَّل) لـ (فعَّل) تتخذ ثلاثة معان رئيسة، وهي : التكثير، أو النسبة ، أو التعدية، ولا تخرج بقية المعاني الأخرى عن هذه المعاني الثلاثة. ينظر : شرح شافية ابن الحاجب للرضي الإستراباذي : ١ / ١٠٤ – ١٠٧، وشرح الشافية في التصريف : ٢٧ .

(٤). ينظر : روح المعاني : ١١ / ١٠١ .

(٥). ينظر : تفسير أبي السعود : ٢ / ٦٥٣ .

من الأمثلة أيضًا : ﴿ تَوَكَّلْتُ ﴾ في قوله ﷻ : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴿٧١﴾ ﴾ [يونس: ٧١] .

فجاءت ﴿ تَوَكَّلْتُ ﴾ بالتضعيف مناسبة لمقام التهديد الذي أحسّ به نوح ﷺ من قومه بسبب كثرة إنكاره عليهم، وتذكيرهم بآيات الله، وعدم احتمالهم له، وهذا يستدعي المبالغة والتكثير في التوكل على الله أكثر من ذي قبل، ولا سيما أن قومه في كثرة ومنعة، وهو في قلة وضعف، وقد ألمح إلى ذلك الألوسي بقوله : ((ويجوز أن يكون المراد إحداث مرتبة مخصوصة من مراتب التوكل، وإلا فهو ﷺ متوكل عليه سبحانه لا على غيره دائما))[١]، ومن دلائل شدة توكله على الله ومبالغته، أنه يتحدَّاهم غيرَ مبالٍ بتهديدهم، كما يفهم ذلك من قوله ﷻ : ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴾ [يونس: ٧١]، فهذه الآية مفرعة بالفاء على جملة ﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾[٢]، قال ابن عطية الأندلسي : ((يا قوم إن كنتم تستضعفون حالي ودعائي لكم إلى الله فإني لا أبالي عنكم لتوكلي على الله تعالى فافعلوا ما قدرتم عليه))[٣].

ب. **الاتخاذ** : للدلالة على ((اتَّخاذ أصل ما اشتق منه ذلك الفعل، نحو: (توسَّدت الحجر)؛ أي : اتخذت الحجر وسادة))[٤]، ويكون (تَفَعَّل) بهذا المعنى متعديا كما ذكرنا ذلك سابقًا[٥]، ومن أمثلته : (تَبَوَّأ) في قوله ﷻ : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يونس: ٨٧] .

فـ (التبوؤ) : تهيئة المكان وتسويته، ((بوَّأت للرجل منزلاً وبوّأته منزلاً بمعنى، أي : هيَّأته ومكَّنت له فيه))[٦]، ويقال : (((بَوَّأْتُ له مكانا) : سوّيته فَتَبَوَّأَ))[١]، ويقال : (((

---

(١). روح المعاني : ١١ / ١٥٧ .

(٢). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ٢٣٨ .

(٣). المحرر الوجيز : ٣ / ١٣١ .

(٤). شرح شافية ابن الحاجب لركن الدين الإستراباذي : ١ / ٢٦٠ .

(٥). ينظر : شرح الشافية في التصريف / ٢٨ .

(٦). الصحاح، (بوأ) : ١ / ٣٧ .

(تَبَوَّأَ منزلًا)، مهموز : أي : اتخذه))[٢]، فجاءت ﴿تَبَوَّءَا﴾ بصيغتها الدّالةِ على الاتَّخاذِ القائمِ على التهيئة والتسوية مناسبةً مع استعمالها في الآية الكريمة، فالله الحكيم الخبير أمر موسى وهارون عليهما السلام بتهيئة بني إسرائيل روحيًّا وتنظيميًّا استعدادًا للخروج من مصر، وذلك من خلال أن يتَّخذا بمصر بيوتًا مباءةً ومساكن خاصة لبني إسرائيل، ويعملا على تهيئتها؛ لتكون لهم مرجعًا يلجؤون إليها، ويقيمون فيها عبادتهم وصلاتهم[٣]، قال محمّد رشيد رضا : ((اتَّخذا لقومكما بيوتًا في مصر تكون مساكن وملاجئ يبوءون إليها ويعتصمون بها))[٤].

ت. **الفعل المتكرر في مُهْلة**، بمعنى أن الفعل يحصل بالتَّدَرُّج مرَّةً بعد مرَّةٍ[٥]، ورأى الرضي أن هذا الفعل يُعَدُّ ضمن مطاوعة (تفعَّل) لـ (فَعَّلَ) في الدلالة على التكثير[٦].

ومن أمثلته ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ في قوله ﷻ : ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢٤] .

فـ (التَّفكُّر) : ترديد القلب في الشيء، يقال : (((تَفَكَّر) إذا ردد قلبه معتبرًا))[٧]، و قال الراغب الأصفهاني : ((الْفِكْرَةُ: قوّة مطرقة للعلم إلى المعلوم، و (التَّفَكُّرُ) : جولان تلك القوّة بحسب نظر العقل))[٨]، وعلى وفق هذا التكييف اللغوي تأتي الصيغة ﴿

---

(١). المفردات في غريب القرآن : ١ / ٨٩، (باء) .
(٢). شمس العلوم : ١ / ٦٦٩، (تبوأ) .
(٣). ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٨١٦ .
(٤). تفسير المنار : ١١ / ٣٩٨ .
(٥). ينظر : شرح ابن الحاجب لركن الدين الإستراباذي : ١ / ٢٦٠ .
(٦). ينظر : شرح ابن الحاجب للرضى الأستراباذي : ١ / ١٠٥ .
(٧). مقاييس اللغة : ٤ / ٤٤٦، (فكر) .
(٨). المفردات في غريب القرآن : ٢ / ٤٩٦، (فكر) .

﴿ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ بما تدُلُّ عليه من تكرار الفعل مرَّةً بعد مرَّةٍ مُنسجمةً مع سياق الآية الكريمة، فبسبب خطورة الاغترار بالدنيا؛ لأنها معرضة للتلف والخراب كحال ما يصيب هذه الأرض، كان ذلك مدعاة إلى أنَّ يُرَدِّد الإنسانُ قلبَه وفكرَه معتبرًا في حال الدنيا الفانية حتى لا يتعلق بها، فيخسر الدار الآخرة، فضلًا عن ذلك فإنَّ فهم الآيات القرآنية والتكوينيَّة[1] يتطلَّب من الإنسان مزيدا من تكرار الفكر، وإعمال العقل الذي هو آلة الفكر، حتى ينتفع بها، فكان استعمال صيغة (تفعَّل) في هذا الموضع سببًا في تحقيق المناسبة بين استعمالها وسياق الآية، بخلاف ما لو استعملت صيغة أخرى .

(١). ينظر : فتح القدير : ٢ / ٦١٥ .

ثانيًا : بنية المشتقات

• **اسم الفاعل** : هو ((ما اشْتُقَّ من المصدر المبنى للفاعل، لمن وقع منه الفعل، أو تعلق به))[١]، فهو يدلُّ ((على حدثٍ، وفاعله جاريًا مجرى الفعل في إفادة الحدوث))[٢]، وفي توضيح ذلك قال الدكتور فاضل السامرائي : ((ويُقْصَد بالحدث معنى المصدر، وبالحدوث ما يقابل الثبوت، فـ (قائم)، مثلا، اسم فاعل يدلُّ على القيام، وهو الحدث، وعلى الحدوث، أي : التغير، فالقيام ليس ملازمًا لصاحبه، ويدلُّ على ذات الفاعل، أي : صاحب القيام))[٣].

واسم الفاعل حالة دلالية تجمع بين الثبوت والحدوث، فدلالة الثبوت فيه مرجعها إلى أنه اسم، وأمّا دلالة الحدوث فيه فهي نتاج أنه مشتق من الفعل، فاسم الفاعل (قائم) في قولنا : (خالد قائم) يدلُّ على أنَّ قيام خالد أثبت وأدوم من الفعل في قولنا : (قام خالد)؛ لأن الفعل (قام) هنا يدلُّ على حدوث قيام (خالد) دون ثبوته، ولكن في الوقت نفسه لا يرقى ثبوت اسم الفاعل إلى مرتبة الصفة المشبهة في الثبوت، مثلًا، (طويل) أو (قصير)، أو (كبير)؛ لأنه يمكن الانفكاك عن القيام إلى الجلوس، بينما لا يمكن الانفكاك عن الطول إلى القصر[٤].

ولاسم الفاعل أزمنة متعددة، منها :

أ. **المضي**[٥] : ومثاله في سورة يونس ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾ في قوله ﷻ : ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يونس: ٢٩]، فالسياق يحكي مشهد تبرؤ الشركاء من عبادة الكفار يوم القيامة، وعليه فالمعنى : إنْ كُنَّا قد غَفَلْنا عن عبادتكم، واسم الفاعل ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾ يفيد ثبوت الغفلة في الدنيا بشكل مستمر إلى ساعة الحساب

---

(١). شذا العرف في فنّ الصرف : ٥٩ .

(٢). شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك : ٣٠١ .

(٣). معاني الأبنية في العربية : ٤١ .

(٤). ينظر : معاني الأبنية في العربية : ٤١ – ٤٢ .

(٥). ينظر . معاني الأبنية في العربية : ٤٤ .

والعَرض، ويبدو لي أنَّ مجيءَ اسم الفاعل في هذا الموضع مُؤَكَّدًا بـ (إنْ) المخففة[١]، ولكنه تأكيد لا يصل إلى مرتبة التوكيد بـ (إنَّ) الثقيلة[٢]، يعكسُ حالة اضطراب الشركاء وخوفهم من أنْ يحاسبوا على إثمٍ لم يشاركوا فيه، ممّا جعلهم يطلبون البراءة من إثم أتباعهم، مُشْهِدين الله وحده على ما يقولون[٣]، قال ابن كثير في تفسير الآية : ((أَيْ : مَا كُنَّا نَشْعُرُ بِهَا وَلَا نَعْلَمُ بها، وإنما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَنَا مِنْ حَيْثُ لَا نَدْرِي بِكُمْ وَاللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنَّا مَا دَعَوْنَاكُمْ إِلَى عِبَادَتِنَا وَلَا أَمَرْنَاكُمْ بِهَا وَلَا رَضِينَا مِنْكُمْ بِذَلِكَ))[٤]، مما جعلهم يلتجئون إلى تخفيف ذلك الاضطراب باستعمال صيغة اسم الفاعل ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾ لدلالتها على الثبوت والتمكن، بدلًا من الفعل المضارع الذي يدل على الحدوث وعدم الثبات .

ب. **الحال**[٥] : ومن أمثلته : ﴿مُخۡلِصِينَ﴾، في قوله ﷻ : ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢﴾ [يونس: ٢٢]، معناه : دعوا الله بأنَّا نخلص له الدين، ولكن النسق القرآني عبَّر عن ذلك باسم الفاعل بدلًا من التعبير بالفعل المضارع، لدلالته على الثبوت، أيْ : ثبوت صفة الإخلاص فيهم، وشدة تَلَبُّسِهم بها، في موقف لا يملك فيه الإنسان إلا أن يكون صادق التعلق بالله ﷻ، كيف لا، وقد أحاط بسفينة هؤلاء الأمواجُ المتلاطمة، وسط هبوب عاصفة شديدة هوجاء، وتقطعت دونهم أسباب النجاة مما جعلهم يدعون الله بإخلاص دون أن يشوب دعاءهم شائبةُ شرك[٦]، قائلين : ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، بينما لو عُبِّرَ عُبِّرَ بالفعل المضارع لما أفاد ذلك الثبات في اتصافهم بالإخلاص.

---

(١). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ١٥٣ .

(٢). ينظر : معاني النحو : ١ / ٣٢١ .

(٣). ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٧٨٠ .

(٤). تفسير القرآن العظيم : ٤ / ٢٣١ .

(٥). ينظر : معاني الأبنية في العربية : ٤٥ .

(٦). فتح القدير : ٢ / ٦١١ .

ومن الأمثلة أيضا على زمن الحال : ﴿قَٰدِرُونَ﴾، في قوله ﷻ : ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢٤]، ومعناه : ظنَّ أهلها أنهم يقدرون عليها، فاسم الفاعل يدلّ على ثبوت قدرتهم على هذه الأرض، وتمكنهم من منفعتها، ومستمرون على تحصيل ثمرتها، قال ابن عاشور : ((ومعنى: أنهم قادرون عليها أنهم مستمرون على الانتفاع بها محصلون لثمراتها، فأطلق على التمكن من الانتفاع ودوامه لفظ القدرة على وجه الاستعارة))[1]، بخلاف لو كان التعبير بالمضارع لكان المعنى أنهم يقدرون أو لا يقدرون، مما يفوت دلالة التمكن والثبات.

ت. **الاستقبال** : ومن أمثلته ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ ، في قوله ﷻ : ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [يونس: ٥٣]، ومعناه : وما أنتم ستعجزون ربكم عن إنزال عذاب الآخرة بكم، فقد جاء اسم الفاعل في معرض تَفَنُّن الكفار في تكذيبهم العذاب الذي يعدهم به الرسول ﷺ، فمرة يتظاهرون باستبطاء الوعد بنزول العذاب عليهم استخفافًا به، ومرة يقبلون على الرسول ﷺ مستفهمين عنه؛ أحقٌّ هو؟[2]، فكان المناسب أن يأتي الردّ قاطعا باشتماله على صيغة اسم الفاعل ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ المنفية؛ لما تدلُّ عليه من ثبوت عدم قدرتهم على إعجاز ربهم في إنزال العذاب بهم عندما يحل بهم، وممّا يقوي دلالة اسم الفاعل على الثبوت، توكيدُه بحرف الجر الزائد (الباء)، إلى جانب أن الجملة التي اكتنفت اسم الفاعل سيقت مساق التَّوعُد والتخويف والترهيب[3]، وهذا ما يعكسه تأويل هذه الآية، قال الطبري : ((وما أنتم بمعجزي الله إذا أراد ذلك بكم بهرب أو امتناع، بل أنتم في قبضته وسلطانه وملكه، إذا أراد فعل ذلك بكم، فاتقوا الله في أنفسكم))[4].

---

(١). التحرير والتنوير : ١١ / ١٤٣ .

(٢). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ١٩٥ .

(٣). ينظر : فتح القدير : ٢ / ٦٣٤ .

(٤). جامع البيان في تأويل القران : ١٢ / ١٩١ .

• **الصـفة المشـبهة** : هـي ((مـا اشـتقّ مـن فعـل لازم لمـن قـام بـه علـى معنـى الثّبوت))[١]، وشبهت باسم الفاعل لما بينهما من أمور مشتركة، وهي : ((أنها تدلُّ كما يدلُّ على حدث، ومن قام به، كما أنها مثله تُؤنَّث وتُثنّى وتُجْمَع جمع مذكر سالم، ولذلك حملت عليه في العمل))[٢].

وتختلف الصفة المشبهة عن اسم الفاعل في أن الوصف فيها قد ثبت في صاحبها على وجه الدوام، نحو : هو كريم، فإن أُرِيْدَ معنى الحدوث جيء باسم الفاعل، فتقول : هو كارم[٣].

وتقسم الصفة المشبهة بالنظر إلى دلالتها على الثبوت على ثلاثة أقسام :

الأول : ما يفيد الثبوت والاستمرار، مثل : (أَسْمَر، وأَبْيَض، وأَعْوَر، وطَويل، وقَصير، ودَميم).

الثاني : ما يدل على وجه قريب من الثبوت، مثل : (نَحيف، وسَمين، وبَليغ، وكَريم، وجَواد).

الثالث : ما لا يدل على الثبوت، مثل : (ظَمْآن، وغَضْبان، ورَيّان)[٤].

وتأتي الصفة المشبهة على عدَّة أوزان، منها :

(**فَعـيل**) : تـأتي هـذه الصـيغة للدلالـة علـى الثبـوت فـي الصـفات ممـا هـو خِلْقَـة أو مُكْتَسَـب، مثـل (جَميـل، وقَبـيح)، أو (حَلـيم، كَـريم)[٥] ، وقـال ابـن فـارس : ((وتكـون

---

(١). الكافية في علم النحو : ٤١ .

(٢). معجم الأوزان الصرفية : ١٢٥، وينظر : الأصول في النحو : ١ / ١٣٠، والمفصل في صنعة الإعراب : ٢٩٣ .

(٣). ينظر : المفصل في صنعة الإعراب : ٢٩٣، وشرح الرضي على الكافية : ٣ / ٤٣١، وشرح التصريح على التوضيح : ٢ / ٤٨ .

(٤). ينظر : معاني الأبنية في العربية : ٦٧ .

(٥). ينظر : شرح شافية ابن الحاجب، للرضي الأستراباذي : ١ / ٧٤، ينظر : معاني الأبنية في العربية : ٨٣ .

الصفات اللازمة للنفوس على فَعيل نحو : (شريف وخفيف)، وعلى أضدادها : نحو (وَضِيع وكبير وصغير)))[1].

ومن أمثلة هذه الصيغة في سورة يونس :

أ . ﴿ بَرِيٓءٌ ﴾ ، في قوله ﷻ : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [يونس: ٤١] .

فالصفة المشبهة ﴿ بَرِيٓءٌ ﴾ جاءت منسجمةً في الآية؛ لورودها في سياقِ البراءة من الكفار ومعتقداتهم في حال إصرارهم على التكذيب، وهذا يقتضي المباعدة والمتاركة عنهم على الدوام، والثبات على المبادئ، وعدم التنازل لهم، بعدما تبين لهم صدق القرآن الكريم و صدق الرسول الأكرم ﷺ، وصارت إقامة الحجج عليهم لا تجدي نفعًا، لأن البريء هو : ((المُتَنَحِّي عَنِ الْبَاطِلِ والكَذِبِ، البعِيدُ مِن التُّهم، النَّقِيُّ القَلْبِ مِنَ الشِّرك))[2].

وتتقاطع الجملة : ﴿ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ مع الجملة السابقة : ﴿ لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ في المعنى، إذ جاءت للتوكيد والتتميم لها[3]، وهذا التقاطع في حدّ ذاته يقوي دلالة ثبوت ورسوخ صفة ﴿ بَرِيٓءٌ ﴾ في الرسول ﷺ من خلال الآتي :

- التخصيصُ سواء أكان بالإضافة في : ﴿ عَمَلِي ﴾، أو بتقديم الجار والمجرور على المبتدأ في قوله : ﴿ لِّي عَمَلِي ﴾، أو بتقديم المسند إليه ﴿ أَنَا۠ ﴾ على المسند ﴿ بَرِيٓءٌ ﴾ .
- مجيء جملتي ﴿ لِّي عَمَلِي ﴾، و﴿ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ ﴾ اسميتين يفيد الثبوت[4] .

ب. ﴿ ٱلشَّدِيدَ ﴾ ، في قوله ﷻ : ﴿ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [يونس: ٧٠] .

حققت صيغة (فَعيل) مناسبةً بينها وبين استعمالها في الآية الكريمة، ولا سيما أنها وردت في سياق الافتراء على الله الكذب بأنه اتَّخذ ولدًا، تَنَزَهَ اللهُ عن ذلك وتقدَّس، ﴿ قَالُوا۟

---

(١). الصاحبي في فقه اللغة : ١٧١ .

(٢). لسان العرب : ١ / ٢٤١، (برأ) .

(٣). ينظر : البحر المحيط : ٥ / ١٦١.

(٤). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ١٧٦ .

﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) ﴾ [يونس: ٦٨ – ٦٩]، وهذا يستلزم تعذيبهم عذابًا عسيرًا دائمًا ثابتَ الشِّدَّة تغليظًا لعقوبتهم على أقوالهم القبيحة في الذات العليَّة، وأفعالهم القبيحة[١] .

ومجيء الصفة المشبهة ﴿الْشَّدِيدَ﴾ مَعْرِفَةً يتناسق مع تعريف ﴿الْكَذِبَ﴾، إلى جانب أنَّ التعليل بحرف الجر (الباء) في قوله ﷻ : ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ يدلُّ على استحقاقهم العذاب الشديد بسبب استمرارهم في كفرهم كما يفهم ذلك من استعمال الفعل المضارع ﴿يَكْفُرُونَ﴾[٢]، فضلًا عن دلالة الفعل الناقص ﴿كَانُوا﴾ على تمكن كينونة الكفر المُسْتَكِنَّة فيهم، حتى صار الكفرُ ديدنَهم ومنهجَهم[٣]، وكلُّ ذلك يؤذن بانسجام الصفة المشبهة ﴿الْشَّدِيدَ﴾ مع السياق في الدلالة على الثبوت والتمكن في اتِّصاف العذاب بالشدة.

ومن صيغ الصفة المشبهة أيضًا :

﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾، في قوله ﷻ : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥) ﴾ [يونس: ٢٥] .

فصيغة اسم الفاعل ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ تفيد ثبوت الاستقامة، على سبيل الاستعارة، في الصراط الذي يوصل إلى دار السلام من غير التواء ولا اعوجاج، والمقصود به هو الاستقامة على الإسلام في كل عقيدته وفضائله وعباداته وأحكامه[٤]، ومن ثَمَّ كانت هذه الصفة ثابتة في الإسلام ثبوتًا دائمًا مستمرًا، فلا يأتي وقت من الأوقات تنفكُّ عنه هذه الصفة، ولو عُبِّرَ عن هذه الصفة بالفعل الماضي أو المضارع لما دلَّ على المعنى المطلوب، بل لدلَّ على احتمال انفصال هذه الصفة عنه، مما يؤذن بتلاشي دلالة الثبوت، وهو ما لا يقتضيه السِّياق .

---

(١). ينظر : التفسير الوسيط للقرآن الكريم : ٧ / ١٠١ .

(٢). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ٢٣٤ .

(٣). ينظر : نظم الدرر : ٩ / ١٦١ .

(٤). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٢٩٨ .

٣. **صيغ المبالغة** : هي ((أسماء تشتقُّ من الأفعال للدلالة على معنى اسم الفاعل مع تأكيد المعنى وتقويته والمبالغة فيه، ومن ثَمَّ سميت صيغ المبالغة، وهي لا تشتقُّ إلا من الفعل الثلاثي))[١].

فصيغ المبالغة على اختلاف أوزانها هي متفاوتة المعاني؛ فـ ((الكَثرة المستفادة من (فُعّال) مثلا أشدُّ من الكَثرة المستفادة من (فَعول) ... وقد يُؤخذ من قولهم : زيادة البناء تدل على زيادة المعنى أبلغية (فُعّال، ومِفْعال) على (فَعول وفِعيل)، وأبلغية هذين على (فَعِل)))[٢].

ويرى الأستاذ الدكتور فاضل السامرائي أن أبنية المبالغة تأتي على ضربين، فيقول : ((منها ما يختلف عن الآخر لتأدية معنى جديد، نحو قولهم : (رجل ذُعَرَة)، أي : ذو عيوب، و (امرأة ذَعور) : تُذْعَرُ من الرِّيبَة وَالْكَلَام الْقَبِيح، ونحو : (الضَّحاك و الضُّحَكَة)، فـ (الضَّحاك) مدح، و (الضُّحَكّة) ذم ...، ومنها ما تدلُّ صيغته على معنى في المبالغة يختلف عن الصيغة الأخرى، فمعنى (فَعّال) يختلف عن (فعول) في المبالغة، وهما يختلفان عن (مِفْعال) وهكذا))[٣] .

ومن صيغ المبالغة الواردة في سورة يونس :

فَعيل : تستعمل هذه الصيغة ((لمن صار له كالطبيعة))[٤]، ويرى الأستاذ الدكتور فاضل السامرائي أن الأصل في صيغ المبالغة أنها منقولةٌ من شيء إلى آخر فتحصل بسبب ذلك المبالغة[٥]، وهكذا يقال في هذه الصيغة، فهي منقولة من (فَعيْل) التي هي من أبنية الصفات المشبهة، يقول الدكتور موضحا ذلك : ((أنَّ هذا البناء منقول من (فَعيْل) الذي هو من أبنية الصفة المشبهة أيضا، وبناء (فَعيْل) في الصفة المشبهة يدلُّ على

---

(١). الصرف العربيّ، أحكام ومعان : ٩٩ .

(٢). حاشية الصبان على شرح الأشموني : ٢ / ٤٤٨ .

(٣). معاني الأبنية في العربية : ٩٣ – ٩٤، وينظر : المحكم : ٢ / ٧٧، (ذعر)، المخصص : ١ /٢٢٦، لسان العرب : ٤ / ٢٥٥٧، (ضحك) .

(٤). همع الهوامع : ٣ / ٧٥، والكليات : ١٠٠٣ .

(٥). ينظر : معاني الأنية في العربية : ٩٥ .

الثبوت فيما هو خِلْقة أو بمنزلتها، كـ (طَويْل، وقَصيْر، وفَقيْه، وخَطيْب)، وهو في المبالغة يدلُّ على معاناة الأمر وتكراره حتّى أصبح كأنَّه خِلْقة في صاحبه وطبيعة فيه، كـ (عَليْم)، أي : هو لكثرة نظره في العلم وتبحره فيه أصبح العلم سجيَّةً ثابتةً في صاحبه، كالطبيعة فيه))[1].

ومن الأمثلة على هذه الصيغة في سورة يونس، ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾ في قوله ﷻ : ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [يونس: ٦٨] .

جاءت صيغة (فَعيْل) متناسبة مع نسق الآية الذي وردت فيه، فالكفار قد افتروا على الله فِرْيةَ أنَّه اتَّخذ ولدًا، تعالى الله عن ذلك عُلوًّا كبيرًا، وهذا الفِرية لا تصحّ ولا تستقيم بأي حال من الأحوال؛ لأنها تُدَلِّل على الحاجة والافتقار، فجيء بصيغة المبالغة ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾ لنفي هذه الفرية بأنَّ الله يتَّصف بالغنى اتِّصافًا مبالغًا فيه إلى حدّ أنَّ هذه الصفة صارت كأنها هي ذاته وطبيعته ﷻ، وليست طارئةً ولا محدثةً، فكيف يكون بحاجة إلى الولد .

وإذا جئنا إلى النواحي الفنية التي تبين مدى انسجام هذه الصيغة مع الآية في نفي الولد عنه ﷻ، فإننا نلحظ أنَّ الأصل فيها أنها تتعدّى بـ (عن)؛ أي : إن الله غنيّ عن الولد مثلًا، ولكن التعبير القرآني آثر حذف الجار والمجرور؛ للدلالة على الغنى المطلق، إذ اللهُ غنيٌّ عن كل شيء، بدليل أنّ ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[2] ، قال محمّد رشيد رضا : ((هو الغنيُّ بذاته عن الولد، لأن كل ما في الوجود من العالم العلوي والسفلي ملك وعبيد له لا يحتاج منها إلى شيء، ويحتاج إليه كل شيء، ولا يشبهه أو يجانسه منها شيء، فالإنسان يحتاج إلى الولد لأمور ... والله تعالى لا يحتاج إلى شيء من هذه المنافع؛ لأنه هو الغنيُّ عن كل شيء بذاته لذاته أزلًا وأبدًا))[3]، فضلًا عن تعريف الصفة بـ (الألف واللام)؛ لإفادة الكمال درءًا لصفة النقص عن احتياجه ﷻ إلى الولد، ويبدو لي أن صيغة

---

(١). معاني الأنية في العربية : ١٠٢ – ١٠٣ .

(٢). ينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ / ١٣٨ – ١٣٩، وفتح القدير : ٢ / ٦٤٥، والتحرير والتنوير : ١١ / ٢٣٠ – ٢٣١ .

(٣). تفسير المنار : ١١ / ٣٨٦ .

المبالغة هذه جاءت لتحقق توازنًا في الردّ على صيغة المبالغة والتكلف[1] ﴿ٱتَّخَذَ﴾ التي استعملوها في الافتراء على الله .

ومن أمثلتها أيضًا ﴿عَلِيمٍ﴾ في قوله ﷻ : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [يونس: ٧٩] .

أتت صيغة (فَعيْل) مُحَقِّقَةً انسجامًا بينها وبين استعمالها القرآني في الآية الكريمة، فقد ناسبت ﴿عَلِيمٍ﴾ بدلالتها موقعها في الآية الكريمة، إذ هي صيغة مبالغة للسَّحرة الذين أمر فرعون بإحضارهم على وجه السرعة ممن كانوا متمكنين في علم السحر وصناعته، ماهرين في فنونه وخدعه حتى صار العلم بالسحر من طبعهم، يقول ابن عاشور : فرعون ((أمر بإحضار جميع السحرة المتمكنين في علم السحر لأنهم أبصر بدقائقه، وأَقْدَر على إظهار ما يفوق خوارق موسى في زعمه، فحضورهم مغنٍ عن حضور السحرة الضعفاء في علم السحر لأن عملهم مظنة أن لا يوازي ما أظهره موسى من المعجزة، فإذا أتوا بما هو دون معجزة موسى كان ذلك مُرَوِّجًا لدعوة موسى بين دهماء الأمة))[2].

وبهذا تكون صيغة المبالغة ﴿عَلِيمٍ﴾ منسجمةً في التعبير عن حالة فرعون النفسية، والخوف الذي يَعْتَمِل في نفسه من ضياع التقاليد الموروثة عن آبائهم، ومن أن يُسْلب سلطانه وملكه كما صرَّح بذلك في قوله ﷻ : ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [يونس: ٧٨]، فلو عُبِّرَ باسم الفاعل (عالِم) لما دلَّ على المبالغة تنصيصًا، بل لكان المعنى يحتمل : أنَّه عالم بالسحر قليلًا كان أو كثيرًا، وهذا ما لا يقتضيه السياق، ففرعون كما قلنا خائف على مكتسباته ومنصبه، ولهذا عَبَّرَ بمفردة ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ بكل ما تحمله من دلالة المبالغة والسعة والشمول لدرجة أنَّ هذه المفردة مختصة بالله ﷻ فهي أوسع من (الكِبَر، والكِبْر)[3]، قال الراغب الأصفهاني : ((والْكِبْرِيَاءُ: الترفع عن الانقياد، وذلك لا يستحقه غير الله، فقال: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١). ينظر : شذا العرف في فنّ الصرف : ٣٥، ونظم الدرر : ٩ / ١٥٩ .

(٢). التحرير والتنوير : ١١ / ٢٥٣ .

(٣). من أسرار البيان القرآني : ٢١ – ٢٢ .

﴿ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الجاثية: ٣٧]))[1]، وفي هذا تحقيق توازن في التعبير؛ مبالغة في مقابل مبالغة .

(١). المفردات في غريب القرآن : ٢ / ٥٤٦، (كبر) .

المبحث الثاني
تناسب التركيب النحوي والمفردة اللغوية

تناسب التركيب النحويّ

يتّخذ التركيب النحويّ صورًا مختلفةً ومتعددةً، ومنها صورة التقديم والتأخير، وصورة الذكر والحذف.

تناسب التقديم والتأخير

التقديم والتأخير ظاهرة مهمّة من ظواهر التعبير في النظم القرآني، لما تحدثه المفردات من حركة داخل التراكيب النحوية تقديمًا أو تأخيرًا، فيكون لها أثر كبير في المعنى، بحسب ما يقتضيه السياق، وقد قال عنه الشيخ عبد القاهر الجرجاني مبينًا أهميته : ((هو باب كثير الفوائد، جَمُّ المَحاسن، واسعُ التصرف، بعيدُ الغاية، لا يَزالُ يَفْتَرُّ لك عن بديعة، ويُفْضي بك إلى لَطيفة، ولا تَزال تَرى شعرًا يَروقُك مَسْمَعُه، ويَلْطُف لديكَ مَوقِعُه، ثمّ تنظرُ فتجدُ سبَبَ أَنّ راقَكَ ولطُفَ عندك، أنْ قُدِّمَ فيه شيءٌ وحُوِّل اللفظ عن مكان إلى مكان .))[١].

وللدلالة النفسية أثر في تقديم الألفاظ وتأخيرها في الجمل والتراكيب، إذ الترتيب اللفظيّ راجع إلى الترتيب المعنويّ في النفس[٢]، قال السهيلي : ((ما تقدم من الكلام فتقديمه في اللسان على حسب تقدم المعاني في الجنان))[٣].

فتتقدمُ الألفاظُ وتتأخرُ على وفق أسباب معينة، يأتي في مقدمتها (العنايةُ والاهتمامُ)، وهو ما أصّله سيبويهِ في هذه المسألة بقوله : ((كأنّهم إنَّما يقدّمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعْنى، وإن كانا جميعاً يُهِمّانِهم ويَعْنِيانهم))[٤] .

ولا ينبغي الاكتفاء بالقول إن هذه المفردة قدمت للعناية والاهتمام، بل لابدّ من إيضاح أسباب العناية باللفظ الذي قُدِّمَ، وهذا يتطلَّبُ بحثًا عميقًا عن أسرار العناية بالألفاظ المقدمة على غيرها، وقد انتقد الجرجاني النحويين الذين لا يولون هذه المسألة حقّها من الدراسة،

---

(١). دلائل الإعجاز : ١٤٨ .

(٢). ينظر : دلائل الإعجاز : ١٠٦ .

(٣). نتائج الفكر في النحو : ٢٠٩، وينظر : التعبير القرآني والدلالة النفسية : ٣٠٣ .

(٤). الكتاب : ١ / ٣٤ .

فيكتفون بالوقوف عند حدّ القول بالعناية ملتزمين بما أصّله سيبويه، فقال : ((وقد وقع في ظنون النّاس أنّه يكفي أن يقال: إنه قُدّمّ للعناية، ولأنّ ذكرَه أهمُّ، من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية ؟ ولِمَ كان أهمَّ ؟، ولتخيُّلهم ذلك، قد صَغُرَ أمرُ التقديم والتأخير في نفوسهم، وهوَّنوا الخطب فيه، حتى إنّك لترى أكثرهم يرى تتبُّعَه والنظرَ فيه ضربًا من التكلُّف، ولم ترَ ظنًّا أزرى على صاحبه من هذا وشبهه))[١]، ولكن سيبويه في الحقيقة لم يقصر سرَّ التقديم على العناية والاهتمام، بل أشار إلى سرٍّ تنبيه المخاطب وتأكيد الكلام، وهو ما ذكره الجرجانيّ نفسُه بقوله : ((وهذا الذي قد ذكرتُ من أنَّ تقديمَ ذكرِ المحدَّث عنه، يفيد التنبيهَ له، قد ذكَرَه صاحبُ (الكتاب) في المفعول، إذا قُدِّم فرُفِع بالابتداء وبُنيَ الفعلُ الناصبُ، كان له عليه، وعُدِّيَ إلى ضميره فشُغِلَ به، كقولنا في (ضربتُ عبدَ الله) : (عبدُ الله، ضَرَبتُه)، فقال : وإنما قلتُ (عبدُ الله) فنبَّهْتُه له، ثم بَنيتُ عليه الفعلَ ورفعْتُه بالابتداء))[٢].

اختلفت مناهج العلماء من بلاغيين ومفسرين في مسألة التقديم والتأخير بحسب أفهامهم، ومنطلقاتهم العلمية، وقد أفاض في تعدادها وشرحها الدكتورُ عبدالعظيم المطعني[٣] بما يغْني عن إعادة الكلام عنها مرة أخرى، وسأتّبِعُ في هذا المبحث منهجَ الدكتور فاضل السامرائي لما فيه من الشمولية والموضوعية، والتقديم عنده قسمان هما[٤] :

١. تقديم اللفظ على عامله

ويراد به تقديمُ ما حقّه التأخير، وذلك اللفظُ المقدمُ له رتبةٌ معلومةٌ في التركيب بحسب ما تقتضيه القواعد النحوية[٥]، كتقديم الخبر على المبتدأ، وتقديم المفعول به على فعله، وتقديم الحال على فعله، وتقديم الجار والمجرور أو الظرف على فعلهما[٦]، والغرض غالبًا ما يكون في هذا النوع من التقديم هو إفادة (التخصيص والحصر)، قال السيوطي : ((كاد

---

(١). دلائل الإعجاز : ١٤٩ .

(٢). دلائل الإعجاز : ١٦٥، وينظر : البلاغة والأسلوبية : ٣٣١ .

(٣). ينظر : خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية : ٢ / ٧٩ – ١٤٥ .

(٤). ينظر : التعبير القرآني : ٤٩ .

(٥). ينظر: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية : ٢ / ١٤٦ .

(٦). ينظر : التعبير القرآني : ٤٩ .

أهل البيان يطبقون على أن تقديم المعمول يفيد الحصر، سواء كان مفعولًا أو ظرفًا أو مجرورًا، ولهذا قيل في : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥] : معناه : نخصك بالعبادة والاستعانة))[١].

ومن أمثلة تقديم اللفظ على عامله في سورة يونس قوله ﷻ : ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۝٤﴾ [يونس: ٤]، فتقديم الجار والمجرور (الخبر) على ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ (المبتدأ)، يفيد تخصيص الرجوع إلى الله وحده[٢]، بعد الموت وفناء الكون، وفي ذلك نفيٌ لمعتقدات الكفار وقطعٌ لمطامعهم في أن تشفع لهم يوم القيامة أصنامهم ومعبوداتهم التي يتخذونها شفعاء لهم عند الله، كما في قوله : ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ويجيء هذا التقديم في مقام التعليل لقوله ﷻ : ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [يونس: ٣]، وفي وجوب العبادة لله؛ بمعنى إذا كان الرجوع إلى الله وحده دون غيره، فالله إذن هو أوجب بأن يعبد وأحقّ بأن يطاع، وأما عبادة ما عداه فهي باطلة[٣]، فضلًا عن انسجام هذا التقديم مع ما بعده من التوكيد بالمصدرين ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾؛ لإثبات أن البعث والنشور إلى الله حقيقة ثابتة لا تقبل الشكَّ أبدًا[٤].

ومن الأمثلة أيضًا قوله ﷻ : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٢٦﴾ [يونس: ٢٦]، ففي قوله : ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ تَقَدَمَ المفعولُ به ﴿وُجُوهَهُمْ﴾ على الفاعل ﴿قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ للأسباب الآتية :

١. للاهتمام ببيان أنَّ المحفوظ من أن يناله القتر أو الذلة هو أشرف أعضائهم .

٢. التشويق إلى المتأخر الذي حقه التقديم .

---

(١). الإتقان في علوم القرآن : ٤ / ١٥٧٧ .

(٢). ينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ / ٣١ .

(٣). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ٩٠، وروح المعاني : ١١ / ٦٦ .

(٤). ينظر : البحر المحيط : ٥ / ١٢٨ .

٣. التفصيل في ذكر الفاعل : ﴿ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ﴾، وهذا يقتضي تأخيره[١].

ومن الأمثلة أيضًا قوله ﷻ : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [يونس: ٣٠]، جاء في الآية الكريمة (الظرف) ﴿ هُنَالِكَ ﴾ مقدّمًا على فعله ﴿ تَبْلُوا ﴾ لتناسبه مع السياق الذي جرى الحديثُ فيه عن يوم القيامة الذي يجد فيه المؤمنون الإكرام، ويجد فيه الكافرون الإهانة، وقد اجتمعوا في موقف الخزي والعار مع شركائهم وأصنامهم التي تبرأت من عبادتهم[٢]، وهذا يستدعي تقديمه لإثارة الاهتمام بذلك اليوم لعظيم ما يحدث فيه من شدائد الأمور[٣]،، فضلًا عن أن هذا التقديم يأتي مراعيًا حُسن النظم في الآية التي قبله؛ إذ ورد فيها (الظرف) مقدمًا أيضًا في قوله ﷻ : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ [يونس: ٢٨] .

ومن أمثلة التقديم أيضًا قوله ﷻ : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [يونس: ٥٩] .

ففي الآية الكريمة تقدّمَ المعمولُ وهو الجار والمجرور ﴿ عَلَى اللَّهِ ﴾ على الفعل ﴿ تَفْتَرُونَ ﴾ لإفادة الاهتمام، وتخصيصهم وقصرهم الافتراء على الله وحده[٤]؛ لأنَّ السياق سياقُ تشنيع على هؤلاء المفترين حين جعلوا رزق الله منه حلالًا وحرامًا افتراء على الله، وعلاوةً على ذلك أنَّ هذا التقديم يتناسب مع التقديم في الجملة التي قبله مراعاة للحسن في النظم في تقديم المسند إليه ﴿ آللَّهُ ﴾ على المسند الفعلي ﴿ أَذِنَ لَكُمْ ﴾، إلى جانب مجيء اسم الجلالة اسمًا ظاهرًا وليس مُضمرًا، مسبوقًا بالاستفهام الإنكاري، كلّ ذلك لأجل زيادة التشنيع، وتغليظ الزجر، وتهويل هذا الافتراء[٥]، ناهيك أنَّ هذا التقديم فَرَضَهُ مراعاةُ الفاصلةِ

---

(١). ينظر : تفسير أبي السعود : ٢ / ٦٥٤ – ٦٥٥ .

(٢). ينظر : تفسير القرآن العظيم : ٤ / ٢٣١ .

(٣). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ١٥٣ .

(٤). ينظر : روح المعاني : ١١ / ١٤٢ .

(٥). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ٢١٠، وفتح القدير : ٢ / ٦٣٨ .

القرآنية، فالآيات قبل هذه الآية وما بعدها تنتهي بـ (النون)، فلو جاءت الجملة على أصلها لاختلّ النظامُ الصوتيُّ للفواصل القرآنية[١].

٢. تقديم اللفظ على غير عامله

ويقصد به تقديم ما ليس له رتبة محددة في التركيب[٢]، مثل تقديم بعض الألفاظ على بعض، لدواعٍ بلاغيّة تستدعي ذلك التقديم بما يتوافق مع السياق والمقام، وعلى رأسها غرضُ العناية والاهتمام، فاللفظ الذي تدور عليه الأهمية يقدم في السياق اعتناء به[٣].

ومن أمثلة تقديم اللفظ على غير عامله، قوله ﷻ : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨] .

ففي تقديم قوله ﷻ : ﴿ لَا يَضُرُّهُمْ ﴾ على قوله : ﴿ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ يرى الخطيب الإسكافي أنَّ سبب هذا التقديم راجعٌ إلى أنَّ العبادة تُقام للمعبود بالدرجة الأولى خوفًا من أليم عقابه، ثم طمعًا في نعيم جنته، وهو ما يؤيده السياق من ذكره ما يدلُّ على الخوف من الضرر في قوله ﷻ على لسان نبيه محمّد ﷺ : ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [يونس: ١٥]، فيكون حاصل المعنى : ((فكأنه قال : ويعبدون من دون الله ما لا يخافون ضررًا في معصيته، ولا يرجون نفعًا في طاعته))[٤].

ولكنني لا أؤيد الخطيب الإسكافي في قوله : إن العبادة تقام للمعبود بالدرجة الأولى خوفًا منه ...، ولكنها في الحقيقة تُقام لله رضًا ومحبةً في طاعته، وإلّا فستكون عبادة المُكْرَهِ، وممّا ينفي هذا الفهم قوله ﷻ : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، كما أنَّ الآية التي استدلّ بها لا تعني شيئًا ممّا قاله، فهي قد جاءت في سياق الردِّ على طلبات المشركين للرسول ﷺ بأنْ يأتي بقرآن من عنده أو أن يبدله .

---

(١). ينظر : روح المعاني : ١١ : ١٤٣ .

(٢). ينظر : خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية : ٢ / ١٤٦ .

(٣). ينظر : التعبير القرآني : ٥١ .

(٤). درة التنزيل : ٢ / ٧٣٣ – ٧٣٤ .

وأرى مستفيدًا من فحوى كلام الخطيب أنَّ توجيه التقديم في الآية راجعٌ إلى المفارقة العجيبة التي تفهم من مجموع الآيتين؛ فالرسول ﷺ يبدي تخوفه في حال عصيان ربه من أن يصيبه أشدّ الضرر، وهو عذاب يوم عظيم، وفي المقابل يَظهر حال الكفار الغريب العجيب أنَّهم يعبدون من دون الله ما لا يخافون أن يصيبهم منه ضرر إن عصوه، ولا يرجون منه نفعًا إن أطاعوه، فالسياق إذن هو سياق النعْيِ على الكفار عبادة الأصنام التي لا تضرّ ولا تنفع، فجاء التقديم ﴿لَا يَضُرُّهُمْ﴾ مُنْسَجِمًا مع تخوف الرسول ﷺ من عصيان ربه الذي يملك إيقاع الضرر به، بما يحقق في الوقت نفسه النعيَ عليهم عبادة ما لا يملك أدنى قدرة على إيقاع الضرر.

وللإمام ابن عاشور توجيهٌ آخرُ راجعٌ إلى أنَّ السياق يرمي إلى إزالة الأوهام من أنَّ هذه الأصنام تضرّ كلَّ من ترك عبادتها، ومِنْ ثَمَّ كانت هذه الأوهام والمعتقدات صادّةً عن الإيمان بالله، ومما يروى في ذلك أنَّه ((قالت امرأة طفيل بن عمرو الدوسي حين أخبرها أنه أسلم ودعاها إلى أن تسلم فقالت: (أما تخشى على الصبية من ذي الشرى[1])))[2]، فلمّا كانت الأهمية مُنْصَبَّة على إبطال هذا الوهم ونفيه، جرى تقديمُ ﴿لَا يَضُرُّهُمْ﴾[3]، ومن جانب آخر جرى نفي النفع عن هذه الأصنام بتأخير ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ ليحصلَ بذلك حسنُ انسجامٍ واتّصال مباشر في الردّ على مقالتهم : ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨][4].

ومن أمثلة هذا النوع من التقديم في سورة يونس قوله ﷻ : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [يونس: ٥٠] .

ففي الآية الكريمة جاء قوله : ﴿بَيَاتًا﴾ مقدّمًا على قوله : ﴿نَهَارًا﴾ مراعاةً لمقتضى السياق؛ إذ الآية تأتي في معرِض الرد على الكفار المستعجلين العذاب، ﴿وَيَقُولُونَ

---

(١). ذُو الشَّرَى : صَنَمٌ لدَوْسٍ بالسَّراةِ : تاج العروس، (شرى) : ٣٨ / ٣٦٨ .

(٢). التحرير والتنوير : ١١ / ١٢٥ .

(٣). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ١٢٥ .

(٤). ينظر : ملاك التأويل : ١ / ٦١٢ – ٦١٣ .

﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [يونس: ٤٨]، فيتفنن السياق في تخييل التهويل لهذا العذاب الموعود، داعيًا إياهم إلى أن يتصوروا العذاب وكأنه واقعٌ بهم، حينها لو تحقق العذاب ونزل بهم، ماذا يستفيدون، في وقتٍ لا يُقبل فيه الإيمان؛ لأنه حاصل في وقت الإلجاء والقسر[١].

ولأجل غاية التهويل كان المناسب تقديم ﴿ بَيَٰتًا ﴾؛ لما في الليل من المباغتة والمفاجأة ما ليس في ﴿ نَهَارًا ﴾، وفي هذا التقديم قال البقاعي : ((ولما كان أخذُ الليلِ أنكى وأسرع، قدمه فقال: ﴿ بَيَٰتًا ﴾ أي : في الليل بغتة، وأنتم نائمون كما يفعل العدو، ولما كان الظفر ليلًا لا يستلزم الظفر نهارًا مجاهرة قال: ﴿ أَوۡ نَهَارًا ﴾ أي : مكاشفة وأنتم مستيقظون، أتستمرون على عنادكم فلا تؤمنوا؟))[٢]، ويبدو لي أنَّ تقديم ﴿ بَيَٰتًا ﴾ ينسجم مع تقديم الضَرّ في الآية السابقة، ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [يونس: ٤٩]؛ ذلك لأن الضرر بالعذاب في الليل أشدّ وأقوى بسبب استحكام الغفلة، ولهذا اختار التعبير القرآني لفظ ﴿ بَيَٰتًا ﴾ بدلًا من لفظ (ليلا) ليؤكد على ملحظ الغفلة[٣]، بخلاف النهار الذي يمكن فيه تقليل الضرر، وممّا يجمل ذلك الانسجام في تقديم ﴿ ضَرّٗا ﴾ وتقديم ﴿ بَيَٰتًا ﴾ أنَّ كلتا الآيتين جاءت في سياق الردِّ على استعجال الكفار العذاب، وطلب تعيين وقته[٤].

وفي هذا التقديم إشارةٌ خفيةٌ إلى ضرورة المبيت على طاعة الله، فإذا جاءه ريب المنون كان في مأمن من عذاب الله وسخطه .

ومن الأمثلة أيضًا قوله ﷻ : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ [يونس: ٦١] .

فقُدِّمَ في الآية قولُه : ﴿ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ على ﴿ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ لسببين هما :

---

(١). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ١٩١– ١٩٢ ، ومفاتيح الغيب : ١٧ / ١١٤ .

(٢). نظم الدرر : ٩ / ١٣٦ .

(٣). ينظر : روح المعاني : ١١ / ١٣٢ .

(٤). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ١٩١ .

أولًا : **دلالة السياق** : فالسياق في الآية في ذكر أحوال أهل الأرض وأعمالهم، كما يوضحه قوله ﷻ : ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس: ٦١]، وفي هذا قال الزمخشري : ((حقّ السماء أن تقدم على الأرض، ولكنه لما ذكر شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم، ووصل بذلك قوله : ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ ﴾ لاءم ذلك أنَّ قدّم الأرض على السماء))[1].

ثانيًا : **السمة اللفظية** : لعل كثرة تكرار مفردة ﴿ ٱلْأَرْضِ ﴾ في سورة يونس سبب في تقديمها على مفردة ﴿ ٱلسَّمَآءِ ﴾، فقد تكررت ﴿ ٱلْأَرْضِ ﴾ ست عشْرة مرةً، بخلاف مفردة ﴿ ٱلسَّمَآءِ ﴾ التي تكررت ثلاثَ مراتٍ بصيغة المفرد، وست مرات بصيغة الجمع .

---

(١). ينظر : الكشاف : ٣ / ١٥٢، ومفاتيح الغيب : ١٧ / ١٢٩، والبحر المحيط : ٥ / ١٧٢، وبدائع الفوائد : ٧٥ – ٧٦ .

تناسب الحذف

يُعَدُّ الحذف من المسالك اللطيفة في التعبير القرآني؛ لما يؤديه من إيجاز في تقديم المعنى، وقد أبان عن أهميته عبد القاهر الجرجاني بقوله : ((هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسّحر، فإنك ترى به ترك الذّكر أفصح من الذكر، والصّمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتمَّ ما تكون بيانًا إذا لم تُبِنْ))[١].

شرطا الحذف

١. لا بدّ أن يكون في الكلام قرينة تدلُّ على المحذوف، إذ بدونها يكون الكلام تعميةً وألغازًا وغموضًا، ومستهجنًا في الفصاحة، وقد أشار الدكتور عبد العظيم المطعني إلى أهمية هذا الشرط، فقال : ((شرط جودة الأسلوب الوضوح وحسن الدلالة، وهذا الشرط ضروريٌّ لا يُحْمَد إغفاله؛ لأن الحذف إذا لم يكن فيه ما يدلُّ على المحذوف جارَ على اللفظ والمعنى، والألفاظ أوعية المعاني، فلا بدَّ من ملاحظتها مذكورة أو محذوفة دل عليها دليل))[٢].

٢. وجود سياق يترجح فيه الحذف على الذكر، وسبب يدعو إلى استعمال أسلوب الحذف، وإلا كان الكلام فيه عبث[٣].

وللحذف أسرارٌ وغاياتٌ خاصّة تنضوي تحت ثلاثة أغراض عامّة، وهي[٤] :

أولًا : الغرض البياني :

فالحذف لا يكون إلا لغرض بيانيّ مقصود في الكلام، كالإيجاز وطرح فضول الكلام، وصيانة الجملة من الثقل، وفي هذا قال الزركشي : (([من أغراض الحذف] طلب الإيجاز والاختصار، وتحصيل المعنى الكثير في اللفظ القليل، ومنها التشجيع على الكلام، ومِنْ ثَمَّ سماه ابن جني : شجاعة العربية))[٥].

---

(١). دلائل الإعجاز : ١٧٧ .

(٢). خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية : ٢ / ٥ .

(٣). ينظر : البلاغة والأسلوبية : ٣٢٣، وأسلوب الحذف في القرآن الكريم : ٧٧ .

(٤). ينظر : أسلوب الحذف في القرآن الكريم : ١٥٥ – ١٦١ .

(٥). البرهان في علوم القرآن : ٣ / ١٠٥ .

ثانيًا : الغرض العقليُّ :

يأتي الحذف لغرض عقليٍّ، إذ هو يجعل السامع والقارئ يشحذ فكره وعقله بحثًا لإدراك المحذوف وتأمّلًا لتحديد المعنى من ورائه، قال الجواري : (([الحذف] ضرب من ضروب الانقطاع الذي يَحْمل السامع أو القارئ على توقع أمر ذي بالٍ، ولو اتَّصل الكلام لما أثار قدرًا من الانتباه والاهتمام مثل الذي يثيره الانقطاع، كالذي يسير في طريق ممهدة لاحبة تقوده قدماه حتى لا تعود يتلفت حوله ولا ينتبه لما يحيط به حتى يفجأه انحراف في الطريق أو التواء، أو انقطاع يسلم إلى منحدر أو مرتقى فيفتح عينيه ويرهف حواسه لما يأتي بعد ذلك الانقطاع))[١].

ثالثًا : الغرض النفسي :

يراعي الحذف الحالة النفسية عند السامع أو القارئ مثل التعظيم والتفخيم، وتعجيل المسرة أو إخفاء أمر ما أو مفاجأتهم بالمحذوف، كما أن البحث عن المحذوف يفتح الباب على مصراعيه لتذوق النصوص، والاستمتاع بجمالها، فكيف إذا كان ذلك في كتاب الله، لا شكّ أن المتعة ستكون أعظم وأشدّ، وكثيرًا ما نجد ذلك الحذف واضحةً معالمُه في القصص القرآني، وقد أشار إلى ذلك سيد قطب بقوله : ((تلك الفجوات بين المشهد والمشهد، التي يتركها تقسيم المَشاهد و ((قصّ)) المَناظر ... بحيث تترك بين كلّ مشهد أو حلقتين فجوة يملؤها الخيال، ويستمتع بإقامة القنطرة بين المشهد السابق والمشهد اللاحق))[٢].

وقد تعددت تقسيمات العلماء لأنواع أسلوب الحذف، وأفضل هذه التقسيمات التي تتّسم بالموضوعية والشمولية ما خلص إليه ابنُ جني الذي قسّم أنواع الحذف على قسمين، هما :

١. **حذف الجملة** : ومنه : حذف القسم، وحذف الشرط، وغيرهما .
٢. **حذف المفرد** : وهو على ثلاثة أضرب : حذف الاسم، والفعل، والحرف[٣].

وهذه التقسيم هو الذي سأتبعه في بيان تناسب الحذف في سورة يونس على النحو الآتي :

---

(١). نحو القرآن : ٣٨، نقلا عن كتاب : أسلوب الحذف في القرآن الكريم : ١٥٩ .
(٢). التصوير الفني في القرآن : ١٨٧ – ١٨٨ .
(٣). ينظر : الخصائص : ٢ / ٣٦٢ – ٣٦٣ .

أولًا : حذف المفرد (الاسم المجرور)، وذلك في قوله ﷻ : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس: ٢]، فقد جاء في الآية المُنْذَرُ به محذوفًا؛ لدلالة ما يقابله من ذكر المُبَشَّرِ بِه ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾، والمناسبة في حذف المنذر به، والاكتفاء بالمبشر به ﴿ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس: ٢] تتضح في أمرين :

١. حذف المُنْذَر به لأجل غاية التهويل، ممّا يجعل خيال المخاطبين يذهب مذاهب شتى في تصور كلِّ عذاب ممكن سيحدق بهم إن لم يؤمنوا بالله وبنبوة محمد ﷺ[١]، وممّا يقوّي دلالة التهويل مجيء الاستفهام بدلالته على التقريع والتوبيخ[٢] ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ ﴾ [يونس: ٢]، والمخاطبون في كلِّ ذلك جهةٌ واحدةٌ، وهم ﴿ النَّاسَ ﴾ .

٢. تتجلى الحكمة من هذا الحذف، فيما يبدو لي، في دفع هؤلاء المخاطبين إلى التفكير بشكل جديّ في الإيمان بالله من خلال موازنة أنفسهم بالمؤمنين الذين فضلوا عليهم بذكر بشارتهم ومنزلتهم عند الله، وفي التركيب الإضافي ﴿ قَدَمَ صِدْقٍ ﴾ تنبيه على أنَّ سبب وصول المؤمنين إلى هذه المنزلة هو تصديقهم بالوحي، وكأن الصدق له قدم يُوصل بها إلى المنازل العالية [٣]، وهذا في مقابل تكذيب الكفار بالوحي، في إشارة خفية لهم إلى ضرورة المسارعة إلى التصديق بالوحي حتى تكون لهم المنزلة السامقة عند ربهم كمثل المؤمنين .

ومن أمثلة حذف المفرد، حذف المضاف، في قوله ﷻ : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس: ٢٤] .

---

(١). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ٨٥ .

(٢). ينظر : فتح القدير : ٢ : ٥٩٥ .

(٣). ينظر : تفسير أبي السعود : ٢ / ٦٢٤ .

فأصل الجملة كما قدره الألوسي : (أنهم قادرون على نباتها)، ثم حُذِفَ المضافُ (نبات)، وجُرَّ الضميرُ بحرف الجر ﴿عَلَىٰ﴾، فصارت الجملة ﴿أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾، وتتمثل مناسبة هذا الحذف في الآتي :

١. حذف المضاف لأجل المبالغة في تمكنهم من إحاطة قدرتهم على الأرض بكلِّ ما فيها، بخلاف لو ذُكِر المضاف، فإن المعنى سيكون منحصرًا في قدرتهم على (النبات) فقط دون بقية ما يتعلق بالأرض، وبهذا تغيب دلالة المبالغة، خلافًا لما قاله الألوسي : بأنَّ في كون هذا الحذف للمبالغة ترددا[١].

٢. يعطي هذا الحذف دلالة العموم والشمول بحسب تحديد مرجع الضمير، إذ يحتمل أن يعود الضمير إلى (الأرض)، أو (النبات)، أو (الغِلَّة)، أو (الزينة)[٢]، فلو ذكر المضاف لكان الضميرُ عائدًا بدون أدنى شكّ إلى (الأرض)، وبهذا الحذف تتوسع الدلالة لتشمل كلَّ ذلك، فيكون المعنى : أنهم قادرون على الأرض، ونباتها، وغلتها، وزينها ... إلخ .

ومن أمثلة الحذف أيضا، حذف المفعول به، في قوله ﷻ :﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٣] .

فقد حذف مفعول الفعل ﴿يَتَّقُونَ ﴾ الذي يأتي متناسبًا مع سياق الحديث عن أولياء الله الذين خَصّهم بعدم الخوف والحزن، وخصّهم بالبشرى في الحياة الدنيا والآخرة، ولعل السرّ البيانيّ في هذا الحذف يكمن في الدلالات الآتية :

١. **دلالة التعميم مع الاختصار**، فهؤلاء الأولياء الأنقياء كانوا يتَّقون كلَّ مظاهر الشرك والعصيان، وقد قدّر الشوكانيُّ المفعول به بما يدلُّ على العموم بقوله : ((وَيَتَّقُونَ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمُ اتِّقَاؤُهُ مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ سُبْحَانَهُ))[٣].

٢. **دلالة الاقتصار على الفعل**، دون ذكر المفعول به، وفي ضابط هذه الدلالة قال الرازي : ((والضابط : أنّه متى كانت العناية مُتوفِّرة على مجرد إثبات الفعل لا على أن يُعلم

---

(١). ينظر : روح المعاني : ١١ / ١٠١ .

(٢). ينظر : اللباب في علوم الكتاب : ١٠ / ٣٠٢ .

(٣). فتح القدير : ٢ / ٦٤٠، وينظر : تفسير المحرر الوجيز : ٣ / ١٢٩ .

المفعول، فالأولى أن يحذف المفعول))[1]، وهذا ما نجده فعلًا من حذف المفعول به لأجل العناية بالفعل ﴿يَتَّقُونَ﴾، والإعلام بأهمية فعل التقوى دون ذكر متعلقاته، ممّا يدلل على اتِّصافهم بصفة التقوى التي بسببها كانت هذه الرعاية الربانية، ومجيء الفعل ﴿كَانُوا﴾ قبله يؤكد ملازمتهم لهذه الصفة حتى صارت ديدنَهم[2]، في إشارة إلى كمال حال القوة العملية[3].

٣. **رعاية الفاصلة**، فحُذِفَ مفعولُ الفعل ﴿يَتَّقُونَ﴾ للمحافظة على تناسق الفاصلة مع غيرها من فواصل السورة التي تنتهي في معظمها بالواو والنون .

ثانيًا : حذف الجملة

ومن أمثلة حذف الجملة في سورة يونس قوله ﷻ : ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: ١١] .

ففي هذه الآية الكريمة حذف جملة بعد قوله ﷻ : ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾، وتقديرها : ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ (لكنه لم يشأ ذلك لحكمة)، والذي يدلل على هذا الحذف هو تمام الآية :﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، فالفعل ﴿فَنَذَرُ﴾ معطوف على الجملة المحذوفة، وهو ما ينسجم مع السياق الذي يدلّ على أن سنته ﷻ لا تتبدل ولا تتغير في إهلاك الأقوام قبل انتهاء آجالهم، ولهذا تفترض أنه بسبب استعجال الكفار العذاب والشرّ كاستعجالهم الخير الذي يحبونه ويطلبونه لذاته، لأنهى الله أجلهم بإهلاكهم قبل الوقت المحدد، (لكنه لم يشأ ذلك لحكمة)، والسرّ في حذفها هو الدلالة على ترك هؤلاء وشأنهم حتى يأتي وقتهم، فناسب ترك الجملة وحذفها، تركهم وشأنهم في الواقع[4].

---

(١). نهاية الإيجاز : ٢١٠ .

(٢). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ٢١٨، وينظر : البحر المحيط : ٥ / ١٧٣ .

(٣). ينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ / ١٣١ .

(٤). ينظر : أسلوب الحذف في القرآن الكريم : ١٨٨ .

ومن أمثلة حذف الجملة أيضًا قوله ﷻ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [يونس: ٦٧] .

ففي الآية الكريمة حذف جملة، وهو ما يسمى بـ (الاحتباك)، ويقصد به : ((أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول))[١]، وتقدير الجملة : ((هو الذي جعل لكم الليل مُظْلمًا لتَسْكُنوا فيه، والنهار مُبْصِرًا لتتحركوا فيه لمعاشكم، فحذف (مُظْلمًا) لدلالة ﴿ مُبْصِرًا ﴾ عليه، وحذف لتتحركوا لدلالة ﴿ لِتَسْكُنُواْ ﴾))[٢].

وهذه الآية الكريمة حوت نوعين من الحذف، هما :

١. حذف كلمة مفردة : (مُظْلمًا).
٢. حذف جملة : (لتتحركوا فيه لمعاشكم).

ويأتي هذا الحذف متناسبًا مع سياق تفرد الله بالقدرة الكاملة والنعمة الشاملة في الخلق والتصريف في هذا الكون، في إشارة إلى استحقاقه بالعبادة، في مقابل عجز الشركاء الذين يُعبَدون من دون الله على فعل شيء من ذلك، فهو ﷻ وحده بحكمته ورحمته قد أبدع وخلق الليل مظلمًا للهدوء والراحة من عناء الحركة والعمل، وجعل النهار مبصرًا لتصريف شؤون الحياة[٣].

ويبدو لي أن السرّ البياني من وراء هذا الحذف هو ترك المجال أمام القارئ والمخاطب والسامع، ليكمل هو بنفسه مشهد الليل والنهار الواضح المتكرر كلّ يوم، بذكر ما حذف منهما، وحينها هل يستطيع أن يدعي أنّ لله شركاء يستحقون العبادة، فكأنّ التعبير القرآني بهذا الحذف يريد أن يفسح المجال ليقتنع كل جاحدٍ بنفسه مما يشاهده من دلائل على

---

(١). الإتقان في علوم القرآن : ٥ / ١٦٢٣ .
(٢). ينظر : تفسير أبي السعود : ٢ / ٦٨٩ .
(٣). ينظر: تفسير المنار : ١١ / ٣٨٤ .

استحقاق الله الربوبية والعبودية التي هي من الوضوح بمكان، بدليل أن الآية ختمت بـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ فهذه الدلائل لا تحتاج للاقتناع بها أكثر من سماعها[1].

فضلًا أنَّ التعبير ذكر الأهم والأساس من نعمة ﴿ٱلَّيْلَ ﴾ ، وهو السكون لأجل الراحة؛ إذ لا قيمة للإظلام بدون راحة، ولهذا ذكر الأهم ﴿لِتَسْكُنُوا۟ ﴾، وحذفت مفردة (مظلمًا)، والأمر نفسه حين ذكر نعمة ﴿ٱلنَّهَارَ ﴾، فقد ذكر المهمّ منه ﴿مُبْصِرًا ﴾، تنبيهًا على كمال كونه سببًا للإبصار لعموم فائدته في الحركة والعمل والقدرة على التمييز بين الأشياء .

(١). ينظر : نظم الدرر : ٩ / ١٥٨ .

تناسب المفردة اللغوية

المفردة القرآنية سرّ من أسرار الإعجاز البيانيّ؛ لما تحمله من قيمة دلالية فنية مقصودة، تتوافق مع مدلول المفردات التي جاورتها سواء مع ما قبلها أو مع ما بعدها، وتتمثل هذه القيمة الدلالية في سياق البلاغة القرآنية في الآتي :

١. جمال حسيّ بصريّ، فالمفردة القرآنية تعمل على تشخيص الصور الذهنية، وذلك ببثّ الحيوية والحركة فيها، فتصل إلى الذهن، وكأن الصورة تتراءى للمتلقي أمام ناظريه .

٢. جمال حسيّ سمعيّ، يُعنى بإبراز الجوانب الجمالية الصوتية الموسيقية في المفردة، ببيان أثر وقع حروفها وصفات هذه الحروف، وما يكتنف هذه المفردة من مدود وحركات، ومدى انسجامها للسياق التي وردت فيه.

٣. جمال نفسيّ للقلب، يظهر من ارتباط المفردة بالموضوع واستيعابها له، ومدى تأثيرها في نفس المتلقي، بما تتمتع به من تنوع صيغتها، وإيجازها للمعاني الكثيرة، ورقيها في مخاطبة الإنسان(١).

ونجد العلماء الذين اهتموا بالإعجاز قد أولوا المفردة القرآنية أهمية كبيرة على أساس أنها عمدة في الإعجاز، فهذا مصطفى صادق الرافعي يقول في شأن المفردة : ((أما ألفاظ هذا الكتاب الكريم، فهي كيفما أدرتها وكيفما تأملتَها وأين اعترضتها من مصادرها أو مواردها ومن أي جهة وافقتها؛ فإنك لا تصيب لها في نفسك ما دون اللذة الحاضرة، والحلاوة البادية، والانسجام العذب؛ وتراها تتساير إلى غاية واحدة ...، تختلف الألفاظ ولا تراها إلا متفقة، وتفترق ولا تراها إلا مجتمعة، وتذهب في طبقات البيان، وتنتقل في منازل البلاغة، وأنت لا تعرف منها إلا روحًا تداخلُك بالطرب، وتُشرِب قلبكَ الروعة، وتنتزع من نفسك حس الاختلاف الذي طالما تدبرت به سائر الكلام))(٢).

---

(١). ينظر : جماليات المفردة القرآنية : ٢٠ .

(٢). إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ٢٤٠ – ٢٤١ .

ونتيجة لهذه الأهمية والمكانة التي تبوأتها المفردة في النظم القرآني، فقد تشعبت الدراسات القرآنية حول بيان تناسبها على وفق المناهج الآتية[1] :

- منهج المفسرين : يوضحون ما تكتنفه المفردة القرآنية من مدلولات، ويكشفون عمّا ترشد إليه من معنى .
- منهج اللغويين : يعملون على تبيين صيغة المفردة القرآنية واشتقاقها والفصيلة اللغوية التي تنتمي إليها .
- منهج علماء البيان : يعمدون على إظهار جمال موقع المفردة القرآنية، وأصالتها في موضعها، وما تحمله من حلاوة جرس، وما تحدثه من إرهاف في الحسّ .

وأقرب هذه المناهج التي سأتبعها في دراسة المفردة، هو منهج اللغويين، متّبعًا الخطوات الآتية :

١. **تحديد المفردة التي يراد دراسة تناسبها .**
٢. **ذكر الآية التي وردت فيها المفردة .**
٣. **استعراض دلالاتها في كتب اللغة والتفسير.**

والمفردات هي :

﴿ بِٱلْقِسْطِ ﴾، قال ﷻ : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [يونس: ٤] .

جاءت مفردة ﴿ بِٱلْقِسْطِ ﴾ متناسبة لموضعها اللفظيِّ في الآية الكريمة أجمل مناسبة، إذ لا يمكن لأي كلمة أخرى أن تعطي معناها، أو أن تسدّ مكانها في نظم هذه الآية، فكيف إذا كانت هذه المفردة متعلقة معنويًّا ونحْويًّا بمفردة ﴿لِيَجْزِىَ ﴾، فلا شكَّ أن المناسبة تزداد انسجامًا، فالآية الكريمة تتحدث عن بيان علة الرجوع إلى الله يوم القيامة، وهو مجازاة المؤمنين، ومجازاة الكافرين بالشراب الحميم والعذاب الأليم بسبب كفرهم، وهذا يمثل العدالة الإلهية في ذلك الموقف.

---

(١). ينظر : لمسات ولطائف من الإعجاز البياني للقرآن الكريم : ٢٦ .

وحينما نرجع إلى المعجمات اللغوية لنستجلي مدلول المفردتين، نجد أن دلالة ﴿ لِيَجْزِيَ ﴾ هي المكافأة، قال الخليل : ((جزى يجزي جزاءً، أي : كافأ بالإحسان وبالإساءة))[1]، وقال ابن فارس : ((الجيم والزاء والياء : قيام الشيء مقام غيره ومكافأته إياه، يقال جَزَيْت فلانًا أجزيه جزاء))[2].

وأما (القِسْط) فهو العَدْل، قال ابن فارس : ((القاف والسين والطاء أصل صحيح يدل على معنيين متضادين والبناء واحد، فـ (القِسْط) : العَدْل . ويقال منه : (أَقْسَط يُقْسِط)، قال ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [المائدة: ٤٢] ...، ومن الباب الأول (القِسط) : النَّصيب، وتقسطنا الشيء بيننا، و(القسطاس) : الميزان، قال ﷻ : ﴿ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾ [الإسراء: ٣٥]))[3].

ومن النظر في مدلول المفردتين يتبين لنا مدى الانسجام بينهما؛ فالجزاء هو المكافأة التي لابدّ أن تكون قائمةً على القِسْطِ والعدْل، ومن جانب آخر نلحظ أنَّ مفردة (القِسْط) فيها توسع في المعنى بما تتضمنه من دلالات متعددة، وهي :

١. يجزيهم الله بقسطه وعدله ويوفيهم أجورهم على وفق نصيب كل واحد منهم بما عمل[4]، ولا يمنع أن يضاعف لهم الأجر بدليل ما ورد في السورة نفسها في قوله ﷻ : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦]، وقوله ﷻ في سورة أخرى : ﴿ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء: ١٧٣][5] .

٢. يجزيهم الله بعدلهم مع أنفسهم وعدم ظلمهم أنفسهم حين آمنوا وعملوا الصالحات، لأن الشرك ظلم، مصداقا لقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان: ١٣]، وهذا

---

(١). العين : ٦ / ١٦٤، (جزي)، وينظر : تهذيب اللغة : ١١ / ١٤٢، (جزي) .

(٢). مقاييس اللغة : ١ / ٤٥٥، (جزي) .

(٣). مقاييس اللغة : ٥ / ٨٥ – ٨٦، (قسط)، وينظر : لسان العرب : ٥ / ٣٦٢٦ – ٣٦٢٧، (قسط) .

(٤). ينظر : الكشاف : ٣ / ١١٥، والبحر المحيط : ٥ / ١٢٩، وتفسير المنار : ١١ / ٢٥٧.

(٥). ينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ / ٣٣، وتفسير المنار : ١١ / ٢٥٧ – ٢٥٨ .

المعنى هو الذي رجَّحه الزمخشري، وتبعه الفخر الرازي، وقد استدلّا بما قاله الله في المقابل في حقّ الكفار الذين يظلمون أنفسهم بشركهم وكفرهم : ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾[يونس: ٤][1] .

٣. يجزيهم بقيامهم بالقسط، وهو الحقّ والعدل في الأمور كلها الذي هو مقتضى الإيمان بدليل ﷻ : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقوله ﷻ : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾[الأعراف: ٢٩][2] .

وكما رأينا أنَّ الزمخشري رجَّحَ أحد هذه المعاني السابقة إلا أن ذلك لا يمنع أن تحتمل الآية بقية المعاني الأخرى، ويبدو لي أن كلّ هذه المعاني مرادة، فالله ﷻ يجزي المؤمنين حقهم من الأجر بالعدل، فلا يظلمهم شيئًا، لأنهم قاموا بالقسط والحقّ والعدل، ولأنهم عدلوا مع أنفسهم، فلم يظلموها بالكفر والشرك، كما فعل الكفار .

فلو استعملت مفردة (العَدْل) الذي تدور معانيها في الغالب حول (الاستواء)[3]، لأعطى المعنى الأول من المعاني التي أوردناها لمفردة ﴿ بِالْقِسْطِ ﴾، وهو المساواة في الأجر، وبهذا تفوت المعاني الأخرى، ولكنّ التعبير القرآنيّ استعمل مفردة ﴿ بِالْقِسْطِ ﴾ ليجمع عدة معان بمفردة واحدة، وهي التي سبق ذكرها .

ونلحظ في الآية ورود مفردة ﴿ بِالْقِسْطِ ﴾ مرتبطةً بجزاء المؤمنين، في حين لم ترد هذه المفردة في جزاء الكفار، وذلك راجع إلى عدّة أسباب، هي :

١. لأجل زيادة العناية والاهتمام بجزاء المؤمنين، فقد خصّوا بالفضل والإكرام، على أساس أن مفردة ﴿ بِالْقِسْطِ ﴾ لا تمنع مضاعفة الأجر عليهم، كما بيّنا ذلك سابقًا[4].

---

(١). ينظر : الكشاف : ٣ / ١١٥، ومفاتيح الغيب : ١٧ / ٣٣ – ٣٤ .

(٢). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٢٥٨ .

(٣). ينظر : مقاييس اللغة : ٤ / ٢٤٦، (عدل) .

(٤). ينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ / ٣٣ .

٢. تأنيس المؤمنين بأنهم استحقوا هذا الجزاء بسبب ما عملوه من أعمال صالحة في الحياة الدنيا، وكأنه ليس لله فضل عليهم فيما أنعم عليهم؛ إذ إن من عظيم خِصال الكريم أن يُحَسِّسَ المُكرَمَ بأن ما ناله من إكرام هو حقُّه، وليس له فيه فضل[١].

ويبدو لي أنّ هذا الإيناس والتكريم يحمل إشارة تطمين للرسول ﷺ وأصحابه ﷺ، وتفريجًا لهمومهم، إبّانَ حادثة الإسراء التي اشتدّ فيها إيذاء قريش لهم، مما حدا بسيد قطب أن يصف هذه الفترة بالحرجة على الدعوة الإسلامية، وهذا الأمر ينسجم مع توقيت نزول سورة يونس؛ إذ نزلت بعد سورة الإسراء[٢]، كما أنها تنسجم أيضًا مع اسمها (يونس) ومقاصدها؛ تسليةً وتخفيفًا للضغط النفسيّ الذي يعْتَمِل في صدور المؤمنين[٣].

٣. إلماح إلى أن جزاء الكفار دون ما يقتضيه العدل، فلو كان جزاؤهم على مقدار ما عملوه من أعمال سيئةٍ لكان عذابهم أشدّ[٤].

وبهذا يتبين تناسب اختيار هذه المفردة التي تشكل لبِنَةً من لَبِنات التماسك النّصيّ في الآية الكريمة معنويًّا ونظمًا، وتماسكها مع اسم السورة ومقصودها من جهة أخرى .

❖ ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ ، قال ﷻ : ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [يونس: ٧٨] .

فالمعنى اللغويُّ لمفردة ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ هو (العظمة والملك)، قال ابن منظور : ((الكِبْرِياء : العَظَمة وَالْمُلْكُ، وَقِيلَ : هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ كَمَالِ الذَّاتِ وَكَمَالِ الْوُجُودِ وَلَا يُوصَفُ بِهَا إِلَّا اللَّهُ))[٥]، بدليل ما رواه أبو هريرة، قال : قال رسول الله ﷺ : قَالَ اللهُ ﷻ : ((الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدَةً مِنْهُمَا، أَلْقَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ))[٦]، وهذا يدلُّ على أن

---

(١). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ٩٢ .

(٢). ينظر : دلائل النبوة للبيهقي : ٧ / ١٤٣ .

(٣). نزلت سورة يونس في جوّ يشبه جو سورة يوسف، ينظر : القصص القرآني، عرض وقائع وتحليل أحداث : ٢ / ٧٦.

(٤). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ٩٢ .

(٥). لسان العرب : ٥ / ٣٨٠٧، (كبر) .

(٦). ورد الحديث في : مسند الإمام أحمد : ١٥ / ٣١٣، رقم الحديث (٩٥٠٨) .

مفردة ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ تمثل أعلى درجات العظمة، وأبلغ من مفردة (الكِبْر) التي تكون في الأمور المعنوية مثل التكبر كما في قوله ﷻ : ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦]، وإشاعة الإفك في قوله ﷻ عن حادثة الإفك : ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النور: ١١][1]، فضلًا عن اتّساع بناء المفردة ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾، وزيادة مبناها دلّ على اتساع معناها وشمولها، بدليل أنها وردت في آية سورة الجاثية متعلقة بالسموات والأرض في إشارة إلى إحاطة ملك الله ﷻ بهما ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية: ٣٧]، وأما ملامح الشمول في هذه المفردة في آية سورة يونس، فتتمثل في أمرين اثنين :

أولًا : أنها جاءت متعلقةً بالأرض ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ : للدلالة على مدى خوف فرعون وملئه من اتّساع دائرة سيطرة موسى وأخيه هارون على أرض مصر بأكملها، وممّا يقوي هذه الدلالة مجيء هذه المفردة في معرض الاستفهام الإنكاري على دعوةَ موسى وهارون والاتّهام بأنَّهما يريدان تغييرَ الدينِ القوميِّ الوطنيِّ الذي يدين به الأقباط، والتحايل للاستيلاء على حُكم مصر كلها[2]، ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ .

ثانيًا : التعبير بتثنية الضمير في ﴿لَكُمَا﴾ يدلّ على شمول الكبرياء لهما؛ أي : لموسى وهارون عليهما السلام[3] .

ومِنْ ثَمّ جاء الرفض قاطعًا بأعلى درجات التوكيد والمبالغة، بما لا يقل عن المبالغة في هذه المفردة، خشية وقوع مصر في سيطرة موسى وأخيه، فقال ﷻ على لسانهم : ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨]، فقد اشتملت هذه الجملة القرآنية على أساليب المبالغة، وهي :

---

(١). ينظر : من أسرار البيان القرآني : ٢١ – ٢٢ .

(٢). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٣٩٤ .

(٣). ينظر : تفسير أبي السعود : ٢ / ٦٩٨ .

١. التعبير بالجملة الاسمية؛ لإفادة أنَّ عدم إيمانهم بدعوة موسى وأخيه عليهما السلام أمر ثابت ودائم .

٢. تقديم المعمول ﴿ لَكُمَا ﴾ على العامل ﴿ بِمُؤْمِنِينَ ﴾، لإفادة الاهتمام بالمخاطبَين اللذين بسبب أنهما يريدان نفعا، فقد نفى فرعون وملؤه الإيمان عن أنفسهم .

٣. توكيد الخبر بحرف الجر الزائد للتوكيد، وقطع الأمل في إيمانهم مستقبلًا.

كلّ ذلك يدلّ على انسجام المبالغة في الدلالة بين مفردة ﴿ ٱلْكِبْرِيَآءُ ﴾ والجملة ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾، ممّا يدلل على أنّ السياق لا يحتمل مفردة أخرى، ولا يتناسب معه إلا مفردة ﴿ ٱلْكِبْرِيَآءُ ﴾ .

❁ ﴿ قَتَرٌ ﴾ ، قال ﷻ : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [يونس: ٢٦] .

جاءت هذه المفردة ﴿ قَتَرٌ ﴾ مناسبةً لمكانها في الآية الكريمة، ولاسيما أنها سبقت بالفعل المنفي ﴿ وَلَا يَرْهَقُ ﴾، ممّا يجعل التناسب بين المفردتين أشدّ انسجامًا، وذلك بسبب ما بينهما من ترابط معنوي، فـ ﴿ قَتَرٌ ﴾ في اللغة : ((القاف والتاء والراء أصل صحيح يدل على تجميع وتضييق ...، والإقتار: التضييق، يقال: قتر الرجل على أهله يقتر، وأقتر وقتر، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ ﴾ [الفرقان: ٦٧]، ومن الباب: القتر: ما يغشى الوجه من كرب، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ﴾ [يونس: ٢٦]))[١]، وجاء عند الجوهريّ : ((القَتَرُ: جمع القَتَرَةِ، وهي الغبار، ومنه قوله تعالى : ﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ [عبس: ٤١]))[٢]، وتأتي (قَتَرَ) بمعنى : (القلة والضعف والخفة)، فقد قال

(١). مقاييس اللغة : ٥ / ٥٥، (قتر)، وينظر : لسان العرب : ٥ / ٣٥٢٥، (قتر) .

(٢). الصحاح : ٢ / ٧٨٥، (قتر) .

الأصفهاني : ((تقليل النّفقة ...، ورجل قَاتِرٌ: ضعيف كأنّه قَتَرَ في الخفّة كقوله : هو هباء، وابن قِتْرَةَ : حيّة صغيرة خفيفة، والقَتِيرُ: رؤوس مسامير الدّرع))[1].

و(رهق) هو غِشْيانُ الشيء[2]، ويقال : ((رَهِقَهُ الأمرُ : غشيه، قال الله تعالى : ﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ [عبس: ٤١] ...، ويقال: رَهِقَهُ الدَّيْنُ : أي: ركبه، ورَهِقْتُه : أي: أدركته))[3].

فقد جاءت مفردة ﴿ قَتَرٌ ﴾ في معرض الحديث عن الذين هداهم الله إلى الصراط المستقيم، فأحسنوا أعمالهم في الدنيا، فكان جزاؤهم المثوبة الحسنى، وهي الجنة، والتَّفَضُّلُ عليهم بالزيادة والمضاعفة في الجزاء[4]، ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢]، ونلحظ أن الله ﷻ قد وصف هذه الجنة في الآية التي قبلها بأنها دار السلام، في قوله : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ ﴾ [يونس: ٢٥]، ممّا يعني أن الجنة دار سالمة من المصائب والمعايب والنقائص والأكدار[5]، وهذا ما ينعكس في وجوه هؤلاء المحسنين، ويتناسب مع مفردة ﴿ قَتَرٌ ﴾ المنفية بالفعل ﴿ وَلَا يَرْهَقُ ﴾؛ إذ وجوه هؤلاء لا يغشاها شيء من القتر والغبرة والسواد والكرب، ولو كان ضعيفًا أو قليلًا أو خفيفًا، بل هي مبتهجة مسرورة نضرة؛ بسبب ما وجدته من الاطمئنان والسعادة والإنعام والإكرام، وعدم التضْيِيق عليهم في تلك الدار، ولأنّ السياقَ سياقُ اهتمام بوجوه المحسنين فقد جرى في الآية تقديم المفعول به ﴿ وُجُوهَهُمْ ﴾ على الفاعل ﴿ قَتَرٌ ﴾ لبيان أن المصونَ من أن يغشاه القتر هو أشرفُ أعضائِهم[6]، وهي هذه الوجوه التي يعرف من خلالها سلامة أصحابها من الضيق والكدر، ومجيء هذه المفردة في الجملة

---

(١). المفردات في غريب القرآن : ٢ / ٥٠٨، (قتر) .

(٢). العين : ٣ / ٣٦٦، (رهق) .

(٣). شمس العلوم : ٤ / ٢٦٥٩، (رهق) .

(٤). ينظر : تفسير أبي السعود : ٢ / ٩٥٤، وفتح القدير : ٢ / ٦١٦، ومعنى الزيادة هنا يتوافق مع قوله ﷻ : ﴿ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ [النساء: ١٧٣] .

(٥). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٢٩٨ .

(٦). ينظر : تفسير أبي السعود : ٢ / ٩٥٤ .

الفعلية التي فعلها مضارع ﴿ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ﴾؛ للدلالة على استمرار انتفاء القتر في كل الأزمنةِ في تلك الدار، فضلًا عن ذلك فإنَّ الآية ختمت بـ ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ في إشارة إلى أنَّ هذا القتر لا يقترب هذه الوجوه أبدًا في هذه الدار الدائمة والآمنة[1].

وانتفاء هذا القتر عن وجوه المحسنين ليس مديحا لهم، بل ليس مقصودا لذاته؛ إذ يستحيل أن ينتابهم شيء من ذلك بعدما أكرمهم الله بالحسنى وزيادة، وإنما الحكمة من ذلك راجعة، فيما يبدو لي، لأمرين اثنين، هما :

أولًا : لأجل تعجيل المساءة للذين كسبوا السيئات، بواسطة أسلوب التعريض قبل التصريح الذي في الآية المقابِلَة ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ﴾ [يونس: ٢٧][2].

ثانيًا : لإيناس الرسول ﷺ وأصحابه الذين أصابهم القتر والكدر في الحياة الدنيا، بسبب ما يرونه من السرور والبهجة التي تعلو مُحيّا الكفار من جراء غلبتهم وتنكيلهم بالمؤمنين، فتأتي الآية بهذه المقابلة لطمأنتهم ولإضفاء الأنس في قلوبهم بأن هذا الأمر لن يدوم، بل ستنعكس الصورة في الآخرة رأسًا على عقب، فتنزاح القترة والكدر والكرب عن وجوه المؤمنين، إلى وجوه الكفار التي ستؤول قترًا وكربًا وظلمة وغمًّا وذُلًّا وإهانة.

وهذا الأمر الذي أشرت إليه هو مَقْصِدٌ عظيم من مقاصد سورة يونس، أعني مقصد الإيناس، وهو الذي يتوافق مع اسم السورة الذي ذكرته مِرارًا وتكرارًا في مواضع كثيرة .

❁ ﴿ بِبَدَنِكَ ﴾ : قال ﷻ : ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يونس: ٩٢] .

ذهب الجوهريّ إلى أنّ (البدن) رديف (الجسد)، ولكنه جسد بلا روح[3]، وفرق الراغب الأصفهاني بينهما بقوله : ((البَدَنُ : الجسد، لكن البدن يقال اعتبارا بعظم الجثة، والجسد يقال اعتبارا باللون))[1]، ويطلق البَدَنُ أيضًا على (الدرع) لأنها تضم البدن[2].

---

(١). ينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ / ٨٣ .

(٢). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ١٤٧ .

(٣). ينظر : الصحاح : ٥ / ٢٠٧٧، (بدن) .

وردت هذه المفردة ﴿بِبَدَنِكَ﴾ في سياق بيان عاقبة فرعون ونهايته المزرية، فالآية الكريمة تشي لأول وهلة بالوعد لفرعون بالنجاة من الغرق حينما أحاطت به المياه من كلِّ جانب، ولمنع هذا المعنى جيء بهذه المفردة ﴿بِبَدَنِكَ﴾ احتراسًا لتبين أن النجاة حاصلة للبدن لا للروح[٣]، وبهذا يفهم أن هذا الوعد بالنجاة كان على سبيل التهكم والاستهزاء بفرعون الذي طالما تكبر وتجبر وتغطرس، كأنه قيل له : سننجيك، ولكن بعد أن تغرق، وتخرج روحك، وتبقى جسدًا بلا روح[٤]، وقريب من هذا الأسلوب التهكميّ قوله ﷻ : ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]، وقولهم : ((نعتقك ولكن بعد الموت، ونخلصك من السجن ولكن بعد أن تموت))[٥]، وممّا يقوي دلالةَ الاحتراس جرُّ هذه المفردة بحرف الجرّ الزائد (الباء) لتأكيد أنّ الإنجاء للبدن فقط، ومن ثَمّ كانت هذه المفردة في معنى البدل المطابق للضمير (الكاف) المتصل بالفعل ﴿نُنَجِّيكَ﴾، فيصير تقدير الجملة : (نُنَجِّي بدنك)، كمثل الزيادة في ألفاظ التوكيد المعنوي : (نفسه وعينه)، كقولنا على سبيل المثال: (جاء أبو خالد بنفسه أو بعينه)[٦].

وفي الوقت نفسه تُصَوِّرُ هذه المفردة ﴿بِبَدَنِكَ﴾ بكلِّ دلالاتها مشهدَ غرق فرعون، وهو بكامل قوته وعظيم جثته وشكيمته وجبروته، وقد لبس درعه وعدته الحربية التي تقيه ضربات السيوف، وطعنات الرماح والنبال، إلا أن ذلك كلَّه لم يمنعه من مواجهة قدر الله، وعاقبته المحتومة بالموت غرقًا في البحر .

وفي دلالة أن مفردة ﴿بِبَدَنِكَ﴾ بمعنى الدرع إشارة إلى عظيم قدرة الله؛ إذ إنّ الدرع الحديدية يفترض أن تسرع بإغراق فرعون في قاع البحر، إلا أن جسد فرعون لم يرسُ في أعماق البحر، ليدلل ذلك على أنّ هذه الآية التي أراها الله لمن جاء بعد فرعون خارقةٌ قوانين

---

(١). المفردات في غريب القرآن : ١ / ٥٠، (بدن) .

(٢). ينظر : مقاييس اللغة : ١ / ٢١٢، (بدن) .

(٣). ينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ / ١٦٣، والتحرير والتنوير : ١١ / ٢٧٨ .

(٤). ينظر : فتح القدير : ٢ / ٦٥٧ .

(٥). مفاتيح الغيب : ١٧ / ١٦٣ .

(٦). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ٢٧٨ .

الطبيعة في الرُّسوّ والطَّفو[١]، وهذا مدعاة إلى الاعتبار وعدم منازعة الله في جبروته وكبريائه وربوبيته كما فعل فرعون من قبل[٢].

(١). ينظر : الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق : ١٩٤ .

(٢). ينظر : روح المعاني : ١١ / ١٨٤ .

الخاتمة

ونتائج البحث

الخاتمة

وبعد هذا التطبيق لجوانب علم المناسبة في سورة يونس، أرجو أن أكون قد وُفِّقْتُ في عرض الموضوع، ويمكن القول أن هذه الدراسة قد خرجت بالنتائج الآتية :

١. شكَّلتْ سورة يونس مع السورة التي قبلها، وهي سورة التوبة، ومع السورة التي بعدها ، وهي سورة هود مناسبةً فيما بينها، على الرغم من أنَّ سورتي يونس وهود من السور المكية، وسورة التوبة من السور المدنية، إلا أنَّ ذلك لم يمنع من التِحامها معًا موضوعيًّا في فواتحها وخواتمها، وائتلافها قصصيًّا.

٢. تناسبت السور الثلاث (التوبة، ويونس، وهود) موضوعيًّا في جانب (العقيدة)، على النحو الآتي:

أ. توحيد العبودية والألوهية .

ب. إثبات البعث والنشور

ت. إثبات القدرة المطلقة لله .

وهذا كله يعكس اهتمام هذه السور الثلاث بترسيخ مبادئ العقيدة الإسلامية.

٣. مناسبة سورة يونس في التّأكيد على مقصودها، وهو : (الوحي ومقتضياته)، وقد سيطرت هذه القضية على كُلِّ مفاصل السورة .

٤. انسجام سورة يونس مع دلالة اسمها (يونس) الذي يحمل معاني : (الأنس، والظهور، و الإبصار والسماع)، وهذا بسبب ما تتطلبه الفترة الحرجة التي مرَّت بها الدعوة الإسلامية من التضييق عليها وعلى رسولها وأتباعها، والهجوم الشَّرِس على الوحي الذي تستند عليه هذه الدعوة بعد حادثة الإسراء والمعراج، فكانوا بحاجة إلى الإيناس والأنس للتخفيف النفسي عنهم .

٥. تناسب قصص سورة يونس في تحقيق مقصود السورة،، فكلها عرضت الدعوة إلى الله، مدعومة بالوحي والبينات والبراهين، مع بيان عاقبة رفض هذه الدعوة .

٦. جاءت هذه القصص متَّسقة مع الجوِّ النفسي المشحون بالهموم والأحزان؛ بسبب ما كانت تمرُّ به الدعوة من التضييق عليها، وتعذيب أتباعها، فكان إيرادها لانتشال هذه النفوس المتعبة، والقلوب المكلومة من ذلك الجوِّ بالتسلية والتنفيس .

٧. اتَّسمت سورة يونس بالعديد من الأساليب التي تحقق المناسبة بين الآيات أو في الآية الواحدة؛ كأسلوب الاستئناف البيانيِّ، والتفصيل والإجمال .

٨. وممّا يُلحظ في سورة يونس، هو ذلك التَّنوع في استعمال الأسلوب الواحد، بما يتناسب مع سياق الآيات بسباقها ولحاقها، ومن ذلك استعمال أسلوب التوكيد الذي اتَّخذ أشكالًا عديدة، كالتوكيد بـ (إنَّ)، والتوكيد بـ (اللام) الواقعة في جواب القسم، والتوكيد بـ (الحال)، والتوكيد بالمصدر، والتوكيد اللفظيّ، والتوكيد المعنويّ، وذلك يعكس حاجة القضايا المطروحة في السورة إلى أسلوب التوكيد بما ينطبق مع حال المتلقي .

٩. من مباحث المناسبة المهمة في دراسة سورة يونس، مبحث المتشابه اللفظيّ، وهو علم يدرس ما بين الآيات من تشابه وتناسب لفظيٍّ على وفق السياق الذي يرد فيها .

١٠. التشكل الصوتي يعدُّ لبنةً من لبنات التناسب في سورة يونس، فهو يدرس مناسبة الصوت في موضعه من المفردة القرآنية .

١١. كشف البحث عن أهمية دراسة البنية الصرفية، ودورها في رسم المناسبة داخل الآيات، لما تتمتع به من دلالات عديدة، ومعان كثيرة، تشدُّ من أَزْر السياق اللغوي، ومن بين البنى الصرفية الواردة في سورة يونس، بنية التضعيف؛ كصيغتي (فَعَّل)، و (تَفَعَّل)، وبنية المشتقات؛ كاسم الفاعل، وصيغة المبالغة، والصفة المشبهة.

١٢. ومن مظاهر التناسب في سورة يونس، تناسب المفردة القرآنية؛ لما لها من تأثير مهمٍّ في خدمة السياق، وتجسيد الصورة الذهنية، وبلورة الحالة النفسية .

وفي الختام يوصي الباحث بالآتي :

- إفراد سورة يونس بدراسة جانب واحد من جوانب المناسبة باستفاضة، واستقصاء موسع لكل الأمثلة الواردة في ذلك الجانب من السورة.
- إيلاء سور القرآن الكريم الأخرى بالدراسة على وفق اهتمامات علم المناسبة، لإغناء المكتبة الإسلامية بروائع هذه العلم، ومكنوناته الثَّريَّة.

- توسيع منهجية علم المناسبة؛ لتشمل المناسبة البلاغية؛ كدراسة الاستعارة، والمجاز المرسل، والمجاز العقلي، وغيرها من المباحث البلاغية .

قائمة

المصادر والمراجع

الكتب المطبوعة

أ

١. أبنية الأفعال دراسة لغوية قرآنية، الدكتورة نجاة عبد العظيم الكوفي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٤٠٩هـ . ١٩٨٩م .

٢. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩١١هـ)، تحقيق : مركز الدراسات القرآنية، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد .

٣. أساس البلاغة، جار الله أبو القاسم محمّد بن عمرو بن أحمد الزمخشري (٥٣٨ هـ)، تحقيق : محمّد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١ / ١٤١٩هـ . ١٩٩٨م .

٤. الأساس في التفسير، سعيد حوّى (١٤٠٩ هـ)، دار السلام، القاهرة، ط٦ / ١٤٢٤هـ .

٥. أساليب بلاغية، أحمد مطلوب أحمد الناصري الصيادي الرفاعي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط ١ /١٩٨٠م .

٦. أسرار ترتيب القرآن أو ما يسمى (تناسق الدرر في تناسب السور)، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩١١هـ)، دار الفضيلة للنشر والتوزيع .

٧. الأسلوب، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، ط ١٢ / م٢٠٠٣.

٨. أسلوب الحذف في القرآن الكريم وأثره في المعاني والإعجاز، الدكتور مصطفى شاهر خلوف، دار الفكر، ناشرون وموزعون، الأردن، ط١ / ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩م .

٩. الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، الدكتور محمّد كريم الكوار، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ط١ / ١٤٢٦هـ .

١٠. أسماء سور القرآن الكريم، عبدالله بن سالم بن حمد الهنائي، الأجيال للتسوق، الأردن، ط١ / ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥م .

١١. الأصوات اللغوية، الدكتور إبراهيم أنيس، مكتبة نهضة مصر.

١٢. الأصول في النحو، أبو بكر محمّد بن سهل بن السراج (٣١٦هـ)، تحقيق : عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، لبنان .

١٣. أضواء على ظهور علم المناسبة . الدكتور عبد الحكيم الأنيس . مجلة الأحمدية . دبي . العدد (١١) . السنة / ١٤٢٣ هـ . ٢٠٠٢ م .

١٤. إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني محمّد بن الطيب (٤٠٣هـ)، تحقيق : أبو بكر عبد الرزاق، مكتبة مصر .

١٥. إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، صلاح عبدالفتاح الخالدي، دار عمار للنشر والتوزيع، ط١ / ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م .

١٦. إعجاز القرآن الكريم، الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس، وسناء فضل عباس، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الأردن، ط٤ / ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م .

١٧. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، لبنان، ط٩ / ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م .

١٨. الإعجاز القصصي في القرآن الكريم، الأستاذ الدكتور سعيد عطية على مطاوع، دار الآفاق العربية، ط١ / ٢٠٠٦م .

١٩. الإعجاز اللغويّ في القصة القرآنية، محمود السيد حسن مصطفى، مؤسسة شباب الجامعة، ط١ / ١٩٨١م .

٢٠. الإيضاح في علوم البلاغة، أبو المعالي جلال الدين محمّد بن عبد الرحمن بن عمر القزويني (٧٣٩ هـ)، دار الكتب العلمية، لبنان .

ب

٢٠ البحر المحيط، أبو حيان محمّد بن يوسف الأندلسي (٧٤٥ هـ)، تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١ / ١٤١٣ هـ . ١٩٩٣ م .

٢١ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد بن على بن محمد بن عبدالله الشوكاني اليمني (١٢٥٠ هـ)، دار المعرفة، بيروت .
٢٢ بدائع الفوائد، أبو عبدالله شمس الدين محمّد بن قيّم الجوزية (٧٥١هـ)، تحقيق : بشير محمّد عيون، مكتبة دار البيان، سوريا، ط٢ / ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م .
٢٣ البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله محمّد بن عبد الله الزركشي (٧٩٤هـ)، تحقيق : محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط١ / ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م .
٢٤ البرهان في متشابه القرآن، محمود بن حمزة بن نصر الكرماني، تحقيق : أحمد عز الدين عبدالله خلف الله، دار صادر، لبنان، ط٢ / ٢٠١٠م .
٢٥ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، أبو طاهر مجد الدين محمّد بن يعقوب الفيروزآبادى (٨١٧هـ)، تحقيق : محمّد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ط ٦ / ١٣٩٣ هـ – ١٩٧٣ م .
٢٦ بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، الأستاذ الدكتور فاضل صالح السامرائي، دار عمار للنشر والتوزيع، الأردن، ط٢ / ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م .
٢٧ البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني)، الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الأردن، ط١١/ ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م .
٢٨ البلاغة والأسلوبية، الدكتور محمّد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، ط١ / ١٩٩٤م .
٢٩ بيان إعجاز القرآن، أبو سليمان حمد بن محمّد بن إبراهيم بن الخطاب الخطابي البستي (٣٨٨ هـ)، تحقيق : محمّد خلف الله أحمد، والدكتور محمّد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط ٣ (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القران) .
٣٠ البيان في الإعجاز والتناسب في القرآن الكريم، الأستاذ الدكتور عقيد خالد حمودي العزاوي، دار العصماء، سوريا، ط١ / ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥م .
٣١ البيان في روائع القرآن، الدكتور تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة .

ت

٣٢ تاج العروس من جواهر القاموس، أبو الفيض محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق مرتضى الزَّبيدي (١٢٠٥هـ)، مجموعة من المحققين، دار الهداية .

٣٣ تأويل مشكل القرآن، أبو محمّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢٧٦هـ)، تحقيق : إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، لبنان، ط٢ / ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م .

٣٤ التحرير والتنوير، محمّد الطاهر بن عاشور (١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م .

٣٥ الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، محمّد نور الدين المنجد، دار الفكر، سوريا، ط١ / ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م .

٣٦ التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٧ / ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م .

٣٧ التعبير القرآني، الأستاذ الدكتور فاضل صالح السامرائي، دار عمار للنشر والتوزيع، ط٢ / ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م .

٣٨ التعبير القرآني والدلالة النفسية، الدكتور عبد الله محمّد الجيوسي، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دمشق، ط ٢ / ١٤٣٥هـ . ٢٠١٤م .

٣٩ التعريفات، علي بن محمّد بن علي الزين الشريف الجرجاني (٨١٦هـ)، تحقيق : جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، لبنان، ط ١ / ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م .

٤٠ تفسير أبي السعود، أبو السعود العمادي محمّد بن محمّد بن مصطفى (٩٨٢هـ)، تحقيق : عبد القادر أحمد عطا، مطبعة السعادة .

٤١ تفسير البيضاوي، أبو الخير ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي (٦٩١ هـ)، دار إحياء التراث العربي، لبنان .

٤٢ تفسير الجلالين، جلال الدِّين محمّد بن أحمد المحلي (٨٦٤ هـ)، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩١١ هـ)، دار ابن كثير، بيروت، ط١٥ / ١٤٣٤هـ – ٢٠١٣م .

٤٣ تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (٧٧٤هـ)، تحقيق : محمّد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ / ١٤١٩هـ .
٤٤ التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب (١٣٩٠هـ)، دار الفكر العربي، القاهرة .
٤٥ تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (١٣٧١هـ)، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي، ط١ / ١٣٦٥هـ – ١٩٤٦م .
٤٦ تفسير المنار، محمّد رشيد بن علي رضا (١٣٥٤هـ)، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ط١ / ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢ م .
٤٧ التفسير الوسيط، وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط١/١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م .
٤٨ التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمّد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١/ ١٩٩٧ – ١٩٩٨م .
٤٩ التناسب البياني في القرآن، أحمد أبو زيد، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، ١٩٩٢م.
٥٠ التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم، الأستاذ الدكتور فاضل صالح السامرائي، دار ابن كثير، ط١ / ١٤٣٧هـ – ٢٠١٦م .
٥١ تهذيب اللغة، أبو منصور محمّد بن أحمد الأزهري الهوري (٣٧٠ هـ)، تحقيق : الأستاذ علي حسن هلالي، الدار الصرية للتأليف والترجمة .

﴿ ج ﴾

٥٢ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري (٣١٠هـ)، تحقيق : الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط١ / ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م .
٥٣ الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمّد بن محمّد بن عبد الكريم الشيباني الجزري (٦٣٧هـ)، تحقيق : مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمي، ١٣٧٥هـ .

٥٤ الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمّد بن أحمد الأنصاري القرطبي (٦٧١ هـ)، تحقيق : الدكتور عبدالله بن عبد المحسن التركي وآخرين، مؤسسة الرسالة، ط١ / ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م .
٥٥ الجدول في إعراب القرآن الكريم، محمود بن عبد الرحيم صافي (١٣٧٦هـ)، دار الرشيد، دمشق، مؤسسة الإيمان، بيروت، ط٤ / ١٤١٨ هـ .
٥٦ جماليات المفردة القرآنية، أحمد ياسوف، دار المكتبى، دمشق، ط٢ / ١٤١٩ هـ – ١٩٩٩م .
٥٧ جمهرة اللغة، أبو بكر محمّد بن الحسن بن دريد الأزدي (٣٢١هـ)، تحقيق : رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١ / ١٩٨٧م .
٥٨ جواهر البيان في تناسب سور القرآن – لأبي الفضل عبدالله محمد الصديق الغماري الحسني – مطبعة محمَّد عاطف وسيد طه .

﴿ ح ﴾

٥٩ حاشية الصبان على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك، أبو العرفان محمّد بن علي الصبان (١٢٠٦هـ)، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان – ط١ / ١٤١٧هـ –١٩٩٧م .
٦٠ الحدود في علم النحو، شهاب الدين أحمد بن محمّد بن محمّد البجائي الآبذي الأندلسي (٨٦٠ هـ)، تحقيق : نجاة حسن عبد الله نولي، منشورات الجامعة الإسلامية، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م .

خ

٦١ الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني (٣٩٢هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤ .

٦٢ خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، عبد العظيم إبراهيم محمّد المطعني، مكتبة وهبة، ط١/ ١٤١٣هـ -١٩٩٢م .

٦٣ خصائص الحروف العربية ومعانيها، حسن عباس، منشورات اتِّحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٨ .

د

٦٤ دراسات في فقه اللغة، الدكتور صبحي إبراهيم الصالح (١٤٠٧هـ)، دار العلم للملايين، ط١ / ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م .

٦٥ دراسة المتشابه اللفظيّ من آي التنزيل في كتاب ملاك التأويل، الدكتور محمّد فاضل صالح السامرائي، دار عمّار للنشر والتوزيع، الأردن، ط١ / ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م .

٦٦ درة التنزيل وغرة التأويل، أبو عبد الله محمّد بن عبد الله الإسكافي (٤٢٠هـ)، تحقيق : الدكتور محمّد مصطفى آيدين، منشورات معهد البحوث العلمية جامعة أم القرى، ط١ / ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م .

٦٧ الدلالة الصوتية في اللغة العربية، الدكتور صالح سليم عبد القادر الفاخري، المكتب العربيّ الحديث، مصر .

٦٨ دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني، المكتبة العصرية ، بيروت، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م .

٦٩ دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي الخُسْرَوْجِردي الخراساني (٤٥٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١/ ١٤٠٥ هـ .

٧٠ ديوان حسان بن ثابت، دار الكتب العلمية، لبنان، ط٢ / ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م .

ر

٧١ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين محمود ابن شهاب الدين الآلوسي (١٢٧٠ هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ز

٧٢ زهرة التفاسير، أبو زهرة محمّد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد (١٣٩٤هـ)، دار الفكر العربي .

س

٧٣ سرّ صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (٣٩٢هـ) ، تحقيق : الدكتور حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط٢ / ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م .

٧٤ السياق اللغوي في القصص القرآنيّ، الدكتور أبو تمام أحمد ميرغني عيسوى، دار العالم العربي، القاهرة، ط١ / ١٤٣٦هـ – ٢٠١٥ م .

٧٥ سيكولوجية القصة في القرآن، الدكتور التهامي نقرة، الشركة التونسية للتوزيع، الحلقة الثالثة، جامعة الجزائر، ١٩٧١ م .

ش

٧٦ شذا العرف في فن الصرف، أحمد بن محمّد الحملاوي (١٣٥١هـ)، مؤسسة الرسالة ناشرون، لبنان، ط١ / ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م .

٧٧ شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك، أبو عبدالله بدر الدين محمّد ابن جمال الدين محمّد بن مالك (٦٨٦ هـ)، تحقيق : محمّد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط١ / ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠م .

٧٨ شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، بهاء الدين عبد الله بن عقيل الهمداني (٧٦٩هـ)، تحقيق : محمّد محيي الدين عبد الحميد ، دار التراث، القاهرة، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه، ط٢٠ / ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ م .
٧٩ شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، أبو الحسن نور الدين علي بن محمّد الأُشْمُوني (٩٠٠هـ)، تحقيق : محمّد محيي الدين عبدالحميد، دار الكتاب العربي، لبنان – ط١ / ١٣٧٥هـ – ١٩٥٥م .
٨٠ شرح التصريح على التوضيح، خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد الجرجاوي الأزهري (٩٠٥ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت . ط ١ / ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠٠ م .
٨١ شرح الرضي على الكافية، رضي الدين محمّد بن الحسن الاستراباذي (٦٨٦هـ)، جامعة قار يونس، بنغازي، ط٢ / ١٩٩٦م .
٨٢ شرح الشافية في التصريف، عبد الله بن محمّد الحسيني المعروف بنقره كار (٧٧٦ هـ)، دار إحياء الكتب العربية .
٨٣ شرح المفصل، أبو البقاء موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش الموصلي (٦٤٣ هـ)، تحقيق : الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية . بيروت . ط ١ / ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م .
٨٤ شرح تسهيل الفوائد، أبو عبد الله جمال الدين محمّد بن عبد الله الطائي الجياني، (٦٧٢هـ)، تحقيق : الدكتور عبد الرحمن السيد، والدكتور محمّد بدوي المختون، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط ١/١٤١٠هـ – ١٩٩٠م .
٨٥ شرح شافية ابن الحاجب، حسن بن محمّد بن شرف شاه الحسيني الاستراباذي، (٧١٥هـ)، تحقيق : الدكتور عبد المقصود محمّد عبد المقصود، مكتبة الثقافة الدينية، ط١ / ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤م .
٨٦ شرح شافية ابن الحاجب، محمّد بن الحسن الرضي الاستراباذي (٦٨٦هـ)، تحقيق : محمّد نور الحسن وآخرين، دار الكتب العلمية، لبنان ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥م .
٨٧ شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، جمال الدين بن يوسف ابن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري (٧٦١ هـ)، تحقيق : محمّد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة،٢٠٠٤م .

٨٨ شرح كافية ابن الحاجب، رضي الدين محمد بن الحسن الأستراباذي (٦٨٦ هـ)، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١/١٤١٩هـ – ١٩٩٨م .
٨٩ شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، نشوان بن سعيد الحميرى اليمني (٥٧٣هـ)، تحقيق : الدكتور حسين بن عبد الله العمري وآخرين، دار الفكر المعاصر، لبنان، دار الفكر، سورية، ط١ / ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م .

ص

٩٠ الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أو الحسين أحمد بن فارس القزويني الرازي (٣٩٥هـ)، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١ / ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م .
٩١ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤ / ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م .
٩٢ صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٦١هـ)، تحقيق : محمّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت .
٩٣ الصرف العربيّ أحكام ومعان، الدكتور محمّد فاضل السامرائي، دار ابن كثير، لبنان، ط١ / ١٤٣٤هـ – ٢٠١٣م .
٩٤ صفوة التفاسير، محمّد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، ط٤ / ١٤٠٢هـ – ١٩٨١م .
٩٥ الصوت اللغوي في القرآن، الدكتور محمّد حسين علي الصّغير، دار المؤرّخ العربي، بيروت، ط١ / ١٤٢٠هـ .

ع

٩٦ علم المعاني، الدكتور بسيوني عبدالفتاح فيود، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، مصر، ط٢ / ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م .

٩٧ علم المناسبات في السور والآيات، الدكتور محمّد بن عمر بن سالم بازمول، المكتبة المكِيَّة، مكة المكرمة، ط١ / ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢م .
٩٨ علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن الكريم وكشف إعجازه، الأستاذ الدكتور نور الدين عتر، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، سوريا، ط٢ / ١٤٣٧هـ – ٢٠١٦م .
٩٩ على طريق التفسير البياني، الأستاذ الدكتور فاضل صالح السامرائي، النشر العلمي ، جامعة الشارقة، ١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢م .
١٠٠ العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (١٧٠هـ)، تحقيق : الدكتور مهدي المخزومي، والدكتور إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال .

﴿ ف ﴾

١٠١ الفاصلة في القرآن، الدكتور محمّد الحسناوي، دار عمار للنشر والتوزيع، الأردن، ط٢ / ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م .
١٠٢ فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمّد بن علي بن محمّد بن عبد الله الشوكاني (١٢٥٠هـ)، تحقيق : الدكتور عبدالرحمن عميرة .
١٠٣ فضائل الصحابة، أبو عبد الله أحمد بن محمّد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (٢٤١هـ)، تحقيق : الدكتور وصي الله محمّد عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١/ ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م .
١٠٤ فواتح سور القرآن، الدكتور حسين نصّار، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١.
١٠٥ في رحاب التفسير، عبد الحميد كشك، المكتب المصري الحديث .
١٠٦ في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط١٧/ ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م .

﴿ ق ﴾

١٠٧ قصص القرآن الكريم ، الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس، دار الفرقان للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن، ط١ / ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م .

١٠٨ القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط١ / ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨م .

١٠٩ القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، عبد الكريم الخطيب، دار المعرفة . لبنان . ط ٢ / ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م .

﴿ ك ﴾

١١٠ الكافية في علم النحو، ابن الحاجب جمال الدين بن عثمان بن عمر بن أبي بكر المصري الإسنوي المالكي (٦٤٦هـ)، تحقيق : الدكتور صالح عبد العظيم الشاعر، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١ /٢٠١٠م .

١١١ الكتاب، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر المعروف سيبويه (١٨٠هـ)، تحقيق : عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣ / ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م .

١١٢ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (٥٣٨ هـ)، تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، مكتبة العبيكان، ط١ / ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م .

١١٣ كشف المعاني في المتشابه من المثاني، أبو عبد الله محمّد بن إبراهيم بن جماعة الكناني الحموي (٧٣٣هـ)، تحقيق : الدكتور عبد الجواد خلف، دار الوفاء، المنصورة، ط ١ / ١٤١٠ هـ . ١٩٩٠م .

١١٤ الكشكول، بهاء الدين محمّد بن حسين بن عبد الصمد الحارثي العاملي الهمذاني، (١٠٣١هـ)، تحقيق : محمّد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١ / ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م .

١١٥ الكليات، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي (١٠٩٤هـ)، تحقيق : عدنان درويش، ومحمّد المصري، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط٢ / ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨م.

ل

١١٦ لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩١١هـ)، دار الكتب الثقافية، لبنان، ط١ / ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م .
١١٧ اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي (٨٨٠ هـ)، تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت . ط ١ / ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م .
١١٨ لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (٧١١ هـ)، دار المعارف، القاهرة .
١١٩ اللمحة في شرح الملحة، أبو عبد الله محمّد بن حسن بن سيباع بن أبي بكر الجذامي المعروف بابن الصائغ (٧٢٠ هـ)، تحقيق : إبراهيم بن سالم الصاعدي، منشورات الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة . ط ١ / ١٤٢٤ هـ . ٢٠٠٤ م .
١٢٠ لمسات ولطائف من الإعجاز البيانيّ للقرآن الكريم، الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس، دار النفائس، الأردن، ط١ / ١٤٣٧هـ – ٢٠١٦م .
١٢١ اللمع في العربية، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (٣٩٢هـ)، تحقيق : فائز فارس، دار الكتب الثقافية، الكويت .

م

١٢٢ مباحث في إعجاز القرآن، الدكتور مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، ط٣ / ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م .

١٢٣ مباحث في التفسير الموضوعيّ، الدكتور مصطفى مسلم، دار القلم، ط٤ /١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م .
١٢٤ مباحث في علوم القرآن، مناع بن خليل القطان (١٤٢٠هـ)، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط٣ / ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .
١٢٥ المبدع في التصريف، أبو حيان محمّد بن يوسف الأندلسي (٧٤٥ هـ)، تحقيق : الدكتور عبد الحميد السيد طلب، دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، ط١ / ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .
١٢٦ المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، الدكتور محمد محمود القاضي، الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١ / ١٤٣٠ هـ . ٢٠٠٩ م .
١٢٧ المتشابه اللفظي في القرآن الكريم . دراسة نقدية بلاغية . الدكتور مشهور موسى مشهور . عالم الكتب الحديث . الأردن . ط ١ / ١٤٣١ هـ . ٢٠١٠ م .
١٢٨ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمّد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (٥٤٦هـ)، عبد السلام عبد الشافي محمّد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ / ١٤٢٢ هـ .
١٢٩ المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (٤٥٨هـ)، تحقيق : الدكتور عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ / ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م .
١٣٠ المخصص، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (٤٥٨هـ)، تحقيق : خليل إبراهم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١ / ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م .
١٣١ مدخل إلى القرآن الكريم، الدكتور محمّد عبدالله دراز، دار القلم، الكويت، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م .
١٣٢ مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمّد بن حنبل الشيباني (٢٤١هـ)، تحقيق : شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١ / ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م .
١٣٣ مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السِّوَرِ، أبو الحسن برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي (٨٨٥هـ)، مكتبة المعارف، الرياض، ط١ / ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م .

١٣٤ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أبو العباس أحمد بن محمّد بن علي الفيومي (٧٧٠هـ)، تحقيق : الدكتور عبد العظيم الشناوي، دار المعارف، القاهرة، ط٢ .
١٣٥ المصنف، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (٢١١هـ)، حبيب الرحمن الأعظمي، المجلس العلمي، الهند، ط٢ / ١٤٠٣هـ .
١٣٦ معاني الأبنية في العربية، الدكتور فاضل صالح السامرائي، دار عمار، عمان، ط ٢ / ١٤٢٨ هـ. ٢٠٠٧ م .
١٣٧ معاني النحو، فاضل صالح السامرائي، دار الفكر ناشرون وموزعون – الأردن، ط٣ / ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م .
١٣٨ معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩١١ هـ)، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١ / ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م .
١٣٩ معجم الأوزان الصرفية، الدكتور إميل بديع يعقوب، عالم الكتب، بيروت، ط١ / ١٤١٣هـ. ١٩٩٣ .
١٤٠ المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الطبراني (٣٦٠هـ)، تحقيق : طارق بن عوض الله بن محمّد ، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة .
١٤١ مفاتيح الغيب، أبو عبد الله فخر الدين محمّد بن عمر الرازي (٦٠٤ هـ)، دار الفكر، لبنان، ط ١ / ١٤٠١هـ – ١٩٨١م .
١٤٢ المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمّد الراغب الأصفهاني (٥٠٢ هـ)، تحقيق : مركز الدراسات والبحوث، مكتبة نزار مصطفى الباز .
١٤٣ المفصل في صنعة الإعراب، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري (٥٣٨هـ)، تحقيق : الدكتور علي بو ملحم، مكتبة الهلال، بيروت، ط١/ ١٩٩٣م .
١٤٤ مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (٣٩٥هـ)، عبد السلام محمّد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م .

١٤٥ المقدمة، عبدالرحمن بن خلدون، تحقيق وتعليق : عبدالسلام الشدادي، الدار البيضاء، ط١ / ٢٠٠٥م .
١٤٦ ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي (٧٠٨ هـ)، تحقيق : سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط١ / ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م .
١٤٧ الممتع الكبير في التصريف، أبو بكر علي بن مؤمن ابن عصفور (٦٦٩هـ)، تحقيق : الدكتور فخر الدين قباوة، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١ / ١٩٩٦م.
١٤٨ من أسرار البيان القرآني، الأستاذ الدكتور فاضل صالح السامرائي، دار الفكر ناشرون وموزعون، الأردن، ط ١ / ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م .
١٤٩ من بلاغة القرآن، أحمد أحمد عبد الله البيلي البدوي (١٣٨٤هـ)، نهضه مصر، القاهرة، ٢٠٠٥م .
١٥٠ المناسبة في القرآن دراسة لغوية أسلوبية للعلاقة بين اللفظ والسياق اللغويّ، الدكتور مصطفى شعبان المصري، المكتب الجامعي الحديث، ط٢ / ٢٠١٤م .
١٥١ المنصف شرح كتاب التصريف لأبي عثمان المازني، أبو الفتح عثمان بن جني (٣٩٢هـ)، دار إحياء التراث القديم، ط١ / ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م .

﴿ ن ﴾

١٥٢ النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، محمّد بن عبد الله دراز (١٣٧٧هـ)، دار القلم للنشر والتوزيع، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م .
١٥٣ نتائج الفكر في النَّحو، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (٥٨١هـ)، تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمّد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ / ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .
١٥٤ النحو العربي أحكام ومعانٍ، الدكتور محمّد فاضل السامرائي، دار ابن كثير، ط١ / ١٤٣٥ - ٢٠١٤م .
١٥٥ النحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف، مصر، ط٣ .

١٥٦ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، أبو الحسن برهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط البقاعي (٨٨٥هـ) .
١٥٧ النقد الأدبي أصوله ومناهجه، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٨ / ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م .
١٥٨ النكت في إعجاز القرآن، أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (٣٨٤هـ)، تحقيق : محمّد خلف الله، والدكتور محمّد زغلول النجار، دار المعارف، مصر، ط ٣ / ١٩٧٦م (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) .
١٥٩ نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، فخر الدين محمّد بن عمر بن الحسين الرازي (٦٠٦ هـ)، تحقيق : الدكتور نصر الله حاجي مفتي أوغلي، دار صادر، بيروت، ط ١ / ١٤٢٤هـ . ٢٠٠٤م .

هـ

١٦٠ همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩١١هـ)، تحقيق : أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، لبنان، ط ١ / ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م .

الرسائل والأطاريح الجامعية

١٦١ اتجاهات التأليف ومناهجه في القصص القرآني، سليمان محمّد علي الدقور، رسالة دكتوراه، كلية الشريعة جامعة اليرموك، بإشراف : الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥م .
١٦٢ الأسلوب البلاغي في القرآن الكريم (سورة الكهف نموذجًا)، دراسة وصفية، محمّد بو لحية، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة الحاج لخضر، بإشراف : الأستاذ الدكتور عبدالسلام ضيف، ١٤٣١ هـ – ٢٠١٠م .

١٦٣ أسلوب التفصيل بعد الإجمال وأغراضه في القرآن الكريم، هاني خضر مصطفى أبو خضر، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا جامعة النجاح الوطنية، بإشراف الدكتور : عودة عبدالله، ٢٠١٢م .
١٦٤ أهداف ومقاصد موضوعات سورة التوبة، دراسة تحليلية، حسن عبدالله طه الخطيب، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين الجامعة الإسلامية، بإشراف : الدكتور عبد الكريم حمدي الدهشان، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م .
١٦٥ بلاغة المتشابه اللفظي في تفسير البحر المحيط لأبي حيان، مريم بنت عبدالله بن علي القرشي، رسالة دكتوراه، كلية التربية جامعة أم القرى، بإشراف الأستاذ الدكتور : يوسف عبدالله الأنصاري، ١٤٣٢هـ – ١٤٣٣ هـ .
١٦٦ سورة النمل، دراسة لغوية في ضوء علم المناسبة، هشام ستار مهدي السامرائي، رسالة ماجستير، كلية التربية جامعة سامراء، بإشراف : الأستاذ الدكتور أحمد هاشم السامرائي، ١٤٣٤ هـ – ٢٠١٣م .
١٦٧ الصيغ الفعلية في القران الكريم، أصواتا وأبنية ودلالة، ثريا عبد الله عثمان إدريس . أطروحة دكتوراه، كلية اللغة العربية جامعة أم القرى، بإشراف : الأستاذ الدكتور أحمد علم الدين الجندي، ١٤١٠هـ. ١٩٨٩م .
١٦٨ المناسبة بين الفواصل القرآنية وآياتها، دراسة تطبيقية لسور (الرعد، ويوسف، وإبراهيم)، نمر جير سدر، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين الجامعة الإسلامية، بإشراف : الدكتور زكريا إبراهيم الزميلي، ١٤٣٢هـ – ٢٠١١م .